سلسلة نظريات علم الإجتماع

الكتاب الأول

بناء النظرية الاجتماعية

تاليف
دكتور/ علي ليلة
أستاذ النظرية الأجتماعية بجامعة عين شمس

المكتبة المصرية
للطباعة والنشر والتوزيع
٣ ش أحمد ذو الفقار – لوران الإسكندرية
تليفاكس : ٥٨٤٠٢٩٨/٠٣/٠٠٢
محمول :٤٦٨٦٠٤٩/٠١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾

صدق الله العظيم

الكتاب الأول

بناء النظرية الاجتماعية

الإفتراضات النظرية والعلاقة بالواقع الاجتماعي

الفهـــرس

الموضـــــوع	الصفحـة

الفصل الثالث
النظرية الاجتماعية
تياراتها وعلاقتها بالواقع الاجتماعي

الفصل الرابع
الافتراضات الأساسية
لنظريات علم الاجتماع

مقدمـــة:

يشـــكل ظهـــور النظرية في بناء العلم دالة علي نضج بنائه الفكرى واكتماله، وبرغم أن النظرية هي المكون الأخير الذي يكتمل به بناء العلم، إلا أنهـــا تظـــل الوحـــدة القادرة علي منح العلم هويته. وهي الفعالة في توجيه إنجازاتـــه وحركته في دراسة الظواهر التي تشكل مجال فاعلية العلم وإطار بحثه وإدراكه. ويرجع كون النظرية هي الوحدة الأخيرة التي يكتمل بها بناء العلـــم لعامليـــن، الأول أن المـــراحل الأولـــي للعمل تتميز بمحاولة تلمس المعطـــيات المـــتعلقة بالظواهر الواقعية لإدراكها، والوصول من خلال هذا الإدراك إلي مجموعة من التعميمات التى يمكن أن تشكل بعد تجريدها وإعادة تنظـــيمها أساســـاً لبناء النظرية. وهو ما يعنى أن العلم في سعيه لاستكمال نظريـــته ابتداءاً من تلمس المعطيات الواقعية وإنتهاءاً بالوصول إلي القضايا المجردة. ويتمثل العامل الثاني في اعتبار امتلاك العلم لقدر من المعرفة التي تشكل كيانه شرطا أساسيا لامتلاكه نظريته، إذ تعتبر النظرية في هذا الإطار وســـيلة لتنقـــيح المعـــرفة، وإعادة تنظيمها وفرض الرمزية عليها. ومن ثم فإمـــتلاك العلم للمعرفة يعتبر الشرط الأساسى والضروري لأمتلاك النظرية الـــتى تعـــد بطريقة اخرى هي ذات المعرفة ولكن علي مستوى أكثر كثافة وأكثر تنظيما.

وحتى يكتمل بناء النظرية، فإننا نجده يمر عادة بأربعة مراحل تسلم كـــل مـــنها إلي الأخرى. في المرحلة الأولي نجد أن الجهد العلمي لعدد من الباحثيـــن فـــي مجال معين من مجالات العلم يثمر مجموعة من القضايا أو الفرضـــيات التى يمكن أن تتكامل لتصبح توجهاً أو موقفاً فيما يتعلق بمشكلة واقعـــية محددة. بحيث يبدأ الباحثون في الأستشهاد بهذه القضايا حين تناول ظواهر او مشكلات مماثلة سواء في عمليات الوصف او التحليل أو التفسير، وقـــد يستغرق الباحثون فترة طويلة في اختبار هذه القضايا وإعادة اختبارها وصـــياغتها حتى تصبح صالحة أو مؤهلة لتكون وحدة مكونة وفعالة في أي من الأبنية النظرية التي قد تتشكل.

فـــإذا تكاثرت القضايا، وإذا تجانس المجال الواقعى الذى تجرد عنه هذه القضايا، فإنها تنتظم لكى تشكل نموذجاً نظرياً يؤسسه باحث مبدع، لكى يســتخدمه في عمليات البحث التالية أو يستخدمه الآخرون. أو يؤسسه باحث تأسيســاً إراديــاً ومؤقــتاً كــى يستفيد منه في عمليات تنظيم المادة الواقعية وتحليلها وتفسيرها بما يبرز مجموعة من القوانين الحاكمة لها. غير أن هذا الجهــد من شأنه إذا تكرر من قبل عدد من الباحثين فإنه يؤدى إلي نتيجتين، الأولى إعادة إختبار قضايا النموذج النظرى بما يحدد درجة الثقة في كفاءتها العلمية، والثانية استيعاب النموذج النظرى لقضايا جديدة في بنائه بما يساعد على توسيع نطاقه والاقتراب من نقطة التحول من نموذج نظرى إلي نظرية علمية، وهو ما يؤكد القول الذي يذهب إلي التأكيد بأن النموذج النظرى يشكل جسر العبور إلي النظرية العلمية.

وبــتكاثر النماذج العلمية علي خريطة العلم فإن ذلك يعتبر دالة علي كــثافة الجهود العلمية والبحثية التى تبذل في نطاق العلم، وأيضا علي بداية التفاعل بين النماذج النظرية المختلفة، بحيث يؤدى هذا التفاعل عادة إلي تولد نمــاذج جديدة، غير أن هذه النماذج علي كثافتها، وقدرة تكاثرها، مازال كل مــنها قــادر علي إدراك وفهم أي من جوانب الواقع الاجتماعي. وإذا كانت الــنماذج النظرية تشكل علي هذا النحو مجموعة من الجزر المنعزلة التى قد تعكس بعض جوانب الواقع غير أنها تعجز عن تصويره وإدراكه في كليته. فإنــنا نجدهــا – كإتجــاه عام – تتجه نحو الاتصال ببعضها البعض، وهذا الاتصال من شأنه أن يسلم عادة إلي أي من الأبنية النظرية سواء كان البناء الــنظرى- الــتى أســلمت إلــيه – من نوع النظريات المتوسطة المدى أو النظريات الشاملة.

فإذا أتصلت مجموعة من النماذج النظرية بعضها البعض لتشكل بناءاً نظــريا أكثر شمولاً، فإن ذلك من شأنه أن يقود مجموعة أخرى من النماذج لتشــكل هى الأخرى نظرية أخرى، مناظرة، أو بديلة، أو حتى مناقضة لهذه النظرية الأخرى. وهنا نجد أن العلم قد دخل مرحلة جديدة تماما هي مرحلة

الـــنظريات المتعددة أو المدارس الاجتماعية، التى تحتوى كل منها علي عدد مـــن الـــنظريات الـــتى تتميز بطبيعة واحدة، كالمدرسة الوظيفية التى تضم نظـــريات دوركـــيم، وبارســـونز، وميرتون، أو مدرسة الصراع التى تضم الـــنظرية الماركســـية، والماركســـية المحدثـــة، إضـــافة إلي نظرية رالف دارنـــدورف، ولويس كوزر، أو المدرسة النقدية التى تضم نظريات كل من مـــاكس هوركهايمر، وتيودور أدورنو، وهربرت ماركيوز وجيرجون هابير ماس، إضافة إلي س. رايت ميلز. وفي مرحلة المدارس او النظرية المتعددة. فإنـــنا نجد أن كل نظرية من هذه النظريات تحاول من خلال البحث الواقعى والمـــيدانى أن تعـــيد اختـــبار قضاياها، لتطور هذه القضايا وتوسع في ذات الوقـــت من نطاق بنائها النظرى ليستوعب قضايا من النظريات الأخرى او المقابلة كما فعل روبرت. ك. ميرتون حينما حاول دعم نظريته الوظيفية من خـــلال إستعارة بعض المفاهيم الأكثر تجانساً مع منظورات الصراع كمفهوم التـــناقض، ومفهـــوم الآداء الوظـــيفى المعـــوق، والآداء الوظيفي المتعدد، والوظائف البديلة والوظائف الكامنة، بحيث جعل الاتجاه الوظيفي أكثر قدرة علـــي تـــناول قضايا الصراع والتغير. أو ما فعله منظروا المدرسة النقدية، وبخاصـــة مـــنظروا مدرسة فرانكفورت، حينما اتجهوا إلي إستخدام أدوات البحـــث الامبيريقـــي أو الميدانـــي وهى الأدوات التى طورها علم الأجتماع الغربـــي. إضافة إلي ذلك تحاول النظريات المختلفة خلال هذه الفترة إثبات زيف قضايا النظريات الأخرى أو المضادة ليس من خلال منطق ايديولوجي، ولكن من خلال ممارسة علمية، وذلك مثلما فعل س. رايت ميلز في انتقاداته للبارسونزية، أو حينما فعل تالكوت بارسونز حينما حاول البرهنة علي رؤية ماركس المختزلة للصراع.

ونحـــن الأن علـــي أعـــتاب المرحلة الرابعة، حيث الساحة في علم الأجـــتماع ممتلـــئة بعديد من النظريات التي تمتلك تصورات مختلفة للواقع، بحيث يصل اختلافها أحيانا إلي حد التناقض. ومن المنطقى أن يساعد الجدل والحـــوار بيـــن هذه النظريات المتعددة إلي الوصول إلي النظرية العامة أو

الشـــاملة للعلـــم، بحيث يرمز ذلك إلي تعميد علم الاجتماع كعلم بين العلوم. حقيقة أن هناك انقلابا يحدث الآن في بناء التنظير الاجتماعى يتمحور حول أســـتبدال الإدراك الموضـــوعى بالإدراك الذاتي الباحث عن المعنى، وحيث يستبدل التفسير بالتأويل ويستبدل الفهم بالتفهم، يسعىهذا الانقلاب الفكري إلي إدراك الواقـــع باعتباره جمعا من العناصر التى تغيب عنها آية نسقية، بل أن النسقية ذاتها أصبحت موضع تساؤل سوف نتعرض له في تحليلات قادمة.

ومـــن المعـــتقد أنه قد بذلت محاولات متنوعة من أجل الوصول إلي الالتقاء بين هذه النظريات العديدة والمتنوعة. وقد تجلت هذه المحاولات من خـــلال استراتيجيات متنوعة. تمثلت أولها في البحث عن مناطق الالتقاء بين هـــذه النظريات ومحاولة صياغة تكامل بينها، لتخليق بناء نظرى جديد يضم أفضـــل مـــا بهذه النظريات المتعددة كمحاولة التأكيد على التكامل بين تنظير الصـــراع الذي تقول به الماركسية وتنظير التوازن الذى تؤكد عليه النظرية الوظيفية في إطار صياغة نظرية جديدة كتلك التى قال بها فان دنبرج، أو ن. ج. دى مـــيراث. غير أن الخطأ الذي يكمن في هذه الاستراتيجية يتمثل في محاولـــة جمـــع قضـــايا تعكس رؤية مستقطبة ومتطرفة للحقائق، ثم السعي لدمجهـــا صـــوريا مـــع بعضها البعض. وعلى الرغم من إمكانية هذا الدمج الصـــوري، إلا إنها سوف تظل عاجزة أمام تنوع التفاعل الواقعي، الذي قد يقع أغلبه في منطقة الوسط وليس علي مواضع الاطراف. ومن ثم فأعتقد أن الاستراتيجية الملائمة لصياغة هذا الالتقاء هي إستراتيجية المتصلات وليست المواقف المتطرفة أو المستقطبة.

وتعتبر النزعة التوفيقية الاستراتيجية الثانية، حيث تحاول هذه النزعة التأكيد علي مواضع الالتقاء أو الميل إليه بين النظريات العديدة، إذ تؤكد هذه المحاولة علي المواضع التي يمكن التوفيق بينها، وهي عادة القضايا التي تقع علـــي هامش بناء النظرية أكثر من التأكيد علي القضايا المميزة للنظرية أو تلـــك التـــي تكســـبها طبيعتها. كالقول مثلا بأنه برغم تأكيد الماركسية علي الصـــراع إلا أنهـــا يمكـــن أن تطور تصوراً للتوازن كذلك، وإنه إذا كانت

الوظيفية الأنثروبولوجية أو الوظيفية الاجتماعية في مراحلها الأولى قد أكدت علـــي مفاهيم التوازن والأستقرار، فإن الاتجاه الوظيفي في علم الأجتماع في مـــراحله الاخـــيرة وبخاصة في نطاق المجتمعات الصناعية قد أستطاع أن يطـــور تصوراً لظواهر الصراع والتغير، بحيث تتكامل هذه التصورات مع القضـــايا المؤكـــدة علـــي الـــتوازن داخل هذا الإتجاه، بيد أننا نجد أن هذه الإســـتراتيجية تغفل القضايا المحورية داخل هذه الأبنية النظرية، إضافة إلي كونها تتجاهل الأصول الابستمولوجية المتباينة لأي من هذه النظريات.

علي خلاف ذلك تتمحور الاستراتيجية الثالثة حول سعى الباحثون في مخـــتلف الـــنظريات نحـــو تطوير أطرهم النظرية بحيث تشكل هذه الأطر النظرية محور النظرية الشاملة التى تشكل وعد علم الاجتماع. وهم في ذلك يمارســـون آلـــيات متـــنوعة، أبرزها اخضاع قضايا النظريات المضادة أو المقابلة لعمليات التأمل التحليلى والمنطقى وكذلك لمعطيات الواقع الأمبيريقي، لـــتحدد مـــا هو صادق بها، وما تجاوزه الواقع، ثم بعد ذلك محاولة إستيعاب القضـــايا الـــنظرية الصـــادقة بهذه النظريات في أبنيتهم النظرية، ذلك فعله روبـــرت مـــيرتون، وحاوله لويس كوزر في إطار الأتجاه الوظيفي، حيث أعطوا اعتباراً لقضايا الصراع والتغير، وحاوله أيضا رواد المدرسة النقدية في علم الإجتماع، فأكدوا أن النظام الاجتماعي وليس الطبقة الاجتماعية، وهو الوحدة أو الكلية الشاملة التى يمكن أن ندرس بالنظر إليه أية وقائع جزئية.

وبغض النظر عن تقييمنا لكفاءة أي من هذه الاستراتيجيات كطريق للوصول إلي النظرية العامة للعلم، فإننا نعتقد أن الوصول إلي النظرية العامة للعلـــم مـــرهون بضـــرورة مراعاة ثلاثة شروط. ويتمثل الشرط الأول في ضـــرورة تجنـــب الجـــدل الأيديولوجـــي كمدخل لصياغة الالتقاء بين هذه الـــنظريات المـــتعددة. ويرتبط بذلك ضرورة تجنب الجدل الأيديولوجي في إطـــار مناقشـــة القضايا النظرية، حيث قد يجهل البعض الحدود الفاصلة بين القضـــايا ذات الطبـــيعة العلمـــية للـــنظرية الاجتماعـــية، وبين المتضمنات الأيديولوجـــية للنظرية، وإذا كانت الوظيفة الأيديولوجية للنظرية هى إحدى

وظائفهـــا- باعتـــبار أننا نتعامل مع المجتمع – فإن من الأخطاء الفادحة أن نتـــناول الـــنظرية باعتـــبارها كـــيانا كليا من خلال إحدى زواياها الجزئية، ونســـتطيع القول بأن اللعب علي الوتر الإيديولوجي للنظرية- باعتباره الوتر الرئيســـي – كان أحد الممارسات التى أعاقت نمو النظرية الاجتماعية علي نطاق الواقع الغربي وكذلك واقعنا العربي.

ويؤكـــد الشرط الثانى علي ضرورة ألتزام النظرية بحركة متغيرات الواقع. وسواء كانت النظرية هي التى تتولى توجيه التفاعل الواقعي لترشيد حركته، أو كانت تحاول فهم هذه الحركة. فإنها ينبغى أن تظل ملاحقة لحركة هذا الواقع ونفاعلاته المتجددة. بمعنى إنه إذا كان الواقع يتجه إلي الاستقرار فمـــن الخطـــأ ان تفـــرض عليه تصورات الصراع، وإذا كان الواقع تسوده تفـــاعلات الصراع، فمن المحظور أن ندعى انه يبحث عن التوازن، علينا – نحـــن الباحثيـــن- أن نكـــون أكـــثر أمانة مع الواقع فتفاعلاته هى التى لها الأولوية، وهى التي ينبغي أن تعكسها كافة القضايا النظرية، إن واقع النظام الدولـــي واقـــع متحرك الآن، وكذلك واقع المجتمعات المحلية، وعلي الأبنية الـــنظرية أن تعكـــس – علـــي الأقل – هذه الحركة إن لم تستطع ترشيدها وتوجيهها.

ويرتبط الشرط الثالث بضرورة الألتزام بأصول المنهج العلمى حين الـــتعامل مـــع الأبنـــية النظرية. فإذا كان جهد المرحلة السابقة – من تطور الـــنظرية الاجتماعية- قد تركز حول توفير القضايا والأبنية النظرية، حيث لعب المنهج العلمى دوراً محورياً في تنظيم المعطيات التى أفضت إلي تخلق هذه القضايا، فإننا في هذه المرحلة ينبغي أن نعيد فحص القضايا التى تشكل العناصـــر المكونة بالنسبة لمختلف النظريات، بالنظر إلي سياقات متباينة من الواقـــع، بحيث نبقي علي القضايا التى تعكس التفاعل الكائن في غالبية هذه الســـياقات الاجتماعية. ذلك يعني أن دور المنهج العلمي خلال هذه المرحلة يتمـــثل فـــي كونـــه يشـــكل المصـــفاه التى ننتقي من خلالها أكثر القضايا موضـــوعية. ولأن الواقع متكامل، بغض النظر عن التناقضات الكامنة فيه،

فإننـــا نـــتوقع بناء نظريا متكاملاً وشاملاً سوف يكون الوعد المأمول بالنسبة لعلم الأجتماع، والدالة التي تشهد على اكتمال تعميد هذا العلم بين العلوم.

وفى اعتقادى أن هناك قدر من المعوقات أو الممارسات التى أعاقت أو بالأصـــح عطلـــت سير النظرية في هذا الأتجاه. من هذه المعوقات مثلاً تـــناول الـــنظرية الاجتماعـــية مـــن منطق ايديولوجي. فنظراً لأن النظرية الاجتماعـــية، هـــي في الغالب تعبير عن تفاعلات حدثت في واقع اجتماعي محـــدد، وهـــي قـــد تستخدم في محاولة إدراك التفاعلات الكائنة بأي سياق اجتماعي- خاصة إذا كان متجانسا في بعض جوانبه مع الواقع الذي جردت عن تفاعلاته- أو توجيه وترشيد هذه التفاعلات. ومن ثم فهى لا بد أن تطور إتجاهـــا نحـــو الواقع الحاضر، الكائن، وبنفس المنطق فإن عليها أن تطور اتجاهـــا نحو ما ينبغي أن يكون والخطأ كل الخطأ أن يغفل الباحث مسألة أن الواقـــع مـــتحرك ومـــتجدد. ويطـــرح متغيرات جديدة دائماً. وإن علي هذه التفاعلات أن تنعكس بنفس القدرة في بناء النظرية. إذا فعل الباحث ذلك فإنه يـــتخلى عـــن بعض علميته ليصبح مناصراً ايديولوجيا يرى الأفكار صادقة دائماً، ففي رأيه أنه إذا تجاوز الواقع تصور النظرية فإن ثمة خطأ في الواقع ينبغـــي أن يكتشـــف، لتعاد المطابقة ثانية بين الواقع والنظرية. ولأن الواقع مـــتحرك، ومستمر في التفاعل وفقا لقوانينه الخاصة، فإن الباحث الذي يدعو لذلك يتجمد ويجمد النظرية معه، وكلما تحرك الواقع وطرح متغيرات جديدة إزدادت النظرية تخلفا عن متابعة حركته وإزداد الباحث جموداً.

ويعتـــبر الـــتأرجح الأخير الذي خضع له علم الأجتماع بين الاتجاه الوضـــعى والاتجـــاه المثال، أحد المعوقات التى أعاقت - بعض الشئ- نمو الـــنظرية الاجتماعـــية نحو الاكتمال والنضج. ويتضح ذلك من الشوط الذي قطعـــه علـــم الاجـــتماع في تاريخه الطويل. فمنذ نشأ التيار الأساسي لعلم الاجـــتماع بداية من سان سيمون وأوجست كونت وحتى الآن، وهو يمارس إدراكه بالنظر إلي المنطق الوضعى المستند إلي منطق العلوم الطبيعية، الذي يدرس الظواهر باعتبارها متماثلة إلي حد كبير مع مادة العلوم الطبيعية، وأنه

مـــن الضروري أكتشاف القوانين التى تحكم تفاعل الظواهر الاجتماعية مع بعضـــها البعض. غير أنه بعد فترة طويلة من الجهد العلمي، أدرك الباحثون في علم الاجتماع انه قد تراكم لديهم قدراً هائلاً من المعرفة وقدراً كبيرا من القوانيـــن المتعلقة بهذه الظواهر، إلا أنهم مع ذلك لم يحققوا درجة عالية من الضـــبط والـــتحكم في المادة موضع الدراسة، ومن ثم فهم مازالوا في غالب الأحـــيان عاجزين عن التنبؤ بأوضاع ظواهر الحاضر في المستقبل. ونتيجة لذلك فقد حدث تحول في علم الاجتماع نحو المناهج الذاتية ذات الصلة بالفكر المثالي، والتي تسعى إلي فهم معاني الوقائع الاجتماعية سواء كانت أفعالاً أو أنمـــاط ســـلوك، وهي الدعوة التى شكلت مثالية هيجل، والفلسفة الوجودية، وأفكـــار مـــاكس فيبر روافد لها، وهى الروافد التى تبلورت أخيراً في الفكر الـــنقدي فـــي علم الأجتماع، وهو الفكر الذي بدأته مدرسته فرانكفورت في العشرينات من هذا القرن.

ويعد الخلاف حول العمليات المحورية في بناء النسق أحد المعوقات الرئيســـية الـــتى أعاقـــت نمو النظرية في علم الإجتماع، حيث وجدنا بعض الـــنظريات التي تؤكد علي التكامل والتعاون والأنسجام والتوازن باعتبارها العملـــيات المحوريـــة، التـــي تخلـــع علـــي التفاعل بين البشر داخل النسق الاجتماعي طابعه الخاص به. في مقابل ذلك نجد بعض النظريات التى تؤكد علـــي الصـــراع والإغتراب والمنافسة بإعتبارها العمليات الضابطة لإيقاع تفاعل البشر مع بعضهم البعض. ذلك برغم أن الواقع الإجتماعى في طبيعة الأساسية لا يسير التفاعل في إطاره علي هذه الحالة المستقطبة، بل إننا نجد فـــي هـــذا الواقع بعضا من الصراع مضافاً إلي بعض من التعاون، فالواقع تفاعلـــه غـــير متجانس. حيث نجده أحيانا يتجه لتأكيد التكامل وأحيانا أخرى تظهر في نطاقه الآليات التي تهز هذا التكامل وتعمل علي إنهياره. ولعل ذلك هـــو الســـبب في إنه برغم إمتلاكنا لأبنية نظرية شامخة، إلا إن هذه الأبنية الـــنظرية مازالت في غالبها عاجزة عن تصوير التفاعل الاجتماعي الواقعي بكل جوانبه وزواياه.

وإذا اعتـبرنا الـتأرجح بين الوضعية والمثالية أحد المعوقات التى أعاقت تطور النظرية الاجتماعية، فإن التأرجح حول مستوى تحليل التفاعل الاجتماعـي ومـا ينتج عنه شكل معوقاً أخر. حيث نجد أن بض النظريات الكلاسـيكية قد إتجهت إلي تطوير أنساق نظرية شاملة، ومن ثم فقد مارست تحلـيلاتها علـي المسـتوى الشامل Macro بينما نجد أن هناك في المقابل طائفـة مـن النظريات الاجتماعية التي مارست التحليل علي مستوى جزئي Micro أي على مستوى العناصر الجزئية في التفاعل الاجتماعي. أحدها بدأ مـن أعلي بينما بدأ الآخر من أسفل، بدايات مختلفة ومنعزلة لم تتح الفرص لهـا لقـيام تفـاعل متبادل بين مستويي التحليل هذين. إذ نجد أن أحدهما لم يتأسـس استطراءا أو إمتداداً للآخر بحيث كان يمكن أن يتكامل الأداء علي مسـتويات التحليل هذه بما يشكل تراكماً يساعد علي دفع النظرية الاجتماعية إلـي الأمـام بدلاً من الوضع الحالي المنقسم علي ذاته والذي يتأرجح وضع النظرية الاجتماعية علي ساحته بين تبني مستوى التحليل الشامل أو الجزئي فـي دراسة التفاعل الاجتماعي، الأمر الذي جعل من هذا الوضع عائقاً أمام تطور النظرية في علم الأجتماع.

ويتمـثل المعوق الخامس في التساقط المعاصر للنسقية التى جردت عـنها الـنظرية الاجتماعية المعاصرة، سواء النظريات الشاملة أو الجزئية. ونحـن إذا تأملنا أوضاع النظرية الاجتماعية المعاصرة فسوف نجد أنها في غالـبها قـد جردت عن مستوى النسق القومي، أي النسق الذي يعكس حالة مجـتمع له حـدوده الواضحة نسبياً، والذي يمتلك قدراً من الاكتفاء الذاتي. يصدق ذلك علي غالبية النظريات الشاملة الماركسية البنائية الوظيفية، نظرية ماكس فيبر، نظرية باريتو علي حين نجد أن النظريات التى تمارس تحليلها علـي المسـتوى الجزئي تعمل في نطاق الجماعات أو السياقات الاجتماعية الصغيرة والمحدودة كالجماعات الصغيرة، او العلاقة بين الأنا والآخر، وهو مـا يعـنى أنهـا تمـارس تحليلها علي مستوي الأنساق الفرعية الصغيرة والمحـدودة. وفي المرحلة الأخيرة بدأنا نواجه تيارين جديدين علي الساحة

الاجتماعـــية. الأول العولمة، منظومة من الأفكار والقضايا التي حيث تعمل علـــي صـــعيد النسق العالمى، وتؤكد مقولاتها علي أنها تسعى لتفتيت النسق القومـــي، وإهداره لصالح خلق نسقية جديدة هي نسقية النظام العالمي. وفي هذه الحالة سوف يتخلق وضع حاد تواجهه النظرية الاجتماعية، حيث تتلاشى النســقية التي جردت عنها وعملت هذه النظرية علي فهم تفاعلاتها، وبدأت نســقية جديـــدة في الظهور، هي النسقية العالمية الشاملة التى لم تجرد عن وضـــعيتها غالبـــية النظريات الاجتماعية المعاصرة ومن ثم فهي غير قادرة علي فهم تفاعلاتها وظواهرها.

ويتســـق مع ذلك، وربما يتكامل معه بطريقة ما تيار ما بعد الحداثة، حيـــث يـــدرك الأشياء في ذاتها، باعتبارها عناصر لها وجودها علي ساحة المجـــتمع او تلعب دورها في التفاعل الاجتماعي، معانيها في ذاتها، وليست معانيها مكتسبة من خلال سياقها الاجتماعى او من خلال تفاعلها مع الآخر. وهي ليست ملتزمة بمعانى نمطية ثابتة ومحدودة، ولكنها ذات معاني متغيرة فـــي كـــل وقت وفى كل سياق، تتشكل غالبية معانيها من الإعلان والاعلام وتكنولوجـــيا المعلومـــات. ومـــن ثم تعجز النظرية الاجتماعية التى اعتادت دراسة العناصر والمكونات في إرتباطاتها النسقية عن فهم هذه العناصر وهى سابحة في الفضاء حاملة معانيها في ذاتها، إذ يمكن أن ترتبط بأي سياق، كما يمكن أن تنفصل عنه. بذلك يمكن القول بأن غياب النسقية التي جددت عنها غالبـــية النظريات الاجتماعية المعاصرة يشكل معوقاً رئيسياً أمام إكتمال نمو او نضج النظرية الإجتماعية المعاصرة.

ومـــن الطبـــيعى أننـــي ســـوف أحاول في هذه السلسلة التى أنتوي إصـــدارها وكتابـــتها عن النظرية الاجتماعية تتبع التطور التاريخي للتنظير بشـــأن المجـــتمع، ســـاعياً إلـــي فهـــم حركة التفاعل الداخلي لبناء النظرية الاجتماعية. وهي الحركة التى يمكن رصدها علي عدة محاور تتفاعل عبرها الـــنظرية الاجتماعـــية، فيتولد عن هذا التفاعل دائماً نماذج نظرية جديدة، أو علي الأقل ميولاً أو إتجاهات جديدة.

ويتمثل المحور الأول في التطور التاريخي، حيث نلاحظ تولد نماذج نظرية من أخرى، إما بسبب تغير الواقع وطرحه لمتغيرات جديدة، أو نتيجة لحركات التصحيح أو التنقيح التى تظهر عبر تاريخ كل تنظيم إجتماعي.

وتــبرز الجغرافــيا علي المحور الثاني، حيث أننا إذا تأملنا التنظير الاجتماعــي، فسوف نجده ينقسم في بنائه إلي مكونين أساسيين، البعد الاول تنظــير يتضــمن مجموعة من المقولات التى تتناول متغيرات مشتركة بين مختلف السياقات الإجتماعية، بينما هناك مكون تنظيري أخر، مازال مرتبطا بســياقات إجتماعــية بعينها، ونفترض أن يحدث تفاعل وتغذية متبادلة بين مقــولات هذين المكونين البنائيين، بما يقربنا من الحالة التى نصل فيها إلي الــنظرية العامة للعلم. وإذا كنا نفترض أن النظرية الاجتماعية المعاصرة قد نشــأت غربــية بالأساس، فإن بروز أنماط جديدة من المجتمعات في أعقاب الحرب العالمية الثانية (المتقدمة والنامية والمتخلفة) من شأنه أن يساعد علي تطوير مقولات تُستوعب في بناء النظرية العامة بما يوفر لها مخزونا معرفيا مــتراكما، يجعلهــا قادرة علي فهم ودراسة الواقع المتباين، بذات المقولات، وهنا يمكن القول بأننا قد بلغنا شاطئ النظرية الاجتماعية العامة.

ويعــد المحــور الثالث الذى نحاول تتبع تطور النظرية الاجتماعية خلاله، محور نوعى، تتجلي نوعياته في إتجاهات عديدة. فهناك الخلاف علي طبيعة العمليات المحورية المحددة لطبيعة التفاعل الاجتماعي، وهناك الخلاف حول درجة الألتزام بالنسقية، وأي نسقية. وهناك مكونات جديدة بدأت تطرأ علــي واقع المجتمعات، كالأرهاب الذي يسعى للعصف بجزء من بناء القوة ســواء علي مستوى النسق القومى أو العالمي كمدخل لإحداث التغيير، وهى حالة جديدة علي التفاعل العالمي. وتعد القوة هي المكون الثاني الذي طرأت فاعليــته علــي الصــعيد العالمــي. فلأول مرة في تاريخ العالم تسعى القوة المحورية فيه مستندة في ذلك إلي شرعية احتمالية إستخدام القهر، حتى تغير العالم وفق رؤيتها، بحيث يصبح العالم بكامله بيئة مواتية لها. بالاضافة إلي ذلــك يوجــد الإعلام وتكنولوجيا المعلومات، الذي تعمل بدأب وتوجيه لخلق

نسق عالمى متجانس، وهو هدف عجزت عنه أعتي القوى الاستعمارية عبر قرون كثيرة خلت.

علي هذه المحاور سوف أحاول تتبع حركة النظرية الاجتماعية، علنا أن نصل في النهاية إلي بصيرة نرى من خلالها التطورات غير المرئية وغير الظاهرة التي تخضع لها النظرية الاجتماعية، وما هو المنتهى الذي يمكن أن ترفأ فيه.

غير أنني قبل أن أنهي هذه المقدمة فإنني أتقدم بملاحظتين، الأولي: أن هذه السلسلة إتخذت نقطة أنطلاق لها من كتابي النظرية الاجتماعية المعاصرة فقد أدت الإضافات إلي هذا الكتاب في الطبعات السابقة إلي تضخمه، بحيث أصبح كالصندوق الممتلئ والذي لا يحتمل آية إضافة جديدة، ومن ثم فقد قررت إعادة تصنيف المادة ووضعها في صناديق عديدة تحتمل – برحب وسعة– الإضافة والتطوير وإمكانية الحركة السهلة، لذلك أبقيت علي المقدمة التي قدمنى بها أستاذى الكبير الأستاذ الدكتور محمد الجوهري عند طبعى لكتابي النظرية الاجتماعية المعاصرة في طبعته الأولي، أولاً لأنها كلمة علمية وشريفة لإستاذ عظيم تعلمت علي يديه، وثانيا لأني إعتبرت مقدمته ميثاق شرف معه، أدعو الله أن يساعدني علي الوفاء به، بأن أقدم بإذن الله للتنظير الاجتماعي العربي بعض الإسهام ولو كان محدوداً. علي ذلك أن يكون شاهداً علي جدية التلميذ أمام عظمة الأستاذ.

وتتمثل الملاحظة الثانية في أنني ادرك أن هذا الجهد الذي أنتويه يشكل بداية مشروع كبير يحتاج إلي جهد كبير، وإذا كان عظيماً أن يعثر الباحث علي مشروعه الفكرى الذى سوف يعمل عليه لسنوات قادمة في بداية حياته، فإنه لما يثير الأسي والألم الانساني أن يصل الباحث إلي مشروعه العلمي وسنوات العمر، أصبحت معدودة. وهنا تصبح الأمور جميعها معلقة بأقدار الله الذي أؤمن به، وأدرك أن عالمنا عالمه، وأن ما يحدث به مسير بإذنه وبأمره، والله الموفق أولاً وأخيراً.

علي ليلة

تصدير

بقلم

الدكتور محمد الجوهرى

استاذ ورئيس قسم الاجتماع

وعميد كلية الآداب – جامعة القاهرة

يستوجب التسجيل لنشأة النظرية السوسيولوجية وتطورها – أيا كانت بؤرة أهتمام الباحث القائم بهذا التسجيل – ان نأخذ في الاعتبار بعدين أساسين:

أما البعد الأول فيتمثل في التفاعلات الواقعية التي عاصرت نشأة النظرية موضع الاهتمام، او تلك التى جردت عنها. ونقصد بذلك البحث عن العلاقة بين مجموعة الأحداث الواقعية من ناحية، وبناء النظرية من حيث مقولاتها الأساسية وموقفها من هذه الأحداث من ناحية اخرى.

ويتمثل البعد الثاني في ضرورة أن نأخذ في الأعتبار الأصول الفكرية للنظرية موضع الأهتمام، وفى هذا الإطار ننظر إلي النظرية موضع الأهتمام من حيث أنها حلقة متنامية في إطار نسق نظري شامل له أبعاده التاريخية والمعاصرة.

وفي محاولة إدراك طبيعة وبناء النظرية السوسيولوجية – في تطوراتها التاريخية والمعاصرة – فإننا نجد أنه من الضروري أن نأخذ هذين البعدين في الأعتبار بهدف أن يكون إدراكنا أكثر كفاءة بقدر الإمكان، وأكثر تجنبا لنواحى النقص والقصور.

وفي إطار البعد الأول – حيث فاعلية الأحداث أو المعطيات الواقعية – نرى أن علم الاجتماع نفسه، ونظريته العامة قد ولد في إطار حركة شاملة لمحاولة تعقل الوجود الذي يعيشه الإنسان، بحيث دفع إلي ذلك وقوع أربعة

أحداث هامة كان لها تأثيرها في إشاعة حالة من الفوضى في مختلف جوانب الوجود الواقعي للإنسان مما جعل حياته في نطاقها صعبة ومستحيلة.

ويمثل إنهيار الكنيسة الكاثوليكية تحت وطأة انتصار الثورة البروتستنتية أول هذه الأحداث، حيث أنهار معها بناء كل من القيم والمعتقدات وأنماط السلوك. ومن ثم شكلت نظريات العقد الاجتماعي بالإضافة إلي بدايات الاتجاهات النظرية العامة الوسائل التى طرحها العقل البشرى محاولا عن طريقها إعادة تنظيم واقعة.

أما الواقعة الثانية فقد تمثلت في الثورة الفرنسية. وإذا كانت الأحداث الأولى والفكر الذي تخلق عنها قد تعلقت أساسا بالنظام الاجتماعي، من حيث تشخيص أسباب انهياره وأكثر الاستراتيجيات ملاءمة لإعادة البناء، فإن أحداث وفكر هذه المرحلة قد تعلق اساسا بالإنسان، كيف نحفظ له هويته في مواجهة المجتمع الذي خلقه، بينما نجده الآن يقهره.

ومثلما كان قاتما أن يعيش المجتمع الفرنسي أبان ثورته عصرا من الرعب تخلص في إطاره الثوار – من خلال القتل والتصفية – من النظام القديم بكل مظاهره الفاسدة، فلقد كان رائعا أن تكتب الدماء التي سالت وثيقة حضارية تؤكد حرية الإنسان وحقوقه الأساسية. ومن ثم فإذا كانت الواقعة الأولى قد حررت النظام، فإن الثانية هى التى تولت تحرير الإنسان المتضمن في هذا النظام.

وتعتبر الثورة الصناعية هي الواقعة الثالثة التى صاحبت ولادتها حالة من الفوضى وإنهيار التنظيم الاجتماعي في بعض جوانبه. هذا بالإضافة إلي أنها دفعت إلي ظهور النظام الرأسمالي بطابعه الحديث. وإنعكاسا لذلك تأسس نظام من التفكير يحاول إعادة تنظيم الواقع الاجتماعي بما يخلق علاقة متوازنة، حيث نظام اجتماعى يلائم تحقيق إمكانات الإنسان في مواجهة إنسان قادر علي التفاعل مع الآخر بما يدعم الوجود الاجتماعى ويشبع حاجاتهما معا في إطاره.

ولقــد شــكلت الأوتومــية الواقعــة الرابعة، حيث انتشار الظاهرة الصــناعية والتنظيمات البيروقراطية المرتبطة بها في مختلف جوانب الواقع الاجتماعــي، بحيث تحول النسق الاجتماعى إلي كل هائل له سيطرته القوية علي الإنسان المتضمن في إطاره، من حيث حركته وسلوكه وعلاقاته. بحيث أصــبح الإنســان مســتوعبا في إطار التفاعل الاجتماعي وليس مشاركا في صــياغته. وأنعكاســا لذلك ظهرت الاتجاهات الراديكالية كمحاولة لاستعادة هوية الأنسان وحقوقه المسلوبة في مواجهة النسق الأجتماعي.

ولقــد واكــب تطور الأحداث الواقعية عليّ هذا النحو تطور فكرى مناظرا له، حيث تحرك الفكر بشأن المجتمع متطورا من مرحلة إلي أخرى، ومتنامــيا مــن حيث قدرته علي الأتصال بالواقع، وقيادة تفاعله. وفي ضوء ذلك يمكننا تمييز أربعة مراحل أساسية تالية.

المــرحلة الأولي: ويمكن تسميتها بمرحلة التأسيس الأكاديمى، وهى المــرحلة الــتى أعقبت الاتجاهات النظرية العامة. ولقد شهدت هذه المرحلة أنساقا نظرية شامخة اشتقت تعميماتها من أصول فلسفية لها، وحاولت التعامل مع الواقع بالنظر إلي هذه التعميمات ويمكن أن نميز أربعة نماذج من التنظير في إطار هذه المرحلة.

١- الأنســاق الــنظرية للرواد، كالنظرية الماركسية والنسق النظرى لماكس فيــبر، والــنزعة السوســيولوجية لامــيل دور كايم ونظرية الرواسب والمشتقات لباريتو. ولقد تميزت هذه الأنساق بمحاولة تقديم تصور شامل للواقع الاجتماعي، من حيث عناصره وعملياته يعكس إلي حد كبير رؤية المنظر وقناعاته الفلسفية.

٢- الــنظريات العاملــية وهى التى رأت في الواقع الاجتماعي متغيرا تابعا لفاعلية متغير مستقل أساسا، اقتصاديا كان أو جغرافيا أو سلالياً أو حتى إجتماعياً.

٣- أما النموذج الثالث فيتمثل في نشأة المدارس النظرية التى تمتلك مجموعة من المقولات العامة التى تشكل طبيعة تصورها للوجود الاجتماعى. ولقد تميزت هذه المدارس النظرية بإنتماء الرواد لها وليس العكس، هذا بالإضافة إلي تجريد تعميماتها عن معطيات امبيريقية أساسا.

٤- النزعة الأمبيريقية التى بدأت بالأتجاه العلمى لكل من روجر وفرنسيس بيكون، واستمرت من خلال النزعة الأمبيريقية الانجليزية، ووجدت تجسيدها الحقيقي في الفكر الانثروبولوجي في مرحلة تاريخية تالية. ولقد تميز الفكر الأمبيريقي في هذه المرحلة بعدم رغبته في الابتعاد عن المعطيات، ورفضه الاستغراق في تأسيس الصياغات النظرية مفضلا رفع شعار دع الحقائق تتحدث عن نفسها.

ومن الملاحظ تميز التنظير الذي أفرزته هذه المرحلة بخاصيتين: الأولى: امتلاك الأنساق النظرية – باستثناء النزعة الأمبيريقية – لتصور شامل فيما يتعلق بالواقع الاجتماعى من حيث عناصره وعملياته وعلاقاته، واتباعها الأسلوب الإنتقائي في البرهنة. وتتمثل الخاصية الثانية في تضمن هذه التصورات النظرية الشاملة لعديد من التوجيهات الأيديولوجية، بحيث فرضت تعميماتها علي الباحث موقفا اعتقاديا نحو الواقع الاجتماعى الذي يعيشه. ومن ثم فقد أعاقها ذلك في بعض الأحيان عن القدرة علي أستيعاب متغيرات الواقع المتجددة، ونتيجة لذلك فقد عجزت النظرية الاجتماعية عن تطوير تراكم نظرى يعتبر نتاجا للعلاقة المتفاعلة بين إبداعات التنظير من ناحية ومعطيات الواقع المتنوعة من ناحية أخرى.

المرحلة الثانية: ويمكن أن نعتبرها المرحلة النقدية. حيث اتجه التفكير في إطارها إلي إخضاع التنظير الاجتماعي لنوع من التحليل والنقد بهدف تنقيح التعميمات النظرية القائمة بغية التوجه نحو صياغة نظرية إجتماعية عامة تمتلك مقومات النظرية العلمية من حيث إمكانياتها وكفاءتها التحليلية.

ويمكـــن تصـــنيف الإسهامات النظرية لهذه المرحلة الي ثلاثة نماذج أساسية:

١- الـــنموذج الأول هـــو النقد الأكاديمي، الذى تولى تقييم الأنساق النظرية للمرحلة السابقة بالنظر إلي محاكات أكاديمية أساسا ومن أهم كتابات هذا الـــنموذج مؤلف بيترم سروكن (النظريات الاجتماعية المعاصرة ١٩٢٨) ومؤلف دون مارتندال (طبيعة ونماذج النظرية السوسيولوجية ١٩٦١).

٢- أما النموذج الثاني فهو النقد الأيديولوجي، حيث قيم هذا النموذج من النقد الأنساق النظرية أو أي من تعميماتها بالنظر إلي متضمناتها الأيديولوجية، وكمـــثال علي هذا الطراز من النقد مؤلف ارفنج زايتلن (الأيديولوجيات ونشـــأة النظرية الاجتماعية ١٩٦٩). ثم مؤلفه الأخير (إعادة التفكير في علم الاجتماع ١٩٧٣).

٣- أما النموذج الثالث فيمكن أن نسميه بالتحلل أو النقد بالنظر إلي السياق، حيـــث الأفكار والتعميمات النظرية من وجهة نظر هذا النموذج ليست إلا انعكاســـا مباشرا للواقع الاجتماعي التى ظهرت في إطاره وجردت عن تفاعلاتـــه. ومـــن أهم الأمثلة علي هذا الطراز من الكتابات مؤلف الفن جولدنر (الأزمة القادمة لعلم الأجتماع الغربي ١٩٧١).

أمـــا المـــرحلة الثالثة: فيمكن أن نسميها بمرحلة المراجعة النظرية، حيث تأسست في إطارها مجموعة من الجهود النظرية التي حاولت الاستفادة مـــن منجزات المرحلة الأولى والثانية بهدف تأسيس مجموعة من التعميمات التى تشكل مساحات إتفاق من قبل مختلف نماذج النظرية الاجتماعية، بحيث تصبح هذه المرحلة أربع استراتيجيات للمراجعة:

١- وتتمـــثل الاســـتراتيجية الأولـــى في مجموعة الممارسات التوفيقية التى تحاول صياغة مجموعة من التعميمات النظرية التي يمكن الوصول إليها مـــن خلال التسوية أو التوفيق بين التعميمات النظرية المتباينة والمنتمية لأنســـاق نظرية متضادة. ومن أهم الأمثلة علي ذلك تلك المحاولات التى

بذلهـــا كـــل من فاندنبرج وجوندر فرانك G. Frank وأيضا ن. ج. دى ميرات N.J.D Merath.

٢- وتهدف الاستراتيجية الثانية للمراجعة النظرية إلي إعادة صياغة الإنساق النظرية من حيث تصوراتها فيما يتعلق بجوانب محددة للبناء الاجتماعى ســواء كانت ذات طابع استقرارى أو دينامي. ومن أهم المؤلفات في هذا الصـــدد مؤلـــف لومى Charles P. Loomis & Zona K. Loomi (الـــنظرية الاجتماعية الحديثة ١٩٦١) ودراسة انتونى جدنز (الرأسمالية ونشأة النظرية الاجتماعية ١٩٧٧).

٣- وتهتم الاستراتيجية الثالثة من استراتيجيات المراجعة بتجميع التعميمات الصـــادقة أمبيريقـــيا والســـليمة منطقيا التى وفرها التراث النظرى لعلم الاجـــتماع، وربمـــا لعلوم إجتماعية اخرى كالأنثروبولوجيا وعلم النفس، بهدف تأسيس نظرية شاملة عن النسق الإجتماعي، ومن أبرز المحاولات فـــي هذا الصدد ما أنجزه عالم الاجتماع الأمريكي تالكوت بارسونز فيما يتعلق بنظريته العامة التى طورها في سلسلة مؤلفاته.

٤- أما الاستراتيجية الرابعة والاخيرة من استراتيجيات المراجعة فتتمثل في المحـــاولات الـــتى تهـــدف إلي إعادة صياغة تعميمات مختلف المواقف الـــنظرية فيما يتعلق بمفاهيم محددة لها متغيراتها الواقعية. ويمكن اعتبار دراســـة عالم الاجتماع أيزنشدات للحصول علي درجة الدكتوراة (معنى مصـــطلح اجـــتماعى فى علم الاجتماع) ومؤلف ريتشارد. ج. برنشتين (إعادة تأسيس النظرية الاجتماعية والسياسية ١٩٧٩) من أهم الدراسات في هذا الصدد.

أمـــا المـــرحلة الـــرابعة فيمكن أن نسميها بالمرحلة الرافضة، حيث قدمت الاتجاهات النقدية الحديثة في علم الاجتماع موقفا راديكاليا ترفض في إطـــاره كل منجزات الأنساق النظرية السابقة، أو على الأقل ترى فيها أنساقا نظرية عاجزة عن تقديم فهم لتفاعلات الواقع الإنساني المتجدد.

ويقـع موضـوع الدراسـة فـي إطـار الاستراتيجية الرابعة من اسـتراتيجيات المـراجعة الـتى سادت المرحلة النظرية، حيث يتمثل هدفها الأساسـي فـي تحديد المقولات التى طرحتها مختلف الأنساق النظرية فيما يـتعلق بـالفعل الإجتماعـي كمفهوم أساسي، سواء تلك الخاصة بالجوانب المنهجية أو تلك المتعلقة بالمستويات العينية.

فـي إطار ذلك يتحدد هدف هذه الدراسة في تحديد القضايا الأساسية لـنظرية الفعـل الاجتماعـي- في مستوياتها المنهجية والعينية – كما تراها مختلف الأنساق النظرية موضع التحليل. ثم تحديد طبيعة التباين بين مختلف الأنساق النظرية فيما يتعلق بذلك.

واستنادا إلي ذلك نستطيع أن نتبين أهداف الدراسة علي النحو التالي:

١- تحديد طبيعة المقولات الأساسية المتعلقة بإدراك الفعل الاجتماعي أو تلك التـي تهتم بعناصره الأساسية في حالة تفاعلها الواقعي، وذلك من وجهة نظر الأنساق النظرية موضع التحليل.

٢- تحديـد التغـيرات التى قد تطرأ علي الطبيعة الأساسية للفعل كما يراها النسـق النظري، مع تحديد العوامل المسئولة عن هذه التغيرات سواء من داخل النسق النظرى أو من خارجه.

٣- تحديـد العوامل التى أدت إلي تباين مختلف الأنساق النظرية التي تعيش مـرحلة تاريخية وفكرية واحدة فيما يتعلق بتصورها للمقولات الأساسية لـنظرية الفعـل الاجـتماعى، وعما إذا كانت هذه العوامل ذات طبيعة ابستمولوجية أو ذات طبيعة انطولوجية.

٤- إجـراء مـراجعة نقدية لمختلف تصورات الفعل التى طورتها النظرية السوسيولوجية بهدف تحديد مواضع الاتفاق والتباين بين مختلف المواقف النظرية، سواء فيما يتعلق بمقولات الإدراك المنهجى أو مقولات التفاعل العيني، هذا بالإضافة إلي تحديد التطرفات التى قد تنتاب بعض المواقف النظرية، والعوامل المسئولة عن ذلك، بهدف الوصول إلي صيغة تعكس

موقــف مخــتلف المواقف النظرية فيما يتعلق بقضايا نظرية عن الفعل الاجتماعي.

ولإنجاز هذه الدراسة حددت الدراسة منهجيتها وفقا للابعاد الأساسية التالية:

أولاً: أخــتار الباحث ثلاث مراحل تاريخية مرت بها النظرية السوسيولوجية انتقي من بين كل منها الأنساق النظرية موضع التحليل بحيث تكون ممثلة للاتجاهات الأساسية التى سادت المرحلة، ويمكن تحديد هذه المراحل فيما يلي:

١- **المــرحلة الأولــي:** وهى مرحلة النشأة وتغطى هذه المرحلة الفترة من القــرن الســادس عشر وحتى القرن الثامن عشر حيث بدأت هذه الفترة التاريخــية بظهور نظريات العقد الاجتماعي وانتهت بظهور الاتجاهات النظرية العامة.

وفــي هذا الإطار تناول المؤلف الاتجاهات النظرية العامة (المثالية، الوضــعية، النفعــية) باعتــبارها تمــثل ارهاصــات البداية لنشأة النظرية السوســيولوجية، هــذا بالإضافة إلي كونها قد طرحت تصورات متباينة من حيث العناصر الأساسية للفعل الاجتماعي.

٢- **المرحلة الثانية:** وهى المرحلة الكلاسيكية حيث تركز البحث خلال هذه المــرحلة في طبيعة الفعل الاجتماعى ثم طبيعة المتغيرات ذات الفاعلية والأهمــية في بناء الفعل. ولقد تناول المؤلف ثلاث أنساق نظرية كنماذج ممــثلة لهذه المرحلة، وهي النظرية الماركسية، ثم نظرية أميل دوركيم، والنسق النظرى لماكس فيبر.

٣- **وتعتبر المرحلة المعاصرة هي المرحلة الثالثة:** حيث عرض المؤلف في أطارها للموقف النظرى فيما يتعلق بالفعل الاجتماعى. حيث محاولة تقديم صــياغة مقنــنة لــنظرية فــي الفعــل الاجتماعى، مستندة إلي التراث الكلاســيكي، كتلك التى قدمها تالكوت بارسونز من خلال النسق البنائي

الوظيفـــي من ناحية، بالإضافة إلي وجهة نظر الاتجاهات النقدية الحديثة في هذا الصدد كتصور محدث.

ثانيا: أنجز المؤلف تحليله للأنساق النظرية موضع الأهتمام بالنظر إلي إطار تحليلى يحتوى على ثلاثة أبعاد رئيسية:

١- الــبعد المعــرفى، وهــو البعد الاول، حيث يتركز حول طبيعة السياق الاجتماعى والفكرى لنشأة النسق النظرى وذلك لمحاولة استكشاف طبيعة العلاقــة بيــن التفاعلات الكائنة بالسياق الاجتماعى، وبين قضايا نظرية الفعــل الاجــتماعى الــتى جــردت فــي إطاره. ثم علاقة هذه القضايا بالانجازات الفكرية التى أهلت لتأسيسها.

٢- الــبعد الثانــي، وهــو البعد المنهجى. حيث حاول المؤلف خلاله تحديد القضـــايا المنهجية المتعلقة بإدراك الفعل الاجتماعي كما يتبعها كل نسق نظرى.

٣- أمـــا الـــبعد الثالث، فهو البعد العيني substantive حيث حاول المؤلف خلالـــه تحديد القضايا العينية المتعلقة بعناصر الفعل الاجتماعي الواقعي، أو تلك الخاصة بالتفاعل بين هذه العناصر والعلاقات بينها.

ولإنجـــاز ذلـــك قسم المؤلف دراسته إلي ثلاثة أبواب تتضمن سبعة فصـــول وقـــد حـــاول في الباب الأول والمعنون (نظرية الفعل الاجتماعي والبحث عن البداية) تحديد البداية التاريخية والتحليلية لنشأة نظرية عن الفعل الاجتماعي.

وفي الباب الثاني المعنون (نظرية الفعل الاجتماعي: ملامح المرحلة الكلاســيكية) حـــاول المؤلـــف تحليل الأنساق النظرية التى سادت المرحلة الكلاسيكية، حيث تناول النظرية الماركسية والنزعة السوسيولوجية لدوركيم والنسق النظري لماكس فيبر كتصورات ممثلة لهذه المرحلة.

وفـــي الـــباب الثالث المعنون (نظرية الفعل الاجتماعي من منظور محـــدث) عـــرض المؤلـــف لوجهة نظر البنائية الوظيفية فيما يتعلق بالفعل

الاجتماعــي وفــي فصل عرض الباحث آخر لوجهة نظر لاتجاهات النقدية الحديثة في هذا الصدد.

ولا شــك أن هذا العمل الذي يسعدنى أن أقدمه اليوم للقارئ العربي سوف يمثل معلما هاما من معالم تطور الكتابة الأكاديمية رفيعة المستوى في علــم الاجــتماع. فقد توج به صاحبه حقبتين قضاهما في الانقطاع المتفاني للبحــث العلمي، ورفض أن يسير مع السائرين، وأن يقتنص الفرص العديدة الــتى لاحــت له، رفض أن يستجيب لاغراءات الدنيا الزائلة وتشبث بالخلق القويــم والرجولة الحقة والاخلاص الكامل للبحث العلمي. كانت هذه الثمرة الــيانعة التــي ستضعه في مكانه الجدير به وسط أسرة الاجتماعيين العرب، كواحــد مــن أبرز منظرى هذا العلم علي مستوى الناطقين بالضاد. وبذلك، وعلي أساس هذا العمل يرقي البحث السوسيولوجي العربي إلي آفاق رفيعة، يحلــق فيها في زهو وأعتزاز واثق الخطا إلي جانب المدارس النظرية التى عرفتها البلاد التى سبقتنا شرقا وغربا.

وإذا كنــت قد تشرفت بمرافقة الدكتور علي ليلة على أمتداد السنوات الاخــيرة مشــرفا علــي بحــثه هذا، فقد حققت لي هذه الزمالة (ولا أقول الأشــراف) سعادة غامرة وفخارا أزهو به علي مر الأيام. وهو فوق كفاءته العلمــية وسعة أطلاعه ونفاذ بصيرته، إنسان كريم الخلق، يجمع عديدا من صــفات العــالم الحــق في التواضع والصبر والهدوء وسعة الصدر والأمل العريض.

لذلــك لا أغالي إذا قلت إن هذه البداية التي نقدمها اليوم للقارئ إنما تبشــر بإنتاج عريض وجهد خلاق مجددا في البحث والتفكير سوف يغنم منه كل قارئ وكل دارس لعلم الاجتماع علي امتداد رقعة الوطن العربي.

والله يوفقنا إلي ما فيها لخير والسداد

محمد الجوهري

الفصل الأول

طبيعة التفكير العلمى ومكوناته

تمهيـــد:

نشأت النظرة الاجتماعية في إطار عملية من المراجعة الشاملة، التى كانت انعكاسا لعدة تغيرات واقعية، أبرزها تحرر الإنسان من القهر الواقعى الذى فرض عليه من قبل تحالف قساوسة الكنيسة مع أباطرة السياسة. بيد ان عملية المراجعة هذه كانت لها قضاياها موضع الأهتمام في كل مرحلة. ففى مـــرحلة التنوير تميز البحث الاجتماعى بمحاولة استكشاف الطبيعة الأساسية للإنســـان، ثـــم اكثر أشكال البناء الاجتماعى ملاءمة لدعم إمكاناته بما يجعل ســـلوكه إيجابـــيا في تشكيل واقعة المحيط، وبما يخلق إمكانية أن يكون ناتج العملية الإجتماعية التي أسسها لصالحه. غير أنه في أعقاب الثورة الفرنسية ظهرت الاتجاهات النظرية العامة (المثالية الوضعية، النفعية، التجريبية) التى تباينـــت أنساقها النظرية من حيث طبيعة إدراكها للواقع ونظرتها إليه، وإن أســـتمر اهـــتمامها الأساسي مركزا حول الإنسان الذى يتحمل عبء العملية الاجتماعـــية، ومن هو الإنسان الذى ينبغي أن يستفيد من نتائجها؟. هل علي الإنســـان أن يواصـــل الثورة التى بدأت حتى يخلق البناء الذي يساعد علي تفجـــير إمكاناتـــه. أو عليه أن يتوقف ليفرض النظام والاستقرار علي الواقع الذي ينبغي أن يكون خاليا من الصراع والتناقض؟

وفـــي قلب هذه المرحلة نشأت بدايات النظرية الاجتماعية، التى كان من المنطقى أن تبحث عن هوية خاصة. هل يكون بناؤها علي غرار الأنساق الفلســـفية التـــي تدرك الواقع من خلال مقومات منطقية مصدرها العقل، أو علـــيها أن تحـــذو حـــذو العلوم الطبيعية فيكون الواقع هو مصدر قضاياها وتجـــريداتها الـــنظرية، برغم أنها إذا فعلت ذلك فإنها قد تقدم علي مخاطرة معاملـــة الإنســـان كالمادة الجامدة، تدركه من خلال سلوكياته الخارجية دون محاولـــة ان تســـبر أعماقـــه للبحث عن المعنى الحقيقى الذي يدفع إلي هذا الســـلوك أو ذاك. أو عليها أن تتبع الاستراتيجية الامبيريقية الفجة التي تجعل

من الباحث كائنا سلبيا في مواجهة معطيات الواقع تحت دعوى "دع الحقائق تتحدث عن نفسها" ويمكننا القول أنه وإن كان لهذه المواقف الخلافية تاريخها البعـــيد فإن استمرارها يشير إلي عدم نضج علم الاجتماع وإلي افتقاد تنظيره القدرة علي تحديد هويته.

غـــير أنه وأن تميزت النظرية الاجتماعية في إطار المناخ الأوربي بأزدهـــار المـــيل نحو الارتباط بالأنساق الفلسفية من ناحية أو محاولة تمثل العلوم الطبيعية في منطق الإدراك والبحث من ناحية أخرى. فإن إنتقال علم الاجـــتماع إلي القارة الأمريكية جعله يسقط في أسر البراجماتية والميل نحو الارتـــباط بالنزعة الامبيريقية. وقد استمرت هذه وضعية علم الأجتماع بعد إنـــتقاله إلي الولايات المتحدة إلي أن أيقظته أزمة الثلاثينيات التى أكدت لديه عدم جدوى البحوث الامبيريقية ذات الادراك الجزئي. ونتيجة لذلك تخلق لدى علم الاجتماع ميل واضح بضرورة تأسيس نظرية شاملة تيسر إدراك الواقع وفهمه وحمايته ونشأت البارسونزية في هذا السياق. واستمر الحال علي هذا الـــنحو إلـــي أن وقعـــت أحـــداث عالمـــية وواقعية كثيرة ابتداء من الحرب الفيتنامية. وحركات الشباب في الستينيات، وبعض جوانب التأزم التى أصابت الواقـــع الرأسمالي من الداخل، والتناقض بين واقع البلدان النامية والمتقدمة. بحيـــث دفـــع ذلـــك كله إلي ظهور الفكر النقدي الذي أتخذ الأنساق النظرية القائمة هدفا مباشرا لهجومه.

وفـــي هـــذه المـــرحلة التاريخية قدمت حلول كثيرة لمواقف خلافية متعددة. ورغم ذلك مازالت هناك بعض المواقف التي استمر الخلاف بشأنها. مـــن ذلـــك الخـــلاف حول المفاهيم الأساسية، ثم الخلاف حول الاهتمامات الرئيسي التى ينبغي أن تكون موضع تركيز العلم. بالإضافة إلي عدم إدراك الـــدور الحقيقـــي الذي يمكن للنظرية أن تؤديه في إطار بناء العلم من حيث ترشـــيد البحث الامبيريقي أو تجريد المعطيات القابلة للتراكم، ما هو المدخل إلي بناء النظرية، ثم ما هي المعايير التى تحكم أداءها في مختلف المجالات.

وإذا كـــان علم الاجتماع قد تأسس في أعقاب الثورة الفرنسية ضمن مجموعة العلوم التي تأسست في أعقاب إنتهاء الفلسفة الميتافيزيقية. فإن ذلك قد أدى إلي طرح أنساقا معرفية جديدة تختلف من حيث مكوناتها عن الأنساق الفلســفية الســابقة عليها. ويكشف التشريح الداخلي لنسق التفكير العلمي عن وجود أربعة مكونات أساسية. المكون الأول هو المعرفة العلمية سواء اتخذت الطـــابع المنـــتظم فـــي شكل نماذج أو نظريات أو هي تقترب من ذلك. أما المكون الثاني فهو المنهج العلمي كمدخل موضوعى لإدراك الحقيقة الواقعية بمـــا يتضمنه من أدوات بحث لتلمس هذه الحقيقة. ثم تصورا محددا لطبيعة الحقـــيقة الواقعـــية التـــي تشكل مجال الأهتمام المحدد لأي من النظم العقلية إضافة إلي إستعراضنا للأيديولوجيا بإعتبارها عنصراً له تأثيره علي طبيعة المعـــرفة العملـــية، وفـــيما يلي سوف نتعرض لطبيعة وملامح كل من هذه المكونات الأربعة.

أولاً: المعرفة العلمية، طبيعتها وخصائصها

تشـــتق المعـــرفة العلمية طبيعتها من العلم كنسق إدراكى. والعلم هو المعرفة المنظمة بظاهرات الكون التي تم التوصل إليها وصياغتها باستخدام أســـلوب أو منهج معين هو المنهج العملي، وهي ذات طبيعة تراكمية تمكن الإنســـان من التعامل بكفاءة مع البيئة الطبيعية[١]. ويتميز العلم، أو المعرفة العلمية بالتحديد ووضوح الأهداف والابتعاد عن مناقشة المسائل الفلسفية التي لـــيس لهـــا أهمـــية امبيريقية[٢]. وسواء تشكلت المعرفة العلمية في إطارات نظرية أو تخلقت عن ذلك فإنها تتميز بالملامح الأساسية التالية:

(أ) تتمـــيز المعرفة العلمية بأنها ذات طابع نسبي، فالعلم لا يعرف الصدق أو الحقيقة المطلقة[٣]. ذلك لأن القضايا التي يتم تجريدها عن واقع محدد قد لا تصلح لواقع آخر متباين بالنظر إلي بعدى الزمان أو المكان، ويستتبع ذلـــك أنهـــا ذات ارتـــباط مباشر بالواقع لأنه أساس هدفها. وبذلك تشكل المعـــرفة العلمـــية نسقا مفتوحا من المعاني علي عكس الأنساق المنطقية

المغلقة التي تستمد صدقها من ذاتها، ومن ثم فالمعرفة العلمية هي وحدها القادرة علي استيعاب متغيرات الواقع المتجددة والمتنوعة.

(ب) تتمـــيز المعـــرفة العلمية بكونها ذات طابع موضوعى، ويعنى ذلك أنها تتمـــيز بالدقـــة والتحديد المعتمد علي القياس، وعدم التأثر بالتحيز الذاتي للباحـــث، ولو أن هناك مداخل سوسيولوجية حديثة تؤكد علي موضوعية المعـــرفة العلمـــية مـــن خـــلال الاتصال الذاتي للباحث بالحقيقة موضع الاهـــتمام لإدراك معانيها. وهى بلا شك تختلف عن المعرفة الفلسفية من حيث كون الاخيرة بطبيعتها إدراك ذاتي أساسا.

(ج) من خواص المعرفة العلمية انها ذات طابع تراكمي، إذ يعتبر العلم أكثر الأنســـاق الفكـــرية أتاحة للتراكم، حيث تبتكر المفاهيم الجديدة لكي تحل محل المفاهيم القديمة التى عجزت عن متابعة متغيرات الواقع المتنوعة، يؤكـــد ذلك ما يذهب إليه هوايتهيد بتأكيده أن العلم الذي يتردد في نسيان رواده يفقد نفســـه[٤]. وفي ذلك يختلف العلم عن الفلسفة التي تضم بناءات فكـــرية لا يـــنفى أي مـــنها الآخر وإنما هي تتواجد في نوع من التتابع التاريخـــي غـــير المتفاعـــل[٥]. فقد حلت المثالية محل الفلسفة المسيحية، وظهرت الوجودية والماركسية، ومع ذلك لم تلغ أي منها الآخر، ومازال لكل منها روادها وأتباعها. ويختلف العلم في ذلك عن نسق التفكير الديني حيث يشكل الأخير مجموعة من القواعد المعيارية التي تأتي إلي الإنسان من خارجه.

(د) إلـــي جانب ذلك تتميز المعرفة العلمية بالطابع الحتمي أيضا، بمعني أن ادراكهـــا للواقعة يتم من خلال التركيز علي العلاقات السببية لمكوناتها. ويعـــنى ذلك عمليا القول بأن سبب الظاهرة يكمن في مجموعة الظواهر السابقة عليها، أو الأسباب التي أدت إلي وقوعها، وتختلف الحتمية العلمية عن الحتمية الميتافيزيقية، في أن الأولي تبحث عن مسببات الظاهرة في الطبـــيعة- أيـــا كانـــت نوعيتها – بينما تبحث الحتمية الميتافيزيقية عن مســـببات الظاهرة فيما وراء الطبيعة[٦]. وقد يختلف علماء الاجتماع فيما

بيـــنهم حول طبيعة هذه الحتمية، هل هي حتمية جغرافية، أو بيلوجية أو اقتصادية أو حتمية اجتماعية، كما تذهب المدرسة الاجتماعية بريادة اميل دوركيم(٧).

(ه) بالإضـــافة إلي ذلك تتميز المعرفة العلمية بانها معرفة من الخارج، فهي تـــدرك الظاهـــرة مـــن خلال مؤشراتها الخارجية المرئية. وقد نقل علم الأجـــتماع هـــذه الخاصية عن العلوم الطبيعية. مثال ذلك دراسة دوركيم للإنـــتحار عـــن طريق تحليل الإحصاءات كمؤشرات خارجية للظاهرة، وتعـــنى الخارجـــية كخاصـــية للمعرفة العلمية إدراك الظاهرة من خلال مؤشـــراتها الخارجـــية. غير أنه برغم ذلك ظهرت مناهج حديثة في علم الاجـــتماع تحـــاول أن تؤكد أن فهم الواقعة الاجتماعية ينبغي أن يتم من الداخـــل، فهي في ذلك تختلف عن مادة العلوم الطبيعية، كالتفهم والمنهج الاثنوميثودولوجي، ولو أنها تفتقد التقنين من حيث إمكانية استخدامها في اطار علم الاجتماع حتى الآن.

ثانياً: المنهج كمكون في نسق التفكير العلمي

يعتـــبر المـــنهج هـــو الوحـــدة الثانية من نسق التفكير العلمي، ومن الواضـــح أن علم الاجتماع استعار منهجيته من العلوم الطبيعية التي شهدت تقدمات منهجية واضحة في الفترة التي عاصرت نشأة علم الاجتماع. وبرغم ذلـــك نجـــد أن علمـــاء الاجـــتماع قد أنفقوا الوقت الكثير في مناقشة المنهج واســـتخدامه فـــي دراسة الظاهرة الاجتماعية. وكما لاحظ هنري بوانكاريه Poincare مـــنذ نصـــف قرن مضى، أن علماء الاجتماع أصبحوا كهنة في مســـائل المـــنهج، ومـــن ثم فقد أعاقهم ذلك عن بناء النظرية في مستوياتها العينية. ويؤكد روبرت ميرتون أن التركيز علي المسائل المنهجية وتطويرها يعكس متعاب علم لم ينضج بعد(٨). وكما يذهب علماء الاجتماع فإن التركيز علـــي المـــنهج وتطويـــره شكل عائقا أمام تقدم النظرية في علم الأجتماع، وتسعفنا في هذا الصدد عبارة بوانكاريه حينما كان بصدد فحص مناهج علم

الاجـــتماع إذ أكـــد (أنه العلم الذي يضم أكبر عدد من المناهج وأقل عدد من النتائج)[٩].

ويكشـــف الـــنظر إلـــي المنهج في علم الاجتماع عن تضمنه لثلاثة مستويات أساسية:

(أ) أمـــا المستوى الاول فهو المنهج بمعنى منهجية Methodology ويقصد به الدراسة الأكثر تجريدا للأسس المنطقية لنوع معين من المعرفة او أحد نظمها، وهذا الاستخدام يعالج المنهج من وجهة نظر فلسفة العلم.

وبذلـــك فإن المنهج بمعني Methodology يحدد المبادئ الرئيسية لأي كـــيان نظري، ثم أسلوب سير هذا الكيان في عملية البحث العلمي وهو بذلك يؤكد علي النقاط التالية:

(١) افتراض ان الكيان النظري له مبادئه وقضاياه الرئيسية التي توجب علي أي بحث علمي مستندا إلي هذا الكيان أن يشتق فروضه الرئيسية منه، ثم بعـــد ذلك يستخدم المقولات الرئيسية للكيان النظري في عملياته الوصف والتحليل والتفسير والتنبؤ.

(٢) أن هذا الكيان يهتم بالجانب التفسيري، الذي يمثل الهدف المحوري للعلم، بـــل هـــو الأســـاس المنطقي لوجود البحث العلمي ذاته، فبالتفسير تختبر الأفكـــار التـــي بـــدأ بها الباحث، وتضاف أفكار جديدة بحيث تؤدي هذه الإضـــافة وذلـــك الاختـــبار إلي تأكيد النموذج التصوري أو مراجعتـــه وتعديله أو رفضه تمامـــا[١٠].

(ب) أمـــا المســـتوى الثانـــي للمـــنهج فيتمـــثل فـــي المـــنهج بمعنـــي Methodologyical approach أي المدخل المنهجي، وهو مستوى أقل من المستوى السابق. فإذا كان المستوى السابق يتعلق بالمبادئ الأساسية للاطـــارات النظرية في علم الاجتماع فإن هذا المستوى عادة ما يستوحى هـــذه المـــبادئ فـــي اقـــترابه من الحقيقة الواقعية... وإذا كانت المداخل

المنهجية تمثل اقترابات عامة من الحقيقة فإن كل منها يتضمن عادة عديدا من أدوات البحث ووسائله. ويشيع الغموض فيما يتعلق بهذه المداخل في إطـار النسـق الفكـري لعلم الاجتماع وينعكس ذلك في تحديد الكيانات الأساسية لهذه المداخل. فبينما نجد من يحددها بخمسة كالمنهج التاريخي، والمـنهج الوصـفي أو المنهج التجريبي، ومنهج دراسة الحالة، المنهج التتبعـي، أو المسـح الاجتماعي(11)، نجد من يحددها أيضا بأنها المنهج التاريخي، والمنهج المقارن والمنهج الوظيفي، والمنهج الصوري والمنهج العلمي(12). غير أن تحليل البناء المنهجي لعلم الاجتماع يكشف عن وجود ثلاثـة مداخل منهجية أساسية هي المدخل او المنهج التاريخي وهو الذي حل محل أسلوب الدراسة التطورية في المرحلة التي سادت المرحلة غير المنظمة في نظرية علم الاجتماع والذي يعتبر المنهج الجدلي أحد نماذجه، ويعتـبر تحليل مضمون الوثائق، وتحليل آثار السلف، والإحصاء وسائل لجمع البيانات التي يحتاجها هذا المنهج ويعتبر المنهج المقارن هو المدخل الثانـي، الذي نشأ بشكل فعال علي يد كل من ماكس فيبر واميل دوركيم كوريـث شرعي للاتجاهات التطورية والانتشارية معا، وهو قد يستخدم النماذج المثالية كما عند ماكس فيبر أو النموذج المتوسط كما عند دوركيم بالإضـافة إلـي إمكانـية استخدامه بالنظر إلي أشكال أو عناصر بنائية عديـدة. ويعتبر المدخل أو المنهج التجريبي هو المدخل الثالث في إطار علـم الاجتماع وقد تمت استعارته بشكل تام تقريبا من العلوم الطبيعية، ويلجـأ هـذا المدخـل إلي وسائل منهجية كثيرة في جمع معطياته منها الملاحظة، والمقابلة، واستخدام الاحصاء كأداة، ووسائل القياس الأخرى.

(ج) وتعتـبر أدوات أو طرق البحث Research Methods هى المستوى المنهجى الثالث، وهي عديدة في إطار علم الاجتماع. ويكشف البحث في

هــذه الأدوات أن بعضـــها تمت استعارته من العلوم الطبيعية كالملاحظة بينما البعض الآخر اكثر ارتباطا بالعلوم الأنسانية والاجتماعية جاءتها من الأنساق الفكرية السابقة عليها كتحليل المضمون مثلا.

وفـــي إطـــار دراســـة البناء المنهجي لنسق التفكير العلمي تتبدى لنا ملاحظتان أساسيتان:

١- أنـــه إذا نظـــرنا إلـــي البناء المنهجى للعلم الاجتماعى وتكونه من ثلاث مســـتويات رئيســـية فإنـــنا نجد أنه كلما اتجهنا إلي اعلي كان المستوى المـــنهجى أكـــثر خصوصية لأنه أكثر ارتباطا بالتوجيهات الأساسية أو القضايا الأساسية للعلم أو لبناءاته النظرية، بينما نجد أنه كلما هبطنا إلي أســـفل حيث مستوى أدوات البحث سوف نجد أنه أكثر عمومية ومشاعية بين عديد من العلوم، أو هي تشكل قاسما مشتركا بين كل ما ينتمي للبحث العلمي(١٣).

٢- أن التغـــير فـــي أي من مستويات البناء المنهجي لعلم الاجتماع لا يعني حـــدوث تغـــيرات مماثلـــة فـــي مستويات المنهجية الأدنى فتغير بعض الفرضـــيات العامـــة في النظرية الماركسية أو البنائية الوظيفية لا يعنى انتشـــار هـــذه التغيرات وترددها في المستوي المنهجى الادنى من خلال تغيرات تحدث في إطار المنهج التاريخي أو التجريبي أو المنهج المقارن، أو أن ذلـــك يـــؤدي إلـــي تغيرات منعكسة في ادوات البحث أو أسلوب تأسيســـها ويعنـــي ذلك افتقاد البناء المنهجي للعلم لأي نوع من الأحكام الســـبرنطيقي باعتـــبار أن قدرا كبيرا من هذه المنهجية تشارك فيه نظم عقلية عديدة.

ثالثاً: طبيعة الواقعة أو الحقيقة الاجتماعية

تعتبر الواقعة الاجتماعية أيا كان نطاقها أحد المكونات الرئيسية لنسق التفكـير العلمي، ومن وجهة نظر الفكر الاجتماعي تتميز الحقيقة الاجتماعية بعدة ملامح رئيسية نذكرها بإيجاز:

(أ) ففـيما يتعلق بتخلق الحقيقة الاجتماعية، حيث تناقش هذه القضية طبيعة العلاقـة بيـن الإنسـان الفرد كحقيقة جزئية وبين المجتمع كحقيقة كلية شاملة. هل البشر هم الذين يشكلوا نقطة البدء – بتجمعهم– لنشأة الحقيقة الاجتماعـية، ومن ثم فهم الذين يخلقونها ولو فعلوا ذلك علي غير رغبة مـنهم. فـي مواجهـة ذلـك هناك من يؤكد أن الفرد ليس سوى تكوين بيولوجـي، والانسان بشخصيته وبالمعني الذي نراه ونتعامل معه إنما و خلـق اجتماعي، وأن البعد الاجتماعي إلي جانب البعد الذاتي موجود في داخـل الإنسان منذ الولادة، ومن ثم فحالة الاجتماع لها أسبقيتها وسموها أيضا(١٤).

ويرتـبط بذلك هل الحقيقة الاجتماعية كالحقيقة الطبيعية منفصلة عن الفـاعل وأفكـاره، أم أن ذلـك افتراض خاطئ فيما يتعلق بقطاع كبير من الحقائق الاجتماعية. وإذا تأكدت الصلة بين الحقيقة الاجتماعية والفاعل الذي خلقها او الذي خلقته، هل يمكن ان تمسك الحقيقة الاجتماعية عن الوجود إذا أمسك بعض البشر عن الاعتقاد في وجودها، ذلك لأن البشر يعجزون– إن لم يكونوا ذهانيين Psychotic– عن الإمساك بوجود الحقيقة الاجتماعية طالما أنهـا موجـودة، غـير أن جزءا من الحقيقة الاجتماعية يتمثل في مجموعة الأفكـار التـي للبشـر في إطارها(١٥). وقد نشأت فيما يتعلق بهذه الخاصية مواقف خلافية داخل النظرية العامة لعلم الاجتماع، في إطار مناقشة المداخل

الفــردية والاجتماعية للحقيقة الاجتماعية وهنا يبرز التطرف فيما يتعلق بهذه الخاصية تباين مواقف دوركيم، وفيبر والسلوكيين.

(ب) وتعتبر علاقة الكل بالجزء فيما يتعلق بالحقيقة الاجتماعية من الخواص الاساسـية الممـيزة لها، في إطار ذلك نجد موقفين متباينين. إذ يذهب فريق إلي أن الظاهرة الاجتماعية تشتق خصائصها من خلال الظواهر الأشـمل التـي تشكل جزءا منها، وفيما يتعلق بالكيانات الاجتماعية – المجـتمعات، التنظـيمات، الأسـر – فإننا نجد أنها عبارة عن بناءات تتشـكل مـن العلاقات بين العناصر، غير أن كثيرا من خصائص هذه العناصر لا يمكن فهمها منعزلة عن المشاركة في الكل. فأنساق السياسة تـتكون من القادة، والأتباع والأحزاب والمشرعين وما إلي ذلك، غير أنه لا يمكن أن توجد أي من هذه العناصر بخصائصها خارج الأنساق السياسية[١٦]. في مواجهة ذلك نجد موقفا أخر يؤكد أن الكليات تكتسب خصائصـها مـن العناصـر المشـكلة لهـا. فإذا نظرنا إلي الكليات الاجتماعية فسوف نجد أنها تتكون من مجموعة الأدوار والمكانات التي تشـغل وتـنجز بواسـطة البشر الأفراد، أو مجموعاتهم. ومن ثم فمن الصـعب إدراك الكلـيات الاجتماعـية بـدون الأفـراد في مكاناتهم الاجتماعـية، في مقابل أن المراكز الاجتماعية للبشر لا يمكن إدراكها بدون الكليات الاجتماعية. وذلك يرجع إلي أن الظواهر الاجتماعية إلي حد كبير نتاج عقلي. ولا يعني ذلك أن خصائص المجتمع تنبثق بصورة مباشـرة عـن السلوكيات والأفكار الفردية. وإنما هي تنتج من خلال الـتفاعل الاجتماعـي حيـث تـتخلق خصائص جديدة غير خصائص المشاركين في التفاعل[١٧].

ولقد تباينت مواقف النظرية الاجتماعية فيما يتعلق بخصائص كل من الكل والجزء، وما هو مصدر اكتساب كل منهما لخصائصه، حيث ظل ذلك كما هو موقفا خلافيا لم تحسمه النظرية العامة لعلم الاجتماع.

(ج) ويعتبر ترابط ظاهرات الكون من الخواص الأساسية المميزة للظواهر الطبيعية ومن بينها الظواهر الاجتماعية، ذلك لأن الكون في ثباته واستمراره لا يخضع للعشواء أو الصدفة، وإنما يخضع لقوانين دقيقة ينتظم بالنظر إليها، وهي مقولة تمت استعارتها عن العلوم الطبيعة ابان نشأة علم الاجتماع، وتشكل هذه الخاصية موضع اتفاق بين مختلف النماذج النظرية لعلم الاجتماع، تستوى في ذلك الوضعية أو المادية الجدلية. حيث يدعم كلاهما الترابط الذي يدعمه وجود علاقات سببية بين أطرافه. بيد أن الخلاف الرئيسي فيما يتعلق بهذه الخاصية يدور حول اتجاه السببية أساسا.

(د) أما الخاصية الرابعة التي تتميز بها الظاهرة الاجتماعية فتتمثل في تميزها بالاستمرارية والثبات. فجميع ظاهرات الكون في تغير دائم، غير أن هذا التغير لا يحدث علي شكل قفزات مفاجئة أو أحداث عرضية عشوائية ولكنه يتبع نظاما ثابتا نسبيا[١٨]. وبرغم ذلك فقد نشأ خلاف حول هذه الخاصية أيضا يتعلق بالحالة الأساسية للوجود الاجتماعي هل هي الثبات أو التغير أو التوازن المتحرك علي ما يذهب بارسونز مثلا.

(هـ) أما الخاصية الأخيرة فتتمثل في أن الحقيقة الاجتماعية ذات وجهين متقابلين عادة، حيث نجد الصراع في مواجهة التكامل كوجهين متضادين. وهناك يأس من مجرد جمع هذه الجوانب في إطار نظري واحد، وهو ما يعني ترك اختيار الحقيقة وفقا لهوى الباحث[١٩].

وهـــي ملاحظة قد نختلف معها لأن الخبرة بالحقيقة لا يمكن أن تكون منقسمة علي ذاتها وإنما هي تبدو كذلك بالنظر إلي تصور نظري معين، وهو بطبيعـــته إدراك جزئـــي لها مثلما يذهب فيبر، الذي يؤكد أننا قد نتباين بشأن حقـــيقة ما لإختلاف الزاوية التي ننظر من خلالها إليها. وهي بالطبع مسألة يحكمها الإطار النظرى للباحث.

ويمكـــن أن تعـــزى هـــذه المواقف الخلافية بشأن خصائص الظاهرة الاجتماعية إلي ثلاثة عوامل أساسية:

١- طبـــيعة التصورات التي تضمنتها مختلف النماذج النظرية بشأن الحقيقة الاجتماعية، وهي تصورات ورثتها عن الأطر الفلسفية السابقة.

٢- إختلاف منطق تناول الحقيقة الواقعية بالنظر إلي سائر المواقف النظرية. فبينما إستعانت الوضعية بمنطق العلوم الطبيعية في التناول ومن ثم كانت أميل إلي تناول العناصر والتركيز علي الرؤية الجزئية للحقيقة، إرتبطت المثالية بالتناول الكلي والتحليلي للحقيقة موضع الدراسة.

٣- تخلـــف البحـــث الاجتماعـــي بأســـه الموضوعية، أعاق الأتفاق حول الخصـــائص الأساســـية للحقـــيقة الاجتماعـــية فلـــم تجر البحوث حول الموضـــوعات الخلافـــية، بحيـــث ييسر البحث حولها حسم هذه القضايا لصالح إكتمال نسق التفكير العلمي وتطوره.

رابعا: تعريف النظرية ومكونات بناؤها

إذا كـــان علـــم الاجتماع قد ظهر إلي الوجود كتعبير عن امتداد أو توســـيع لاستخدام المنهج العلمي حتى امتد إلي العالم الإحتماعى للإنسان، فإنه قد قامت خلال السنوات الأولي من القرن التاسع عشر محاولات نظرية لـــتطوير علم للمجتمع وهي المحاولات التي أدت في البداية إلي ظهور علم الاجـــتماع كمـــنظور جديد ومحدد. ثم سعيه للافتراق عن الفلسفة، والتاريخ، والاقتصاد السياسي، والعلوم الاجتماعية الأخري.ومنذ ذلك التاريخ بدأ سعي علـــم الاجـــتماع نحو تحقيق هوية متميزة ومحددة. ولما كانت النظرية أحد الأبعـــاد التي تميز العلم عن غيره من العلوم، فقد قاده ذلك إلي تطوير عديد

من النظريات حول طبيعة المجتمع والأنساق الاجتماعية، ثم تطوير منهجيته خاصة وملائمة لدراستها.

وإذا كانـــت الـــولادة الفكرية لعلم الاجتماع قد عاصرت وجود نظم عقلـــية أخري، كالطبيعة والكيمياء والبيولوجيا، والرياضيات، فإن هذه النظم كانـــت بمثابة الأمثلة الناضجة التي علي العلم الاجتماعي أن يحتذيها إذا أراد امتلاك نفس قدرتها وكفاءتها في تناولها لمعطياتها. ونظر علم الاجتماع حوله فوجـــد أن هذه العلوم تمتلك نظريات ومنهجية خاصة تستعين بها في تناولها لهذه المعطيات. وذلك لأن العلم ليست مهمته الوصف الدقيق لمعطيات الواقع فقـــط، أو دعوة الحقائق تتحدث عن نفسها كما تذهب النزعة الإمبريقية التي أعتـــبرت أن هذا ذلك هو المسلك الملائم لعلم الاجتماع[٢٠] ولكن العلم يصف ويحلل ويفسر هذا الواقع تمهيدا للتنبؤ بطبيعة تفاعله الذي لم يتولد بعد. ومن ثـــم فقـــد استوجب ذلك الاهتمام بمعايير الغلوم السابقة في التاريخ علي علم الاجتماع، تلك المعايير التي تستعين بها في إنجازها لوظائفها العلمية. وهي كما أشرنا النظرية، والمنهج، أو وسائل تناول المعطيات.

ولأن الأدوات المنهجـــية والمـــنهج، عنصـــرين أساسين في المنهج العلمـــي للعلوم الطبيعية، لأنهما علي ما يؤكد ميرتون لا يختلفان كثيرا بين نطاقـــات العلـــوم المخـــتلفة[٢١]، ومن ثم فقد نقلهما علم الاجتماع عنها، أما بالنسبة للنظريات فقد اتضحت ضرورة أن يكرس علم الاجتماع جهده لبنائها. وظهرت معادلة دائمة الوقوع، أنه كلما نضج علم الاجتماع كلما برزت أهمية النظريات وضرورتها. ذلك لأن المصطلحات المفهومات النظرية تلعب دورا أساســـيا في توجيه البحث والملاحظة وترشيد الوصف نفسه سواء كان هذا الدور ظاهرا أو ضمنيا، إلا أن جميع العلماء يتفقون الآن علي وجوب بروز دور النظرية في توجيه البحث وقيادته[٢٢].

وبهـــذا الإدراك لدور النظرية ومكانتها شهدت الفترة التالية لقيام علم الاجـــتماع موجه من التهافت علي بناء النظرية. ومن ثم فقد قامت كثير من النظريات المتصارعة.

إلا أن هذه النظريات كانت أشبه بوجهات النظر أو الفلسفات الخاصة لسببين. السبب الأول أنها تستند في تصورها للواقع علي أي من الجوانب أو العوامل المكونة لهذا الواقع. حيث بناء علي هذا الجانب أو العامل واستناد مرجعيا له كانــت تصف وتحلل وتفسر هذا الواقع. أما العوامل التي تبنتها هذه الكيانات الــنظرية في التفسير تمثلت في العوامل الاقتصادية، والجغرافية، والسلالية، والبيولوجيا. مع الاعتراف الكامل بزيف هذه النظريات وعدم استحقاقها لأية صــفة علمــية، إلا أنــه مــن وجهــة نظر نسق التفكير العلمي، أدت هذه الــنظريات- بتركــيزها علــي عوامــل متبايــنة- دورا هاما لنظرية علم الاجتمــاع[٢٣].

أمــا الســبب الثاني الذي يلغي عملية هذه النظريات فيمكن في عدم اقــتدارها علي تطوير منهجية خاصة وموضوعية قادرة علي تناول الواقع، بل ظلت معظمها عند مستوي التفكير المكتبي الذي قد ينتقي من المعطيات- خاصــة تلك التي وفرتها الأنثروبولوجيا- ما تدعم به قضية صاغها المؤلف بصورة مسبقة.

فــإذا مــيزت هذه العوامل والنظريات المؤكدة عليها إحدى مراحل تطــور نظرية علم الاجتماع، وهي ما تعرف بمرحلة النظريات الخاصة أو العاملــية. تلــك التي كانت أكثر ارتباطا بشخصية المؤلف وأكثر تعبيرا عن وجهــة نظره الخاصة. فإننا نجد أن هذه المرحلة قد انتقلت إلي مرحلة تالية حيث تأسست كيانات نظرية لا تتبع وجهة النظر الخاصة للمؤلف ولكن يتبع المؤلــف والعــالم وجهــة نظرها، أعني توفرت إلي حد ما بعض الكيانات الــنظرية التي أسهم التراكم الفكري في تطويرها، وتكاملها وتماسكها، كقيام الماركســية أو البنائية الوظيفية، أو السلوكية، أو نظريات الفعل، حيث بدأت هذه النظريات كأنساق نظرية تخضع لنوع من التنقيح والتطوير الذاتي، يقوم به رواد هذه النظرية إما من خلال عيوب عدم الاتساق المنطقي بين مقولاتها أو قضــاياها، وإما بدعمها وتطويرها عن طريق الدراسات الميدانية. ولعل أفضــل تســمية لهذه المرحلة أن تسمى بفترة المدارس الاجتماعية. حيث أن

احتوت كل مدرسة علي عدد من النظريات الخاصة المتجانسة والتي تستوحي المقولات أو القضايا العامة للمدرسة في صياغتها لنظرياتها الخاصة.

وبينما كانت المرحلة السابقة تشهد نظريات متصارعة فيما بينها، شهدت هذه المرحلة صراعا ليس بنفس المستوى السابق(٢٤). ذلك لأن الكيانات النظرية بدأت في فرض وصياغة تصورها للمجتمع ولطبيعة تفاعله، ليس عن طريق نقد النظريات الأخرى، بل عن طريق التطوير الذاتي لمقولتها لكي تصل إلي درجة من التكامل الذي تتضح ملامحه في تحقق نوع من الاتساق المنطقي لبنائها، وأيضا في توفر قدرة أكثر كفاءة علي تناول معطيات الواقع بالدراسة، يشهد علي ذلك الفارق بين وظيفية إميل دوركيم ووظيفية ميرتون علي سبيل المثال. أو الماركسية الأرثوذكسية وفكر اليسار الجديد كتصور نظري منقح عن هذه النماذج النظرية الأم.

بيد أننا إذا قلنا أن النظرية وليدة التراث العلمي المتراكم والمنقح لذاته، وكذا المعطيات الإمبيريقية التي تشكل نطاق عمل ومصدر نمو هذا التراث العلمي فإنه يصبح قولا يجانبه الصواب. ذلك لأن هذين العنصرين ليسا كافيان لصياغة نظرية علمية. وذلك لأن النظرية تعد الوحدة المعرفية الوحيدة في نسق التفكير العلمي التي لا تخضع صياغتها للتنظيم فقط. فهي لا تستقي من الملاحظات والتعميمات عن طريق استخدام وسائل الاستقراء المضبوطة والدقيقة. ذلك لأن بناء النظرية يعد إنجازا خلاقا، ومن هنا فإن الأمر لا يدعو إلي الدهشة حين نجد نفرا قليلا من المشتغلين في ميدان علمي معين هم القادرون علي القيام بمثل هذا العمل. فهناك دائما قفز فوق الأدلة، وإحساس خفي متصل بالجهد الخلاق. ذلك لأن صياغة النظرية شئ يشبه إنجاز العمل الفني، ومن هنا كانت منهجية النظرية وصياغة النظرية مختلفة بالنسبة لمنهجية الفروض وصياغة الفروض، ويبدو أن نوعي الفلاسفة والعلماء اللذين يعملان علي هذين المستويين مختلفان كيفيا(٢٥).

غير أننا إذا أكدنا أن النظرية تعد ابتكارا لفئة محدودة من العلماء توافرت لديها القدرة علي ذلك، فإن هذا لا يتضمن أن تعتبر النظرية كلوحة

فنـــية مثلا أو كوجهة نظر فلسفية، تعكس وجهة النظر مبتكرها فحسب. ذلك لأن الـــنظرية العلمـــية ليست خلقا مطلقا وكاملا للعالم القائل بها، وإنما هي امـــتداد سلبي(أعني نقدي) أو إيجابي للتراث الفكري النوعي المرتبطة به. وإن العـــالم الذي يبدو ظاهريا أنه ابتكرها لم يفعل إلي أن عبر عنها ووضع يده علي خطوط امتدادها من داخل النظام العقلي ذاته، ذلك يتضح إذا جاز لنا أن نتصـــور أن العلم كنسق تطرح عليه دائما متغيرات جديدة إما من داخل الـــتراث الفكـــري عـــن طـــريق بروز ثغرات في الاتساق المنطقي، أو أن مصـــدرها الواقع الذي طرح ما هو جديد من المتغيرات. هنا يجد العلم نفسه أمام ضرورة الامتداد من أجل استيعاب هذه المتغيرات الجديدة. هذا الامتداد دائمـــا ما يكون ابتكار النظرية الجديدة الذي يقوم به باحث بعينه توفرت له قـــدرة وحساســـية لمتطلـــبات النسق الفكري الذي يشكل تخصصه في هذه المرحلة، ثم قدرة وكفاءة علي البحث عما يشبع هذه المتطلبات أو الاحتياجات النسقية.

مـــن هـــنا كان علي العلم ضمانا لنموه المطرد والمتسق أن يطرح عديدا من المعايير التي تقاس علي أساسها كفاءة النظرية، بحيث إذا توافرت معايـــير الكفـــاءة هذه تأكدت النظرية كنظرية علمية. ومن هذه المعايير أو الشروط أنه

أولا : ينبغي أن تكون المفهومات التي تعبر عن القضايا محددة بدقة.**وثانيا:** يجب أن تتسق القضايا الواحدة مع الأخرى. **وثالثا:** يجب أن توضع القضايا فـــي شكل يجعل من الممكن الاشتقاق من التعميمات القائمة اشتقاقا استنباطيا. **ورابعـــا:** أن تكون هذه القضايا خصبة ومثمرة، تفتح الطريق لملاحظات أبعد مدى، وتعميمات تنمي مجال المعرفة بدرجة أكثر(٢٦).

ويتضح من النظرة السريعة إلي المعايير الأربعة لكفاءة النظرية أنها تضـــم مصـــطلحات مثل النظرية والمفهومات، والقضايا، وإتساق القضايا، والشكل الميسر للاشتقاق، والاستنباط. فكيف إذن تنتظم هذه المصطلحات أو

الوحـدات في بناء النظرية؟ وهو الأمر الذي يدفعنا إلي تعريف النظرية ثم تحديد العناصر الأساسية المشكلة لبنائها.

بداية يساعدنا تحديد أو تعريف النظرية علي إبراز الشكل الذي تنتظم فـيه هـذه العناصـر. إذا أنه وفقا لما يؤكد ميرتون، فإن كلمة النظرية من الكلمات المهددة بأن تفقد معناها، بل وأن تصبح خلوا من أي معني. ذلك لأن المعانـي الكثيرة التي تنطبق عليها الكلمة، تعوق أكثر مما تيسر الفهم. ومن وجهـة نظـره يؤكد أن مصطلح النظرية الاجتماعية يشير إلي التصورات المـترابطة منطقيا، تلك التصورات المحدودة والمتواضعة في نطاقها وليست تلك الشاملة والمحتوية لكل شئ[٢٧] ثم يؤكد في موضع آخر أنه حينما تترابط المفاهيم فقط، في شكل إطار أو مشروع فكري فإن النظرية تبدأ في الظهور. وحينئذ، فإن المفاهيم تشكل التعريفات (التشخيصات أو التحديدات) لما يجب أن يلاحـظ، أنهـا تشكل المتغيرات التي يجب أن نبحث بينها عن العلاقات الأمبيريقـية المتبادلة، وحينما تترابط أو تتداخل القضايا منطقيا فإن النظرية تتشكل[٢٨]. بينما نجد أن بارسونز يؤكد أن تعريف النظرية يتصل بكيان من المفاهـيم العامـة المـترابطة منطقيا، إلا أنه لا ينفي أن تكون هناك أيضا مجموعة من القضايا العامة ذات العلاقات المنطقية التي تؤلف كيان النظرية. وأن قضـايا النسـق النظري يجب أن تكون لها مراجعها المتصلة الحقائق التجريبـية أو الإمبيريقـية (٢٩). هذا بالإضافة إلي براثوايت يعرف النسق الـنظري بأنه مجموعة من القضايا التي تتخذ ترتيبا خاصا في النسق بحيث تكـون مـترابطة منطقـيا ومتميزة بالتدرج المنظم غير المتناقض. وتشير القضـايا العامـة فـي النظرية إلي المقدمات، أما القضايا المستنبطة فتمثل النتائج[٣٠].

مـن جملـة الـتعريفات يتضح أن تحليلها يحدد وحداتها الأساسية باعتـباره. أولاً: المفاهـيم، هـذه المفاهيم لابد وأن تكون مترابطة. وهناك القضـايا، هذه القضايا لابد وأن تكون مترابطة ومتسقة منطقيا ومتدرجة هذا الجانب أن الكيان النظري بكامله، يجب أن تكون اسناداته الإمبيريقية.

فما هي المفاهيم إذن؟ المفهوم كما يعرفه ماكليلاند يعد تمثيل مختصر لمجموعـــة من الحقائق[٣١] بمعني أن مفاهيم علم الاجتماع هي رموز لفظية مميزة تعطي الأفكار معممة تم تجريدها عن الملاحظة العلمية للمجتمع [٣٢].

إذن فالوظـــيفة الأساســـية للمفهوم أنه يجرد الواقع تحت رمز معين. واعني بالتجريد أنه يفصل الظاهرة عن الارتباطات الأخرى التي لا يحتاجها العلـــم. إذ يقـــوم الباحـــث بـــتجريد الحقـــائق المناسبـــة من المركب الكلي للظاهـــــرة[٣٣]. ويســـاعد المفهوم علي تحديد المعطيات التي تتدرج تحته، بحيـــث يســـاعد ذلـــك علي التقليل من إمكانية تضمين أية بيانات إمبيريقية زائفـــة[٣٤]، هذا إلي جانب إلغاء إمكانية التناقض بين المعطيات التي يغطيها هـــذا المفهوم إذا كان صارم التحديد. بالإضافة إلي أنه يحدد الاستجابة له إذا طـــرح فـــي موقـــف معيـــن. وهناك أنواع من المفاهيم، المفاهيم الوصفية، والإجرائية، تلك المفاهيم التي تعبر عن متغيرات كما أشار ميرتون إلي ذلك.

فـــإذا طـــور الباحـــث مفاهيم معينة، أو طورت نظرية معينة بعض المفاهيم.

فلابـــد من إجراء مراجعة مستمرة حتي لا يتخلف المفهوم عن رمزه أو إشارته إلي حقائق محددة بالواقع. إذ قد تتغير معاني المفاهيم نتيجة للتراكم العلمي. فمفهوم التطور الذي استخدمه الرعيل الأول من علماء الأنثربولوجيا وعلـــم الاجتماع ليس نفسه الذي يستخدمه العلماء المحدثون من أمثال جايلد ووايـــت. ويشير ايرانست ناجل في مؤلفه بناء العلم إلي أن مفهوم الالكترون قد تغير معناه في الفيزياء مع تطور هذا العلم، بل إن مفهوم الجريمة كانت له نـــتائج خطيرة بعد أن عدله ادوين ساذرلاند بحيث أسهم ذلك في خلق نظرية جرائم أصحاب الياقات البيضاء[٣٥].

أمـــا القضـــية proposition فـــتعرف علي أنها تعبير عن الواقع الاجتماعـــي يتضـــمن مفهوميـــن أو أكثر ويمكن إخضاعها للبحث العلمي. والقضـــايا تعـــبر عـــن العلاقات بين المفاهيم، وقد يشار إلي القضية أحيانا باعتـــبارها فرضاًhypothesis أي تعميما مبدئيا يخضع للاختبار الإمبيريقي

للتعرف علي صدقه أو خطئه ولذا فقد ينظر إلي النظرية علي أنها مجموعة مـن الفروض[٣٦]. وتنقسم القضايا إلي نوعين في أي نسق نظري، القضايا العامة أو القضايا من النظام الأعلي، أما القضايا الأقل عمومية فهي تلك التي نسـميها بالقضايا من النظام الأدني أو القضايا الإمبيريقية، ومن المهم القول أن القضايا ذات النظام الأدنى تشتق من القضايا العليا تحت شروط معينة[٣٧]. وهـذا يتضـح من تعريف براثوايت للنظرية حيث يقسم قضاياها إلي قضايا عامـة ويعتـبرها مقدمـات، أما القضايا الناتجة عنها أو المشتقة منها فهي مسـتنبطات، تأكيدا علي العلاقات المنطقية القائمة بين قضايا النسق النظري بحيـث لا يمكـن أن يكون هناك تناقض فيما بينها. بل أننا يمكن أن نؤسس تصـنيفا مـترادفا للتصـنيف السابق إلي حد ما علي أساس أن هناك قضايا بسيطة وقضايا مركبة.

وبالنسبة للاتساق المنطقي فهو يعبر كما أشرنا عن الصياغة البنائية لقضايا النظرية أو مقولاتها في بناء يمتلك قدرا من الاتساق الذي لا يولد أي تناقض بين مكوناته، بحيث يجب أن ينص الاتساق المنطقي علي تسلسل هذه القضايا بحيث تصبح كل مستوى أدنى مشتق من المستوى الأعلي وتسلم أي تعديـلات فـي قضـايا المستوى الأدنى، بناء علي البحث الإمبيريقي، إلي تعديـلات لها تأثيرها علي قضايا المستويات الأعلى. وحتى تصبح النظرية العلمية أكثر نضجا فإنها تميل لأن تشكل نسقا مغلقا ومتسقا. ويساعد امتلاك النظرية لبناء منطقي متسق علي اشتقاق الفروض الذي من غير المحتمل أن تناقض مع بعضها البعض. بالإضافة إلي ذلك تساعد النظرية المتكاملة علي تأكـيد إثـباتها بدرجة تفوق الحالة التي يكون منها الإطار النظري متضمنا بعض الفروض المتميزة والمنفصلة بعضها عن البعض. بيد أن التأكيد علي الاتساق المنطقي يفتح الباب أحيانا لنوع من الجدل اللفظي والتنظير العقيم ما دامت الافتراضات النظرية بعيدة عن أي إسناد إمبيريقي، أو أنها قد تتضمن مسـتويات عليا من التجريد الذي يقدمه البحث الامبيريقي[٣٨]. إلا إننا إذا كنا قـد أنجزنا توضيحا لأهم المصطلحات المكونة لبناء النظرية فإننا نرى من

الضـــروري صـــياغة تميـــيز بين النظرية وبعض الكيانات النظرية التي قد تخـــتلط بهـــا أو تـــتداخل معها، مثل النموذج model والنموذج التوجيهي paradigm والإطار التصوري conceptual scheme. ويعرف النموذج فـــيعرف ببساطة علي أنه جهاز تصوري يحدد أنه إذا ما ترابطت مجموعة من العوامل المحددة بطريقة محددة، فإن ناتجا معينا يصبح متوقعا. وبمعنى مـــا فالـــنموذج لـــيس أكثر من تفسير، ولكنه يختلف عن التفسيرات المتعلقة بموضوعات خاصة في كونه منظما أو مصاغا في مصطلحات أكثر وضوحا وصورية وعمومية(٣٩). ويصاغ النموذج في حالة غياب النظرية أو في حالة عدم توافرها فيما يتعلق بنطاق إمبيريقي معين، ومن هنا تعد النماذج استراحة وســـط الطريق الموصل إلي بناء النظرية. إذا أنها عبارة عن تشخيصات أو تحديدات مؤقتة لماهية النسق.ثم إنها قد تفترض علاقات معينة بين المتغيرات مـــن أجـــل إجراء البحث الإمبيريقي(٤٠). وتعد النماذج مساعدات أساسية في عملـــية التحلـــيل. أمـــا البرهنة علي زيفها فليس بذات أهمية. ويتمثل الأمر الأكثر أهمية في أنها تمدنا بالتقديرات المبدئية التي يمكن أن نختبرها، ومنها يمكن أن نصوغ النظريات ذات القيمة التفسيرية الأقوى. إن حقيقة أن نموذج نلـــس بور Neils Bohr عن الذرة(النيترون والإلكترونات في المدارات) لم يوافـــق عليها علماء علم الطبيعة الحديثة، فإن ذلك لم يقلل من حقيقة أنه كان خطوة هامة شكلت دفعة هائلة نحو توليد نظرية وبحث أكثر(٤١).

وفـــيما يتعلق بالإطار التصوري والنموذج التوجيهي، فهما يحتويان علي نفس الوحدات إلا انهما يختلفان من حيث الغرض. فبينما نجد أن الإطار التصوري هو عبارة عن نسق المفاهيم التي يختارها الباحث إراديا لكي يحدد نطـــاق تفســـيره وحصره للمتغيرات، لكونه يتكون من مجموعة من المفاهيم التـــي تتسق وتترابط فيما بينها ترابطا واتساقا منطقيا. فإننا نجده يختلف عن الـــنموذج التوجيهي من حيث كونه يحتوي علي مفاهيم أكثر من المتغيرات التـــي يحتوي عليها النموذج بل إن الإطار التصوري قد يكون ذاته النظرية لكـــن علـــي المستوى التصوري، والمثال الواضح الذي يترادف فيه الإطار

التصـــوري مـــع الـــنظرية ومـــع الإطـــار المرجعي يتضح من الاستخدام البارســـونزى له. أمـــا النموذج التوجيهي فهو إطار يتشكل من المفاهيم، قد يكـــون هـــو ذاته الإطار التصوري لكن الفارق بينهما يكمن في أن النموذج التوجيهـــي يصـــوغه الباحث لكي يستخدمه في التناول الإجرائي والتحليلي لمعطـــيات الواقع، وهو يعمل ما يؤكد ميرتون علي منع الاستطراد اللغوي، وأيضا عدم الاحتواء علي مفاهيم ضمنية. بالإضافة إلي أنه يشكل أساسا تبني عليه التفسيرات التالية ومن ثم فهو يساعد علي تراكم المعرفة، ثم أنه يقترب بالتحلـــيل الكيفي من دقة التحليل الكمي(٤٢). هذا مع التأكيد علي أن النموذج التوجيهي، والنموذج التحليلي، والإطار التصوري هي كلها كيانات نلجأ إليها في حالة غياب النظرية أو نقصها أو عدم استيعابها لكافة متغيرات الواقع. ثم هي أيضا تعتبر الأساليب الثلاثة الموصلة إلي بناء النظرية.

وفـــيما يتعلق بالأنماط الرئيسية للنظريات، فإننا نحددها بثلاثة أنماط رئيسية:

١- وتعد النظريات التحليلية هي النمط الأول، وهي تماثل النظريات المنطقية أو الرياضية، تلك التي لا تحدد شيئا يتعلق بالعالم الواقعي، ولكنها تتشكل من مجموعة من القضايا البديهية التي تكتسب صدقها من خلال التعريف، التي يمكن اشتقاق قضايا أخرى منها.

٢- ويســـمى النمط الثاني للنظريات المعيارية وهي التي تحدد مجموعة من الحـــالات المثالـــية التـــي يرغـــب فيها الإنسان، ويتعلق هذا النوع من النظريات بالمسائل الخلافية والجمالية.

٣- أمـــا النمط الثالث فهو النظريات العلمية وفي شكلها المثالي نجدها عبارة عـــن صياغة شاملة وإمبيريقية، تؤسس علاقة بين نموذجين أو أكثر من الوقائع. وفي أكثر مستوياتها بساطة نجدها تتخذ الشكل الذي يتمثل في أنه حيـــنما تقـــع (أ) فـــإن (ب) لابد أن تقع، وعادة ما تميز النظرية العلمية بالشمول(٤٣).

ومــن الواضـــح أن الـــنظرية السوسيولوجية يمكن أن تتضمن الأنماط الثلاثة.فهي ينبغي أن تكون ذات بناء منطقي.إلي جانب أن العلاقة ذاتها عادة مــا تكون علاقة بين مفهومين أو أكثر يشيران إلي متغيرات واقعية محددة، وهــو مــا يجعلهــا تســتوعب الـــنمط الثالث. وبطبيعة الحال فإن النظرية السوسيولوجية علي إختلاف نماذجها تكون لها عادة متضمناتها الأيديولوجية أو مثلها وتفضيلاتها المعيارية التي تكمن وراء قضاياها العلمية.

خامساً: النظرية الاجتماعية ووظائفها الأساسية

سوف نحاول في هذه الفقرة التعرض لوظائف النظرية السوسيولوجية ذات الطابع العلمي، أي تلك الوظائف المتعلقة بنسق التفكير العلمي. وسوف نطــرح جانبا الآن الوظائف الأيديولوجية للنظريات تلك التي لها في مواجهة النســق الاجتماعــي، فــي إطار ذلك سوف نذكر بإيجاز الوظائف الرئيسية التالية:

١- فعلى مستوى الصياغة النظرية العامة نجد أن النظرية تحاول أن تشكل الإطـــار التصورى المشترك بين مجموع الباحثين فيما يتعلق بمجالات، وموضـــوعات محـــددة، بمـــا ييســـر خلـــق اتصال بين مختلف النتائج والتفســيرات المتعلقة بالحقائق الامبيريقية المتباينة(٤٤). هذا بالإضافة إلي أنها تنظم الكم الهائل من المعرفة الامبيريقية في شكل أطر نظرية، ومن ثم توجه الاهتمام نحو الفجوات القائمة في بناء معرفتنا(٤٥).

٢- وفيما يتعلق بتوجيه البحث الإمبيريقي، نجد أن النظرية تعلب دورا هاما فـــي هـــذا الصدد، حيث يمكن اشتقاق الفروض الموجهة للبحث من بناء الـــنظرية كامـــتداد مـــنطقى لتعميماتها. ويعتبر كم الفروض التي يمكن اشـــتقاقها مـــن بناء النظرية مقياسا لقيمتها وكفاءتها، بحيث أنه إذا أمكن التثبت من الفرض من خلال التجريب بالنظر إلي كم كير من الوقائع في عـــدد مـــن المواقف، فإنه يصعد إلي كونه قانوناً أو توجيها نظرياً عاماً، يمكن أن تستنبط منه فروض جديدة(٤٦).

٣- ويعتبر وصف الواقع من الوظائف الهامة للنظرية في إطار دراسة النسق الواقعي، ولإنجاز ذلك تلجأ النظرية عادة إلي استخدام وسائلها المتمثلة في المفاهيم والفروض. ويؤكد بارسونز أنه ينبغي أن يكون الوصف كفء Adequate وحاسما في دلالته determinate وتتحقق كفاءة الوصف إذا أمكنه توفير إجابة حتمية وممكنة التحقيق لكل التساؤلات الهامة والمتضمنة علميا. وتتحدد دلالة وأهمية أي من القضايا أو التساؤلات بواسطة البناء المنطقي للاطار التصوري العام الذي يستخدم صراحة أو ضمنا. ويتم استخدام النظرية في عملية الوصف بالنظر إلي مستويين، المستوى الأول، حيث يتم الوصف بالنظر إلي مقولات الاطار التصوري الذي تشكل عناصره اطارا ملائما لوصف النسق الواقعي. أما المستوى الثاني للوصف فيمكن تسميته بالمستوى البنائي، حيث يتم الوصف بالنظر إلي بناء الأنساق. إذ يعتبر البناء هو الجانب الاستاتيكي لأسلوب المعالجة الوصفية للانساق. ومن وجهة النظر البنائية يتكون النسق من وحدات الانساق الفرعية التي توجد مستقلة أساسا ثم تساندتها أو علاقاتها البنائية المتداخلة(٤٧). ويعتبر التحليل هو الوظيفة الثانية للنظرية العلمية في هذا الصدد، وبكل الاعتبارات فإن التقدم العلمي يتمثل في الامتداد التدريجي لنطاق التحليل الدينامي. إذ يصبح من المستحيل تحديد النشاط العقلاني والواقعي بدون القدرة علي تأسيس العلاقة الدينامية بين الشرط الضروري الوحيد وبين النتيجة التالية تحت أفتراض تساوى الظروف الأخرى عند مستوى معين. ومن هنا فإن هدف النظرية العلمية هو أن توسع من نطاق التحليل الدينامي للأنساق المعقدة ككل بقدر الإمكان. ويمثل تحقق هذا الهدف إحدى الصعوبات النظرية الهائلة بالنسبة للعلم(٤٨)، ويتميز التحليل الدينامى لمتغيرات الواقع بالنظر إلي البناء النظري المستخدم بخاصيتين أساسيتين:

(أ) أنه من خواص التحليل الدينامي هو تناول مجموعة من الظواهر المتساندة تزامنيا بالمعني الرياضي لذلك.

(ب) أن مـــن الشروط الأساسية للتحليل الدينامي الناجح، الأرجاع أو الاسناد المـــنظم والمستمر لكل قضية إلي حالة النسق ككل. وهو ما يحدث أساسا حينما تستخدم المقولات البنائية في تناول القضايا الدينامية(٤٩).

ويشـــكل التفسير الوظيفة الثالثة فيما يتعلق بدراسة الواقع الاجتماعي الـــتى تـــؤدي النظرية في إطارها دورا هاما. واستخدام النظرية في عملية التفســـير يكون بالاستشهاد علي وجود علاقة معينة بين متغيرين، وتطوراتها المســـتقبلة، ثم طبيعتها الأساسية بالنظر إلي قضايا النسق النظري، إذا أمتلك هذا النسق القضايا التي تيسر ذلك، إما في شكل قضايا من المستوى الأعلي أو مـــا نسميها بالتوجيهات النظرية العامة، أو في شكل قوانين تجريبية تؤكد العلاقة التي تصورها بالنظر إلي وقائع امبيريقية متعددة.

غـــير أنه في أحيان كثيرة- حينما لا يتيسر البناء النظري الملائم- يكون علي البحث أن يمارس العملية البحثية بالنظر إلي نموذج محدد غالبا ما يتولـــي الباحث صياغته واستخدامه. ويؤكد ايرنست ناجل أن النماذج تؤدي وظـــائف هامة للنظرية في إطار البحث العلمي(٥٠)، وقد تؤدي النظرية دور النموذج بالنسبة لنظرية أخرى كما يري ابراهام كابلان الذي يذهب إلي القول بـــأن النظرية بدون النموذج تمارس عملية التفسير بشكل مباشر، أما النماذج فتفسر عن طريق المماثلة(٥١).

ولا تقتصر وظائف النظرية علي التفسير كاحدى وظائفها الرئيسية، وإنمـــا تســـاعد معـــرفة الباحـــث بالنظرية علي التنبؤ بالمستقبل فيما يتعلق بموضـــوع مـــا. ويعتبر التنبؤ مسألة نظرية أساسا، وخاصة أنه ليست هناك معطـــيات امبيريقـــية تتعلق بالمستقبل الذي لا يكون قد تحقق بعد. غير أن الاســـتعانة بالدراسات النظرية تيسر استكشاف الأفكار والافتراضات المتعلقة بالعملـــيات التـــي يفترض صدقها في تفسير المستقبل. في هذا الإطار يؤكد الـــبعض أن باســـتطاعة العلماء الاجتماعيين انجاز ذلك عن طريق استخدام الـــنماذج والـــنظريات لافتراض النتائج المتوقعة، فإذا ما تحقق التنبؤ فإنه لا يعتبر ممارسة لا قيمة لها تصدر عن برج عاجي، لأنه ينبغي أن نكون علي

وعـــي تـــام بـــأن التنـــبؤ الاجتماعـــي له جـــذوره في النظريـــة والتفسير السوسيولوجي [٥٢].

سادسا: النظرية والبحث الاجتماعي، طبيعة العلاقة المتبادلة

بقي أن نوضح في هذا المجال قضية هامة، وهي التي تعبر عنة ذلك الحوار بين النظرية والواقع، أعني محاولة تصوير نتيجة التفاعل بين الواقع والـــنظرية، ذلـــك التفاعل الذي يكون من نتائجه زيادة قدرة وكفاءة النظرية علـــي تناول واستيعاب متغيرات هذا الواقع. ولكي نوضح ذلك فإننا نؤكد أنه بمجرد أن يصوغ الباحث نظرية أو تنبثق النظرية من داخل التراث الفكري فإنهـــا تصـــبح حتى لحظة ظهورها مصورة للواقع ومجردة لمتغيراته التي تدخـــل فـــي نطاقها. ولذلك فهي حتى هذه المرحلة يسودها نوع من الاتساق وتـــتوفر لها قدرة وكفاءة علي تناول الواقع بالوصف والتحليل والتفسير. إلا أن الواقـــع- خاصـــة الواقع الاجتماعي-ليس ثابتا، ومن ثم نجد أن النظرية يـــبرز قصورها بعد فترة بسبب عوامل أساسها مصدرين. الأول: هو تراكم الفكـــري بســـبب توفر معطيات أكثر لم تكن متيسرة حين بناء النظرية مما يـــؤدي إلي الكشف عن قصور في كفاءة النظرية أو عن تناقض في اتساقها المنطقي، وفي هذه اللحظة تصبح النظرية معيبة. أما المصدر الثاني، فهو أن الواقـــع ذاته قد يطرح من المتغيرات ما هو جديد لم تطور النظرية له مكانا في بنائها. وأمام هذه المتغيرات الجديدة تصبح النظرية قاصرة عن تناول هذا الواقـــع، مـــثل عدم قيام البروليتاريا في الولايات المتحدة بالثورة الاشتراكية نظرا لأن البناء الاجتماعي طرح ميكانيزمات أو متغيرات جديدة حالت دون تحقـــيق هـــذه النـــبوءة. ونتـــيجة للقصور الذي تعانيه النظرية بسبب هذين العاملين، تتحول النظرية إلي نموذج مرة أخري بالنظر إلي متغيرات الواقع. أعني أنها تصبح متناولة لبعض متغيراته فقط. ثم تبدأ عملية صياغة النماذج التـــي تحتوي علي متغيرات حتى تتمكن من التحول إلي نظرية جديدة أكثر تطورا واستيعابا لكافة تفاعلات هذا الواقع، بحيث أنها تظل لفترة قادرة علي تصوير تفاعلات الواقع حتى يأتيها ما هو جديد ليثبت قصورها ويحيلها إلي

مجرد نموذج مرة أخرى. فمثلا حركة اليسار الجديد استبدلت إمكانية أن تقوم جماعـــات الشباب في المجتمع الأمريكي بالثورة بدلا من الطبقة البروليتاريا التي استوعبها المجتمع وأدمجها في بنائه.

يبقى بعد ذلك أن نوضح علاقة النظرية بالبحث الاجتماعى. ذلك لان الـــنظرية تساعد الباحث علي تحديد المتغيرات أو العناصر الهامة في نطاق دراسته. وتتضح اهمية النظرية وفقا لتأكيد تالكوت بارسونز من فشل النزعة الإمبيريقـــية حتى الآن، وعدم قدرتها علي صياغة تراكم معرف بالرغم من كـــثرة الأبحاث التى أنجزتها هذه النزعة، حيث لا يرجع ذلك إلي قصور في أدواتهـــا المنهجـــية وإنما إلي افتقادها للبناء النظري الموجه[٥٣]. أي النظرية التي تساعد في توفير إطار عام متسق وموجه للبحث، كذلك فهي توفر اللغة المشتركة للاتصال بين مختلف الباحثين، كما تساعد علي كشف الثغرات في المعـــرفة، تلـــك التي تحتاج إلي بحوث لاستكمالها، هذا بالإضافة إلي كونها تشكل إطارا منظما تشتق منه قضايا البحث وفروضه.[٥٤]

بـــيد أنه بالرغم من اهمية النظرية بالنسبة للبحث، إلا أن هذا الأخير هـــام بنفس القدر بالنسبة للنظرية. وهو الامر الذي يؤدي إلي التلاحم الدائم بيـــنهما. إلا أن الواقع غالباً ما شهد بغير ذلك. ذلك لأنه غالباً ما كان يحدث إنفصال غير مثمر في عملية البحث، بحيث يعكس هذا الأنفصال ذلك التضاد الـــذي يفترض خطأ وجوده بين النظرية والبحث، إذ نجد أن أصحاب الاتجاه الإمبيريقي في علم الاجتماع يصرون علي أن المشاهدات الحسية تعد مصدرا نهائـــيا ومطلقـــا للمعـــرفة بالظواهـــر الاجتماعية، أما الأفكار المنطقية أو التصـــورية فهـــي نســـخ عقلـــية للأشياء المادية[•]. وفي ذلك إنكار للوظيفة

[•] أكد علي هذا الموقف فلاسفة النزعة الإنجليزية، التى اعتبرت أن دور العقل ما هو إلا مـــنظم للحقـــائق التى ترد إليه من الواقع ولذلك أسندوا له دوراً سلبياً. منهم نذكر ديفيد هيوم والقس بركلي، وقد كانت هذه النزعة أكثر ارتباطاً بالوضعية، وذات اتصال بكافة الأفكار التى تدعو إلي النظام والتوازن والاستقرار.

المنهجية التي تؤديها الأفكار والتصورات العقلية في عملية البحث. بينما نجد علي الطرف الآخر انصار الاتجاه العقلي الذين يتخذون من العقل أساسا نهائياً ومطلقاً للمعرفة، ولهذا فإن الوقائع وهي بعيدة عن الأفكار العقلية تافهة، ولا تكتسب هذه الوقائع المشاهدة في الواقع الاجتماعي دلالتها إلا حينما تكون علي صلة بالأفكار العقلية(٥٥) (•). والحق أن هذا يمثل قصوراً في الإدراك المتكامل عند كل من الاتجاهين لطبيعة وعملية البحث. ذلك لأنهما كعنصرين في نسق الإدراك العلمي يتفاعلان ويتبادلان التأثير، ذلك التبادل الذي غالبا ما يكون علي غرار حلقة التغذية المرجعية. فلم تعد النظريات تلك الأنساق الفلسفية أو النظرية المنفصلة عن الواقع، ولكنها في المرحلة المعاصرة اصبحت أكثر ارتباطاً بالملاحظة، وأنها غالبا ما تنمو وتتطور بنمو المعرفة علي نحو ما أوضحنا. ونستطيع أن نؤكد أن من أهم وظائف النظرية هو تلخيص المعرفة الموجودة لتقديم التفسير المناسب للوقائع أو الظواهر موضوع الملاحظة والتنبؤ بمستقبلها. هذا بالإضافة إلي توفيرها للتوجيه الملائم للبحث بحيث تدفع البحث دائما إلي المسالك او المجالات المثمرة. وتصور "رلي" العلاقة بين النظرية والبحث بقولها إن الباحث الذي يبدأ بنظرية يكمل الدائرة في الجانب او المرحلة التفسيرية للبيانات واضعاً الحقائق الجديدة في نسيج أفكاره، ومن ثم فإن البحث يعيد، من خلال نتائجه، بناء النظرية وتنقيح مكوناتها وإثارة فروض أو قضايا جديدة، هذا بالإضافة إلي فتح المجال لظهور تكوينات نظرية جديدة بدلا من النظريات التى لم تثبت فائدتها(٥٦).

(•) حمل لواء هذا الاتجاه العقلي الفلاسفة المثاليون او الذين لهم أصول مثالية، مثل هجيل. وماركس، وماكس فيبر، والسمة المميزة لهذا الاتجاه أنهم يطلبون من الواقع دائما أن يتطابق والتصور الذي يطوره العقل لهذا الواقع من هنا فهم غالبا ما كانوا يؤكدون علي ما ينبغي أن يكون وليس علي ما هو كائن. ومن ثم فقد شكلت الأساس المعرفي والنظري لقيام نظريات التغير الاجتماعي لعدم رضائها عن التنظيم الكائن بالواقع. بل كان هذا الاتجاه أكثر الاتجاهات العقلية امتلاء بالتصورات الطوباوية.

موجز ما سبق أننا نرى ان النظرية إذا كانت تتكون من بعض القضايا أو المقولات، التي تترابط فيما بينها، ويسودها نوع من الاتساق المنطقي فإن هذا الاتساق المنطقي إذا انغلق علي نفسه، فإنه يتحول إلي وجهة نظر تخلفت عن أن تساير حركة الواقع وتفاعله. ومن هنا، فإن النظرية يجب دائماً أن تكون لها جذورها الحية بأرض الواقع إذا أريد لها أن تحقق كفاءة وقدرة علي ما يؤكد س. رايت ميلز. وأن هذا الانفصال بين النظرية والبحث أصبح شيئا مهجوراً أو غير مقبول. وأن المنظر والباحث قد اجتمعا في شخص واحد، وذلك في حد ذاته فتح علمي جديد.

وفي هذا الصدد نذهب إلي أننا إذا أردنا بحثا علميا جادا، فلابد وأن يوجه هذا البحث نظرية ما. إننا بهذا الإجراء نحقق مطلبا يسعى إليه علم الاجتماع جاهدا، وهو الموضوعية. ذلك لأنه وفقا لما يؤكد تالكوت بارسونز أنه قد كثر الجدل والحوار في علم الاجتماع حول مسائل كالموضوعية، والتحيز القيمي للباحث، وأننا إذا أردنا أن نحسم في هذه المسائل فإن علينا أن نؤكد علي ضرورة أن تقاد أبحاثنا وأستطلاعتنا الإمبيريقية بنظرية ما. إن النظرية بذلك تمثل المنظار الذي يكشف بالضوء عناصر الموقف البارزة التى يجب أن يضع الباحث يديه عليها إلا أننا قد نتساءل كيف تحقق النظرية مسائل جاهد البحث الاجتماعي كي يحقق فيها تقدما، كتحقق الموضوعية وإلغاء التحيز القيمي، مع أن الباحث في التزامه بنظرية معينة إنما هو اختيار لوجهة نظر قد تكون متحيزة منذ البداية.

الحق إن الأمر غير ذلك وذلك لأن النظرية السوسيولوجية سواء كانت بنائية وظيفية. أو مادية تاريخية إنما هي أولا وأخيرا منظورات طورها تراث علم الاجتماع فإذا اختار الباحث منذ البداية في دراسته الحقلية وأكد التزامه الميداني بنظرية معينة. فإن ذلك سوف يمهد الطريق لتقييم دراسة هذا الباحث تقييماً نقدياً تتوفر له كافة عناصر السلامة المنطقية والمعقولية ويصبح بإمكاننا أن نقيمه نقديا علي أساس من المعايير التالية:

١- مـــدى ملاءمة النظرية التي اختار الباحث الالتزام بها سواء في اشتقاقه لفروضـــه أو ســـواء فـــي إنجازه لمسلكه المنهجي لدراسة هذه الفروض وأعنـــي بذلـــك أنه إذا أراد الباحث دراسة مجتمع صحراوي منعزل أو إحدي الواحات الصحراوية أو المجتمعات البدائية، أو المجتمعات المحلية المنعزلة داخل مجتمع عام، واستخدم أو التزم في دراسته بالنظرية المادية التاريخـــية، فإنـــه يكون قد اخفق منذ البداية في اختياره للإطار النظري الملائـــم. ذلـــك لأن هذه المجتمعات لم تتحقق فيها المقولات التصويرية للـــنموذج الماركســـي كالمقولـــة الطبقية مثلاً. هذه المقولات التي كانت تجريدا أساسيا لوقائع إمبيريقية تاريخية أو متزامنة لمجتمعات شاملة تملك تاريخاً ووثائق مكتوبة، وشهد بنائها تباينا وتعقدا وصراعا بنائيا محدداً.

٢- أما المعيار الثاني لتقييم الدراسة التي قام بها هذا الباحث فيتضح من أننا إذا اتفقـــنا علـــي نجـــاح الباحث في اختياره للنظرية التي ستوجه بحثه الميدانـــي فإننا نحاول إجراء تقويم لمدى التزامه بالفروض التى يمكن أن تشتق من المقولات العامة للنظرية، ثم ما هي الإجراءات المنهجية ومدى سلامة إنجاز الباحث لهذه الإجراءات التى تتطلبها دراسة هذه الفروض، وكـــذا الأدوات المنهجية المستخدمة في جمع المعطيات ومدى ملاءمتها للفروض المشتقة ولبناء النظرية ذاته.

٣- أما المعيار الثالث الذي نطرحه فهو تقويم قدرة الباحث الذي قام بالدراسة بـــناء علي التزامه بنظرية محددة – تلك التي اشتق منها فروضه، واتبع رؤيـــتها المنهجـــية – علـــي تفســـير النتائج التي توصلت إليها دراسته لفروضـــه، مـــن حيـــث مـــدى ألتزام هذا الباحث في تفسيره لمعطياته بالمقولات او القضايا الأساسية للنظرية أو النموذج الذي ألتزم به.

بهـــذه المعايير نترك الخيار أمام الباحث لاختيار النظرية التي تلائم بحثه، ثم نبدأ بناء علي هذه المعايير في الحكم النقدي والتقييمي علي اختياره ومـــدى الـــتزامه بهـــذا الاختيار. حيث تؤدى مراعاة هذه المعايير إلي ألغاء التشـــيع الأيديولوجي الذي قد يسود بين الباحثين في علم الاجتماع ويقسمهم

إلي وظيفيين أو ماركسيين كما حدث في فترة تاريخية سابقة، حيث يدعى كل منهم أن نظريته هي الوحيدة الأكثر ملاءمة لدراسة الوجود بكامله. وهو أمر الذي يتنافى مع الفرض العلمي الذي قامت هذه النظريات لتحقيقه، ذلك ايضا سوف يقود نظرية علم الاجتماع إلي مرحلة قادمة، تتكامل- علي أساس من التقنين- فيها قضاياها، ويتخلق بينها نوع من الانساق المنطقي الذي يعد أساسا صلبا تؤسس عليه نظرية سوسيولوجية عامة.

سابعاً: النظرية كوحدة محورية في بناء العلم(*)

مثل كل التكوينات الموجودة في هذا الكون، والذي يحكمها قانون التحول أو التحرك من المتجانس إلي المتباين. فإن العلم – كأحد مكونات هذا الكون- يخضع لذات القانون. يؤكد ذلك حقائق تطوورية عديدة. حيث تتمثل الحقيقة الأولي بالتداخل الذي كان قائماً بين المعرفة العلمية والثقافة العامة، إذ كان ساحر الجماعة أو حكيمها علي معرفة – مثل كل البشر – بعناصر الثقافة العامة إلا أنه كانت لديه بالإضافة إلي ذلك معرفة أخرى يستخدمها لأغراض محددة. بل إننا نجد أن هذه المعرفة العامة في بعض جوانبها ذات طبيعة منطقية إلي حد كبير، حيث ترجع المنطقية إلي كونها قد جردت تدريجيا عن أحداث الواقع التي تتضمن العلاقات السببية التي تميز طبيعة العلاقات بين عناصرها فما يقع في الواقع له أسبابه، التي تشكل مقدمات لحدوثه، وله نتائجه كذلك. وهو ما يعني أن الخبرة بالواقع وإدراك تفاعلات أحداثه كانت وراء الثقافة المنطقية القائمة داخل بناء الثقافة العامة. هذه الثقافة المنطقية تقفز عادة إلي ذهن الإنسان حينما تظهر الأحداث أو الوقائع التي تصدق عليها هذه الثقافة أو تكون قادرة علي فك غروض تفاعلاتها.

بيد أنه بمجرد زيادة التراكم علي الجانب المنطقي من الثقافة العامة ظهر بعض الحكماء الذين يلمون بأطرافها ثم بدأ هؤلاء الحكماء إلي جانب

---

* ألقيت هذه المحاضرة علي طلاب النظرية الاجتماعية بجامعة عين شمس وفي الطبعة القادمة، سوف تتم إعادة كتابتها موثقة.

معرفـتهم بالثقافة العامة – بإعتبارهم أعضاء في جماعة – يعرفون وحدهم هذا الجانب من الثقافة العامة. ثم بدأ هؤلاء يطورون من هذه الثقافة الخاصة، المنطقـية أو الحكيمة، ليس بصورة إرادية ومقصودة، ولكن بصورة تلقائية. فهـذه المعرفة الخاصة تستوعب عادة بواسطة القدرة الكارزمية، أو بصيرة هـؤلاء الحكماء، حتى لتصبح قاعدة لتطوير أفكار جديدة. قد يتحقق ذلك من خـلال الإطـلاع علـي تـراث التاريخ السابق، لاستيعاب الأفكار أو إعادة إنـتاجها، أو مـن خـلال محاولـة إعادة إدراك الواقع المحيط بهم، وإعادة تنظيمه، بما يقدم أفكاراً ووجهات نظر جديدة في التفاعلات المحيطة بهم، بل والأفكـار التي إنتقلت إليهم بحيث شكلت بصيرة أو كارزمية هؤلاء الحكماء آلية لاعادة تأمل الواقع إما للمطالبة بإعادة تنظيمه وفق مُثل أومبادئ محددة، أو لتخيل واقع جديد، فتكامل ويتجاوز كل مشكلات الواقع القائم. وهنا نلاحظ ظهـور اينـية تصورية وفكرية جديدة كتلك التي قدمها أفلاطون علي سبيل المثال. وقد استمر هذا التطور حتى وصل إلي نهايته التي تمثلت في إنفصال الـثقافة العامـة عن الثقافة الخاصة، الحكيمة والمنطقية، والتي اتخذت طابع التفكير الاجتماعي بشأن المجتمع حينا، أو طابع التفكير الفلسفي وإعادة تنظيم الأفكـار الدارجـة فـي الثقافة العامة لإعادة تأملها وفحصها ونقدها لفضح الزائف منها حينا أخر، أو بناء التصورات الخيالية للمجتمع حينا ثالثة.

وتشـير الحقيقة الثانية الخاصة بفاعلية قانون التحول من المتجانس إلي المتباين، في ذلك التحول الذي تمثل في الانتقال من الفكر الموسوعى إلي المعـارف المتخصصـة. وإذا كانت المرحلة السابقة قد أدت في النهاية إلي تمـيز المعرفة المنطقية أو الحكيمة عن المعرفة العامة الشائعة. فإننا في هذه المرحلة الثانية لتحولات الفكر برزت مسألتين، الأولي إن الإنسان الحكيم أو المفكـر لـم يكـن يقتصر علي نطاق معين دون آخر، ولكنه كان يعالج كل القضايا أو المسائل التى يتصدى لها الثقافة العامة، ولكن بمستوى يستند إلي المعـرفة. ومن ثم فقد كان عليه أن يتصدى لقضايا وسائل تقع في مجالات كثـيرة، حيث كان عليه أن يعالج أحيانا قضايا تتصل بنطاق الفلك، وأحيانا

ثانــية تتصل بنطاق الكيمياء أو الأحياء، وأحيانا ثالثة تتصل بنطاق الفلسفة. ومــن ثــم أصبح المفكر الموضوعي مفكراً يسعى إلي الكشف عن المبادئ العامــة المــنظمة لهذا الكون لاستكشاف فاعليتها في إطار مجالات محددة. الأمــر الــذي جعل هذه المعرفة الشاملة أو الموسوعية تضرب في الاتساع ولــيس العمق. ومن ثم فقد أصبح مفكروا هذه المرحلة يعرفون اشياء كثيرة عــن كثير من الموضوعات غير أنهم لم يمتلكوا المعرفة المتعلقة بالجوانب الكثيرة للشئ الواحد. أى أن معرفتهم لم تهتم بمجالات معينة تحاول التعرف علي القوانين والحقائق الأساسية بهذا المجال بهدف الاستفادة من هذه الحقائق في خلق بيئة أكثر ملائمة للحياة الأنسانية. ومن ثم فلم يصبح التفكير الخاص بهذه المرحلة علم يساعد علي تطوير الحياة الإنسانية، بقدر ما أصبح تنويرا للفعل الانساني حتي يستطيع إدراك بيئته المحيطة به.

وقــد تمثلــت المسألة الثانية في التراكم المعرفي الهائل الذي تحقق للإنسان نتيجة لهاذ التفكير الشامل أو الموسوعي، فقد فكر المفكرون في كل شئ وفي كل الموضوعات، بحيث غطى التفكير من هذا النمط كل المجالات الانســانية تقريــبا، فــي الكيمياء، والفلك والأحياء، والرياضيات، والمجتمع والأنســان وغــير ذلــك من المجالات. بحيث أدى هذا التراكم الكيفي، إلي حــدوث ميل نحو تحول نوعى في هذه المعرفة الشاملة أو الموسوعية، حيث بــدأت المعرفة المتعلقة بكل مجال من المجالات تشكل أساساً أو مقدمة لعلم مــن العلــوم، وذلــك يرجع إلي أن الفكر الموسوعي لم يعد قادراً أمام نمو المعرفة علي الاحاطة بكل شئ، ومن ثم برز ميل نحو متابعة تطور الأفكار فــي مجالات معينة دون غيرها، هذا بالإضافة إلي أن نمو المعرفة في كثير من المجالات لم يعد نيتجة لأعمال العقل وحده، ولكن أصبح من الضروري لــتطوير المعرفة أن يقوم جدل بين أفكار أو تأملات العقل وتفاعلات الواقع. ولقــد تطلب حدوث هذا الجدل أن تظهر فئة من المتخصصين القادرين بحكم معرفــتهم العمــيقة بالتخصص ترشيد هذا الجدل حتى يقدم النتائج الموجودة منه.

ونتيجة لذلك ظهرت العلوم المختلفة، حيث برز التخصص في مجالات العلوم الطبيعية أولاً، وحينما استكملت هذه العلوم بنيتها من حيث تحديد المجال الذي تعمل في إطاره والمنهج، ثم استكملت أبنيتها النظرية. بدأ التفكير بشأن المجتمع والأنسان، وهى المجالات التي كانت وما زالت خاضعة للتفكير الموسوعى. خاصة أن العلوم الطبيعية بدأت تحقق نجاحات كثيرة في مختلف مجالاتها الأمر الذي دفع المفكرين والفلاسفة المهتمين بشئون المجتمع إلي المطالبة بوقوع ذات التخصص في مختلف جوانب ومجالات المجتمع، وهكذا بدأت تظهر العلوم الإنسانية والاجتماعية التي تقتصر كل منها علي تناول القضايا أو المسائل الموجودة في مجال معين دون غيره. وأفرزت هذه المرحلة قيام علوم الاقتصاد والسياسة والاجتماع والنفس والتاريخ والجغرافيا، وهو ما يعني استكمال تقسيم المعرفة الموسوعية إلي تخصصات عديدة تغطى مختلف جوانب الطبيعة والمجتمع. وإستكمالا لهذا التقسيم الجديد علي أساس التخصص، ظهرت علوم جديدة يمكن تسميتها بالعلوم البينية وهي العلوم التي تقع علي الحد الفاصل بين علمين كالكيمياء الحيوية، أو علم الاجتماع الاقتصادي أو علم النفس الاجتماعي. حتى لا يترك مجال كانت تدرسه المعرفة الموسوعية دون قيام علم متخصص يهتم بالوقائع والتفاعلات الحادثة بين هذه المجالات.

ثم بدأ يحدث انفصال أخير داخل العلوم المتخصصة ذاتها هذا الإنفصال يرجع بالأساس إلي أن العلم لم يعد معرفة نظرية فقط، فقد برزت الحاجة إلي الاستفادة من حقائق العلم ونتائجه في تطوير الواقع المحيط بالانسان، وهو الهدف الحقيقي لأي علم من العلوم وأساس شرعيته. وإرتباطاً بذلك بدأ يظهر تخصص جديد من داخل كل علم من العلوم مهمته الأساسية، تحويل حقائق العلم إلي وسائل وتكنولوجيا تيسر الحياة الإنسانية وتجعلها سهلة ومن ثم ظهرت فئة جديدة من الفنيين التكنولوجيين الذين تكمن مهمتهم الأساسية في الاستفادة من حقائق العلم أو العلوم المختلفة في تطوير الواقع الإنساني من مختلف جوانبه، وإذا كان هذا التخصص التطبيقي الجديد قد برز

خلال الحربين العالميتين الأولي والثانية، حيث برز فيهم محموم للاستفادة من حقـائق العلم في تطوير أشد الأسلحة فتكا، غير أنه بإنتهاء الحرب العالمية الثانية بدأ تحول في الاستفادة من حقائق العلم في صناعة تكنولوجيا تستهدف الأرتقـاء بنوعية الحياة الإنسانية. بحيث يمكن القول بأن هذه الانقسامات أو الانفصـالات المتـتابعة بلغـت نهاية دائرة، حيث يتحول العلم النظري إلي وسائل عملية تفيد في الارتقاء بالأوضاع الأنسانية عموماً.

ونحـن الأن أمام تحول جديد يحدث الأن ولا نعرف مداه أو منتهاه كذلك. حيث بدأت الدعوات تتكاثر للتخلي عن العقل الآدائي، أي العقل الذي يولـد معرفة تتحول إلي تكنولوجيا يتولي تسخيرها الأنسان. حيث يمكن ان يسخرها الإنسان في قهر إنسان اخر في مجتمع آخر، كما تحاول الآن القوى التـي تمـتلك التكنولوجيا في العالم اليوم قهر الشعوب الأخرى استناداً إلي ترسـانتها التكنولوجية، أو تستخدمها الأنظمة السياسية في قهر البشر داخل مجتمعاتها أو أن هذه التكنولوجيا بدأت تفرض تأكل القدرات الإنسانية ذاتها، سواء كانت هذه القدرات ذات طبيعة عقلية أو آدائية، بحيث يمكن ان تتخلق- إذا اسـتمرت الـتطورات علـي هذا النحو- حياة إنسانية تشغل التكنولوجيا بأنواعها المختلفة مكانة محورية في إطارها، بينما ينسحب البشر إلي هامش الحـياة، بلا إيجابية حقيقية لهم، وهو ما يعني نوع جديد من موت الانسان. وفـي مواجهـة ذلـك بدأت دعوات جديدة تتشكل وتظهر، تبرز من ناحية الخسائر العديدة التي بدأت تفرضها التكنولوجيا علي الحياة الإنسانية، ومن ثم بدأت الدعوة إلي ما يمكن أن يسمى العقل المتآمل، القادر علي إدراك واقعة بـدون الإجراءات المنهجية التقليدية المتبعة، العقل المتأمل هو العقل القادر علي التفكير خارج نطاق التخصص، فهو عقل يتجه إلي التفكير في الوضع الانسـاني الذي ينبغي أن يكون وما هو السبيل إلي تجاوز ما هو كائن نحو تأسيس عالم ينبغي أن يكون.

بـيد أن دعـوات العقل او العلم المتأمل مازالت في بدايتها. فمازال العلـم الأدائي هو المسيطر حتى الآن علي المؤسسات الأكاديمية في نظامنا

العالمـــي المعاصر، وما زال هذا العلم مستمراً في سعيه من خلال تفاعلات العولمـــة إلـــي خلـــق عالم واحد متجانس ومتماسك، بعد أن ساهم في خلق المجتمع الواحد والمتماسك. ذلك يدفعنا إلي التعرف علي المكونات الأساسية لبـــناء العلم، بخاصة علم الأجتماع، ثم ما هي مكانة النظرية في بناء العلم، وما هي الظروف التي تعايشها وتحيط بها وتؤثر عليها، وما هي الحالة التي عليها النظرية الاجتماعية الآن بالنظر إلي بناء العلم الذي تنتمي إليه.

تكشـــف مواجهـــة هذه التساؤلات المتعلقة بالعلم عن ضرورة التأكيد علـــي بناء العلم بإعتباره يتشكل من أربعة مكونات أساسية. ويتمثل المكون الأول في تحديد مجال العلم، حيث نجد أن لكل علم مجاله الذي تقع في نطاقه الأحداث والوقائع التي يقوم بدراستها. فمثلا نجد الماضي هو نطاق أو مجال علـــم الـــتاريخ الـــذي يـــدرس تتابع الاحداث علي خريطة الزمن، وما هي العلاقـــات الســـببية التـــي تربط هذه الأحداث ببعضها البعض. وكذلك علم الاقتصـــاد الـــذي يتولى دراسة الظواهر الاقتصادية المختلفة التي تظهر في المجـــتمع، إضافة إلي دراسة عمليات الإنتاج والتوزيع والاستهلاك المرتبطة بهـــا. وكذلـــك علـــم السياسة الذي يدرس النظام السياسي ايا كانت طبيعته بإعتـــباره مجالـــه الأساسي. ويحدث نفس الأمر في العلوم الطبيعية في علم الكيمياء والأحياء والفلك وغير ذلك من العلوم. وهو ما يعني ان امتلاك العلم لمجال محدد يعد الشرط الرئيسي لقيام علم من العلوم، كما يعد شرطا أساسيا للاعـــتراف به. وفي مجال كل علم من العلوم يمكن ان نميز موضوعات أو ظواهـــر المجـــال الرئيســـي، وظواهر وموضوعات المجال الثانوى، وهي الظواهـــر التي تقع علي حافة مجال العلم ودائماً ما تكون موضوعاً لأهتمام علمين من العلوم. وعلي سبيل المثال فإننا نجد في مجال علم الاقتصاد مثلا موضـــوعات كفائض القيمة، والتضخم، والمنفعة الحدية، وكلها موضوعات اقتصـــادية بحتة، بينما موضوع كثقافة الاستهلاك يقع علي هامش مجال علم الاقتصـــاد وعلم الاجتماع، لأن كلاهما يمكن ان يطور وجهة نظر بشأن هذا

الموضـــوع، وأن تكـــامل وجهتي النظر أو أخذهما في الاعتبار يعد شرطا رئيسياً لتوفير فهم متكامل لثقافة الاستهلاك.

علـــي هـــذا النحو يتأكد أن علم الاجتماع له مجاله الخاص به، وهو المجـــال الذي بذل كثير من الفلاسفة والمفكرين جهودهم المخلصة في تحديد حـــدوده. فقد حدده أوجست كونت بأنه العلم الذي يدرس المجتمع في حالات إســـتقراره وتغـــيره. ونتيجة لذلك فقد حدد أوجست كونت المباحث الأساسية لهذا العلم بإعتبارها تتمثل في "الاستاتيكا الاجتماعية" أو الاستقرار الاجتماعي إضـــافة إلـــي "الديناميـــكا الاجتماعية" أو التطور الاجتماعى. ومن ثم فعلم الاجـــتماع هـــو العلم الذي يدرس الظواهر المختلفة المتصلة بالاستقرار أو الـــتطور الاجتماعى. ثم جاء إميل دوركيم ليستكمل تحديد مجال العلم تحديداً دقـــيقاً مـــن خلال تعريفه لعلم الاجتماع بإعتباره العلم الذي يدرك الظواهر الاجتماعـــية، وعـــرف الظاهرة الاجتماعية بأنها تتشكل من ضروب التفكير والســـلوك التي تتبعها جماعة معينة فيما يتعلق بموضوع محدد. ورأي إميل دوركـــيم بـــأن الظاهـــرة الاجتماعية يمكن أن تكون ظاهرة سوية كالزواج، والأســـرة أو الهجـــرة، كما يمكن أن تكون هذه الظاهرة ذات طبيعة مرضية كالجـــريمة والانتحار وانتشار الفساد وغير ذلك من الظواهر. ورأي أن هذه الظواهـــر تتمـــيز بعدة خصائص أساسية، فهي سابقة علي وجودنا وخارجة عـــنا، ثم أنها عامة بين غالبية أفراد المجتمع، إضافة إلي أن لها جاذبية من ناحية وذات قهر وألزام من ناحية أخرى، إلي جانب أن لها وظيفة محددة في بـــناء المجـــتمع. ويمكن القول بأن تحديد مجال علم الاجتماع مازال يخضع للتشـــكيل والتعديل. إذ نجد النظريات الاجتماعية المختلفة تقدم تحديداً متبايناً لمجـــال العلـــم، فتحديد نظرية التبادل يختلف عن التحديد الذي تقدم التفاعلية الرمـــزية، وهـــو بـــدوره يخـــتلف عـــن التحديد الذي تقدم البنائية الوظيفية بإتجاهاتهـــا المختلفة غير أننا إذا تاملنا تحديداتها جميعا لمجال علم الاجتماع فســـوف نجـــد أنها تنظر من زوايا مختلفة لذات الموضوع ومن ثم فجميعها علـــي قدر من الصواب مثلما هي علي قدر من الخطأ. وبذلك نستطيع القول

بأن الشرط الأول لبناء العلم- وهو وجود مجال يتولى العلم دراسة الموضوعات والظواهر التي تقع في إطاره- فتوفر بالنسبة لعلم الاجتماع.

ويعد إمتلاك العلم لمنهج هو الشرط الثاني للإعتراف بأي علم من العلوم، حيث يؤدي توفره- إلي جانب الشروط الأخرى- إلي الاعتراف به كعلم كامل البناء. والمنهج في تحديده الأساسي يقصد به مجموعة الخطوات والإجراءات التي يتبناها الباحث لفهم أو إدراك الظواهر أو الحقائق الواقعية. أو أن المنهج هو الإجراءات المنطقية التي يتبناها الباحث وصولاً إلي تحقيق فهم للموضوعات التي يتصدى لها بالبحث والدراسة. ويكشف تأمل البناء المنهجي لعلم الاجتماع عن تضمنه لأربعة مستويات رئيسية. المستوى الأول ويتمثل في مجموعة المبادئ المنهجية العامة، التي تشكل الفرضيات التي بناء عليها يتم إدراك الواقع الاجتماعي. وتشكل النظريات الأبنية المنهجية علي هذا المستوى حيث نجد ان المستوى المنهجي الأول في علم الاجتماع، أو مجموعة المبادئ المنهجية العامة تضم مستويين من المبادئ، المبادئ المنهجية العامة الخاصة ببناء العلم ذاته كمبادئ الحياد الاخلاقي، الموضوعية، الفهم، التفهم، الثبات والصدق، وغير ذلك من المبادئ، حيث هذه المبادئ تعتبر مقولات عامة ذات صلة ببناء العلم بالأساس، من حيث كونه علم إجتماعى، أما المستوى الثاني من المبادئ المنهجية العامة فيضم المقولات او القضايا النظرية التي تتبلور علي هيئة مجموعة من الأبنية النظرية التي تقدم تصورات متباينة للواقع الاجتماعي وتنظيماً محدداً لمتغيراته وطبيعة وإتجاه التفاعل بين هذه المتغيرات.

وتمثل المداخل المنهجية Methodological Approachs المستوى الثاني في البناء المنهجي للعلم، ويمكن تحديد المدخل بأنه زاوية الأقتراب من الظاهرة موضوع الدراسة. ويعتبر المدخل أكثر ارتباطاً ببناء النظرية فمقولات النظرية هي التي تفترض هذا المدخل أو ذاك. وعلي هذا المستوى نجد أن بعض النظريات تفضل إدراك الظواهر أو الموضوعات موضع الدراسة في إطارها الكلي. كما هي الحال في كل النظريات الشاملة أو الكلية،

حيـث نجد أن هذه النظريات تدرك موضوعها إدراكاً كليا كما هو الحال في الـنظرية الماركسـية أو البنائية الوظيفية أو نظرية تالكوت بارسونز، حيث تتبني هذه النظريات المدخل الكلي Holistic, Approach لفهم أي ظاهرة اجتماعية عن طريق إدراكها بالنظر إلي الكل إلي هي جزء منه. علي خلاف ذلـك نجد المدخل الجزئي أو الذري Atomistic Approach، الذي تفضله الـنظريات الجزئية أو التي تسعي إلي فهم البناء الاجتماعي من خلال البدء مـن وحداتـه المكونة، أو تلك النظريات التي تفضل فهم التفاعلات اليومية الذريـة المحدودة، وكيف تتبلور هذه التفاعلات لتصبح عمليات ونظم وفأبنية اجتماعية. من النظريات التي تفضل هذا المدخل التفاعلية الرمزية، ونظرية التـبادل خاصـة نظـرية جورج هومانز، وغير ذلك من النظريات الحديثة كالمنهجية الشعبية Ethnomethodology.

وفـي هذا الاطار- فإننا يمكن أن نذكر المدخل الموضوعي لدراسة الظواهـر الاجتماعـية، وهو المدخل الذي يفرض علي الباحث إتباع تقاليد وإجـراءات محـددة كالحـيادية، ومعاملة الظواهر موضع الدراسة كأشياء، والبحث عن القوانين التي تحكم إطراءات الوقائع أو الظواهر الاجتماعية. في مواجهـة ذلـك نجد المدخل الذاتي لإدراك الفعل أوالتفاعل الاجتماعي، من خـلال إدراك معـنى الفعل أو السلوك بالنسبة للفاعل المشارك في التفاعل الاجتماعـي، وليس بالنسبة للباحث الذي يدرس هذا التفاعل. وإلي جانب أن المداخـل المنهجـية تتحدد أو تتأثر بالأبنية النظرية القائمة فإنها تتأثر كذلك بالأبنـية الفكرية والفلسفية الكامنة وراء النظريات Meta- Theories كتأثر المداخـل الموضـوعية بالفلسـفة الوضعية، وتأثر المداخل الذاتية بمقولات الفلسفة المثالية.

ويتشكل المستوى الثالث في البناء المنهجى لعلم الاجتماع من مناهج أو طـرق البحث المختلفة وفي العادة نجد أن هذه المناهج Methods تتأثر إلـي حـد كبـير بطبيعة المداخل المنهجية. ونقصد هنا بالمنهج أو الطريقة مجموعـة الخطوات الإجرائية التي يتبناها الباحث لجمع المعطيات المتعلقة

بظاهــرة أو مســألة إجتماعــية معينة. وعلي هذا النحو فالمنهج عادة يحدد المجــال الذي سوف تدرس في نطاقه الظاهرة موضع الدراسة، ثم الجمهور المتصـل بهـذه الظاهرة، إضافة إلي الأدوات التي سوف تستخدم في جمع البيانات من الجمهور المتصل بالظاهرة موضوع الإهتمام. وعلى النحو نجد أن علـم الاجـتماع خور عدداً من المناهج كالمنهج التاريخي ومنهج المسح الاجـتماعى، ومـنهج تحليل المضمون. حيث نعتبرها مناهج لتوفر الشروط السـابقة في المنهج. فمثلا المنهج التاريخي يستدعى استخدامه تحديد الفترة التاريخـية التـي تنتمي إليها الظاهرة أو الموضوع موضع الاهتمام والبحث إضـافة إلـي تحديد المتغيرات التي سوف يتم تتبعها، والوثائق التي سوف تخضـع للتحليل، ثم دليل تحليل هذه الوثائق بما يساعد علي جمع المعطيات التي تيسر إلقاء الضوء علي المتغيرات موضع الدراسة.

ويحدث نفس الامر في حالة تبني منهج المسح الاجتماعي (الشامل أو بالعيـنة) حيـث نجد أن هذا المنهج يحدد المجتمع الذي تنتمى إليه الظاهرة موضع الاهتمام والدراسة أو الظروف التي تتم في إطارها الدراسة ثم حجم الجمهور الذي سوف تشملة الدراسة، هل هو المسح الشامل أم المسح بالعينة، ثـم أدوات البحـث والاستبيان مثلاً، التي سوف يتم تبينها لجمع البيانات من المفردات الواقعية المشاركة في الظاهرة موضع الدراسة. وينطبق نفس الأمر علـي مـنهج تحليل المضمون، فهذا المنهج بدوره يفرض تحديد المادة التي سـوف تخضـع للتحليل (مجتمع البحث) ولتكن مادة صحفية أو إذاعية، هل ستخضـع كل المادة للتحليل، أم ستسحب عينة من هذه المادة التي ستخضع للتحيلـي، ومـا هي معايير أو شروط تحليل هذه المادة، يضاف إلي ذلك أن المنهج يحدد بناء أداة تحليل المضمون (إستمارة تحليل المضمون) سواء فيما يتعلق بفئات الشكل أو فئات المضمون.

ويـتحدد المسـتوى الـرابع فـي البناء المنهجى للعلم بأدوات جمع البـيانات، وهي عبارة عن وسائل يستخدمها الباحث لالتقاط المعطيات التي تتصل بالفرضيات الموجهة لبحثه من ناحية إضافة إلي أنها من ناحية أخرى

تعبر عن الجوانب المختلفة للمفردات المشاركة في الظاهرة موضع الأهتمام. وإرتباطا بذلك فإننا نؤكد علي معيارين أساسيين ويتمثل المعيار الأول في أننا إذا صعدنا إلي المستويات الأعلي من البناء المنهجي للعلم كلما كان هذا المستوى أكثر إرتباطا بالأبنية النظرية، بحيث تكون الأخيرة مصدراً لشرعية إختيارها، وكلما هبطنا إلي أسفل كلما كانت الظاهرة الواقعية أو المعطيات التي نطلبها هي مصدرا لشرعية إختيار الآداة، وقبل ذلك بطبيعة الحال المنهج.

بيد أننا إذا تأملنا البناء المنهجى لعلم الاجتماع فسوف نجده يعاني من مشكلين جوهريتين. المشكلة الأولي وتتمثل في مدى ملاءمة المنهج المتبع في دراسات علم الاجتماع للمادة أو الظواهر التي يدرسها عادة علم الاجتماع. وذلك يرجع بنا إلي الفترة التي شهدت ظهور علم الاجتماع، حيث برهن أوجست كونت وسان سيمون علي الحاجة إلي علم جديد يقوم بدراسة المجتمع وظواهره كما تدرس العلوم الطبيعية مادتها، ولأن المجتمع جزء من الكون فإنه كان من المنطقي أو من الممكن أن يتبني علم الاجتماع مناهج العلوم التي سبقته. ومن ثم فقد تم نقل مناهج العلوم الطبيعية مع بعض التعديل للعمل بها في نطاق علم الاجتماع. ثم جاء إميل دوركيم ليكتب مؤلفة "قواعد المنهج من علم الاجتماع" ليقنن به مناهج هذا العلم سواء من حيث طبيعة وخصائص المادة التي يقوم بدراستها أو الشروط أو المعايير التي ينبغي أن يراعيها الباحث في إنجازه لدراسته، أو التي ينبغي أن يتحلى بها أثناء إنجازه لبحثه. غير أننا نلاحظ أنه رغم تراكم البحوث والمعطيات والحقائق والقوانين في نطاق علم الاجتماع إلا أن درجة التحكم في تفاعل المجتمع وضبطه مازالت محدودة. ناهيك عن التنبؤ بمستقبل الجماعة أو المجتمع، أو طبيعة التفاعل الحادث في نطاقها.

ولعل ذلك يرجع لخطأ أساسي يتمثل في أن المادة الطبيعية متجانسة بطبيعتها بينما المادة الإنسانية متباينة بطبيعتها ايضاً، سواء بالنظر إلي بعضها البعض أو أن داخلها يختلف عن مظهرها الخارجي، ومن ثم فنحن

إذا درســنا هذه المادة البشرية إستنادا إلي مؤشراتها الخارجية، فإننا قد نصل إلــي نــتائج زائفــة لأن المؤشرات التي إعتمدنا عليها لا تعبر عن التفاعل الداخلــي للمادة الإنسانية هذا بالإضافة إلي أن المادة الإنسانية ليست كالمادة الطبيعية ثابتة من حيث بناءها الداخلي، وإنما هي متغيرة أبدا بفعل المتغيرات الجديدة التي تطرأ عليها من داخلها أو من خارجها فتؤثر علي سلوكها، ومن ثم فنسبة عالية من تفاعلاتها غير خاضعة للتكرار والاطراد، ومن ثم يصبح مــن الصعب تأسيس قانون يحكم إطرادها، كما هي الحال في القوانين التي تحكم إطرادات المواد الطبيعية، هذا إلي جانب أن المادة الإنسانية مادة واعية بطبيعــتها ومــن ثم فمن المحتم أن يتغير سلوكها حينما تدرك أنها خاضعة للبحث والملاحظة، ومن ثم تبدأ في اعمال إرادتها، التي تساهم بالاضافة إلي الوعــي إلــي هز أستقرارها وربما تغيير اتجاه تفاعلها، الأمر الذي يهددها بإخــراجها مــن نطاق المادة التي يضبطها قانون. وبذلك فبرغم أن المجتمع جــزء مــن الكــون إلا أن المادة الكونية ليست متجانسة، وإنما هي متباينة، بعضــها يخضــع للقــانون الضابط للاطراد، بينما يحتاج البعض الآخر إلي اسلوب مختلف من أجل فهمه وإدراكه.

وتتمــثل المعضــلة المنهجية الثانية التي يواجهها علم الاجتماع في الــتأرجح المنهجي لممارسات هذا العلم، وهو التأرجح الذي حرمه حتى الآن مــن تشكيل تراكم كاف علي الصعيد النظري والمنهجي، بحيث ييسر تحقق هــذا التراكم حدوث نقلة نوعية في البناء النظري والمنهجي للعلم، ييسر له إمــتلاك التنظــير والمــنهج الملائم وليس المنقول عن علوم أخرى وتتجلي مظاهــر هذا التأرجح في أنه منذ نشأة علم الاجتماع وهو تحت تأثير أفكار الفلســفة الوضــعية. ومن ثم فقد كان الأقرب له تبني مناهج العلوم الطبيعية التــي تــدرس مادتهــا من خلال مؤشراتها الخارجية كما تدرس هذه المادة بإعتــبارها أشــياء تخضع لإطرادات ينبغي البحث عن القوانين الحاكمة أو الضــابطة لهــا. غــير أن فشل العلم الاجتماعى في أحيان كثيرة في ضبط التفاعل الاجتماعي القائم، أو في التنبؤ بتطوره في المستقبل، ألقي ظلال من

الشــك فــي منهجه، وبدأ طرح مجموعة من الأفكار التي تؤكد تباين المادة الأنســانية والاجتماعية عن المادة الطبيعية، ومن ثم حاجتها لمنهج مختلف، منهج يدركها من الداخل، يمسك بمعناها الذي تتمحور حوله. ولقد تطلب ذلك أن يتحول علم الاجتماع ليعترف من أفكار ومقولات التيار المثالي التي تؤكد علي الإرادة والوعى والذات والمعنى ومن ثم بدأ تحول علي مستوى النظرية والمــنهج مــن المنطلقات الوضعية إلي المنطلقات المثالية، بإعتبارها الأكثر فعالية لفهم التفاعلات الإنسانية والاجتماعية.

وبــرغم أن هذا التحول سوف يكون علي حساب ضياع قيمة التراكم الــذي تحقق في المرحلة التي تأثر فيها العلم بأفكار الفلسفة الوصفية، فإنني أعــتقد أن اســتدارة العلم لتحقيق تراكم علي الصعيد النظري والمنهجى من واقــع المــنطلقات المثالية يمكن أن يكون مفيداً إذا تحقق تراكم ييسر إدراك المعاني الذاتية أو التضمنية في مختلف الموضوعات أو الوقائع الاجتماعية، بحيــث يمكن ان يؤدى ذلك إلي حدوث تآلف أو تركيب مشترك بين التراكم الناجح علي الجانب والتراكم الذي سوف ينضج علي الجانب المثالي، بحيث ييسر ذلك تأسيس بناء نظري ومنهجي يدرك الوقائع أو الظواهر الاجتماعية ســواء بالاستناد إلي مؤشراتها الخارجية وفي ذات الوقت يتفهمها من خلال إدراك المعانــي الداخلــية المتضــمنة فيها، ذلك في نوع من البناء النظرى والمــنهجى المتماســك الذي يوفر إدراكاً كلياً وليس جزئياً لظواهر المجتمع والــتفاعلات الحادثــة فــي إطــاره. إذا تحقق ذلك فهو الوعد السعيد لعلم الاجتماع.

وتعــد الــنظرية هي المكون الثالث والمحوري في بناء العلم. حيث تشــكل الــنظرية عقل العلم إذا نظرنا إليه بإعتباره كائناً عضوياً. وعلى هذا الــنحو نجــد أن النظرية تشكل المخزون المعرفي لأي علم من العلوم. ففي داخــل بــناء الــنظرية تصــور لكــل جوانب المجتمع، ونماذجه، وسياقاته الاجتماعــية والعمليات أو التفاعلات الاجتماعية التي تحدث في إطاره. وأي معرفة يصل إليها العلم من خلال استخدامه للمنهج في دراسة ظواهر الواقع،

لابــد أن تنتقل في النهاية بعد التأكد من صدقها إلي مخزون المعرفة، ثم إلي النظرية لتستقر بها أو لتحل محل معرفة ثبت زيفها أو كذبها.

وتــتحدد الحالة المثالية لوضع النظرية في بناء العلم أن يمتلك العلم نظــرية عامــة واحدة قادرة علي تناول موضوعات مجاله جميعها، ويمكن بطبــيعة الحال أن تتفرغ عن هذه النظرية عديد من النظريات الفرعية. هذه الحالــة المثالية تحققت تقريبا لغالبية العلوم الطبيعية، بحيث نجد أن المنتمين لأي علــم مــن العلــوم يعملون وفقا لهذه النظرية. فنظرية تحطيم الذرة أو صــناعة القنــبلة الذرية، قوانينها ومعادلاتها واحدة في مختلف مناطق العالم والخلاف الرئيسي بين بلد وآخر هو إمتلاك التكنولوجيا والخامات التي يمكن أن يــتم بهــا التفجير أو التحطيم الذري. كما تختلف المجتمعات عن بعضها البعض في حجم المعرفة التي لديها وحجم التطور النظرى الذي حققته.

فــإذا نظــرنا إلي وضع النظرية في علم الاجتماع فإننا سوف نضع أيديــنا علي سر تخلف هذا العلم. حيث لا نجد نظرية واحدة ولكن نظريات عديــدة بعضــها يمكن أن نسميها بالنظريات الشاملة أو الكلية، بينما البعض الآخــر يمكــن أن نسميه بالنظريات الجزئية أو الذرية التي تتناول عناصر التفاعل الاجتماعي الدقيقة، أو النظريات الخاصة التي تتناول جوانب خاصة فــي بــناء المجتمع مثل تأسيس نظرية خاصة عن الأنومى، أو نظرية عن أصــحاب الياقات البيضاء. إضافة إلي ذلك هناك ما يمكن تسميته بالنظريات المتوســطة المــدى. وفــي كل نمط من أنماط هذه النظريات، نجد نظريات عديــدة، ففي نطاق النظريات الشاملة يمكن أن نضمن كل نظريات المرحلة الكلاسيكية، الماركسية، الدوركمية، نظرية ماكس فيبر، نظرية باريتو، وارنز زومــبارت إضــافة إلي نظريات النقد الاجتماعى والنظرية البارسونزية في الفــترة المعاصرة، وهكذا بالنسبة لأنماط النظريات الجزئية. الأمر الذي أدى في النهاية إلي شيوع حالة من عدم الاتفاق النظري داخل علم الاجتماع، وما يعنــي غياب النظرية الاجتماعية الشاملة المتفق عليها، والتي يمكن أن توجه البحــث الاجتماعي في أي مجتمع من المجتمعات. إضافة إلي أنها يمكن أن

تشكل مصدراً لإستقامة كثير من النظريات الفرعية الخاصة بوقائع أو ظواهر معيـــنة في بناء المجتمع. إذا تأملنا مثل هذا الوضع فإننا سوف نجد أن هناك متغيرات كثيرة مسئولة عنه، نذكر بعضها فيما يلي:

١- من هذه المتغيرات الافتراضات العامة التي تشكل وجهة نظر المفكر أو المـــنظر فـــي العـــالم المحيط، إذ نجد أن بحياة كل منظر من المنظرين مجموعـــة من الوقائع التي شكلت أساساً لمجموعة من الافتراضات التي تطـــورت مـــع المنظر منذ الصغر ولعبت دوراً في تشكيل أفكاره، وفي العادة يرتبط بها المنظر ارتباطا عاطفيا الأمر الذي يتيح لها الفرصة في التأثـــير علي رؤيته. من ذلك مثلاً الأسباب لعبت دوراً في تشكيل رؤية كـــارل ماركس للمسألة اليهودية، أو الظروف التي دفعت إلي تأليه اميل دوركـــيم للمجـــتمع، أو المـــبررات التي دفعت إلي تغيير فلفريدو باريتو لوجهـــة نظـــره فـــيما يتعلق بلاشتراكية، أو الظروف التي فرضت علي تالكوت بارسونز الأهتمام الكامن بالدين.

٢- ويـــتعلق المتغير الثاني بطبيعة التوجه الأيديولوجي للمنظر، فالمفكر أو المنظر هو نتاج لتفاعل الأفكار. ثم هو في النهاية واستنادا إلي افتراضاته الكامـــنة وبـــناء عواطفـــه يرتبط بأفكار معينة تتعلق بالمجتمع القائم أو المجـــتمع الـــذي ينبغـــي أن يكون، الأمر الذي تتحول من خلاله الأفكار المتعلقة بما هو كائن أو ما ينبغي أن يكون إلي نوع من اليقين الذي يعتقد بصـــحته ولا شئ غيره. ومن ثم تتحول الأفكار أو المعارف التي تحتمل الصـــواب أو الخطـــأ إلـــي معتقدات ثابتة لا يرى المنظر الواقع إلا من خلالها، وهنا نجد أن المنظر يؤسس نوعاً من تجميد الأفكار، فتتحول لديه الأفكـــار المرنة والمتغيرة، إلي معتقدات ثابتة جامدة تتضمن كل الصدق ومـــا علـــى الواقـــع ســـوى الـــتلاؤم معها. ومن الطبيعة أن تؤثر هذه الأيديولوجـــيا او المعتقدات علي تصوره للمجتمع، ومن ثم تفرض عليه التأكـــيد علي بعض متغيرات الواقع بإعتبارها المتغيرات الفاعلة. ونظراً لأن الواقـــع متغير بطبيعته، والأفكار في هذه الحالة ثابته، ومن ثم فهي

تسعي لتجميد حركة الواقع، وانتقاء المعطيات أو الحقائق التي تبرر هذه المعتقدات، أو تضفي الشرعية علي تجميد حركة الواقع. ومن الطبيعي أن يفترض ذلك عديد من التحيزات التي تشكل قيوداً أو معوقات أمام تطور النظرية.

٣- ويتمثل المتغير الثالث الذي يسبب هذه الفوضى النظرية في أن الواقع متغير بصورة مستمرة ودائمة. ومن ثم فإذا كانت النظرية قد جردت عن مرحلة معينة من مراحل تطور هذا الواقع. ولأن الواقع متغير، فإنه بفرض متغيرات جديدة لم تقدم النظرية تجريداً لها، فإذا لاحقت النظرية الواقع بتجريد معطياته الجديدة فإنها بذلك تطور نفسها، أما إذا لم تستوعب النظرية المتغيرات الجديدة فإنها تجمد وتتوقف عن متابعة حركة الواقع، وتتخلف عن تصوير تفاعلاته. مثال ذلك نجد أن النظرية الماركسية تحلل بصورة دقيقة تفاعلات النظام الرأسمالي في مرحلة المجتمع الصناعي الأول أو إبان الثورة الصناعية. غير أن النظام الرأسمالي قد قطع أشواطا كثيرة علي طريق التطور، ومن ثم فقد قامت محاولات ودؤوبة قام بها جورج لوكاش وأنطونيو جرامش وفلاسفة النقد الاجتماعي لتطوير بعض المقولات الماركسية غير أن البنية الأساسية للنظرية الماركسية ظلت كما هي لم تشهد تطوراً حقيقياً فاستحقت بجدارة أن تجد لها مكاناً في متحف التاريخ. علي خلاف ذلك نجد أن النظرية الوظيفية التي قدمها سبنسر أو مالينوفسكي أو دوركيم أو رادكليف براون خضعت لنوع من التطور المستمر علي يد تالكوت بارسونز وروبرميرتون وغيرهم، بحيث ظلت قادرة -في نطاق اعتبارات معينة- علي متابعة حركة الواقع ومتغيراته المتجددة.

٤- ويعتبر تنوع الواقع الاجتماعي، وثرائه وعدم تجانسه من المتغيرات الرئيسية التي تعوق تبلور النظرية الاجتماعية الشاملة والكلية المتفق عليها، والتي يمكن أن تصدر عنها نظريات فرعية عديدة يمكن أن تتناول جوانب أو متغيرات الواقع المتباينة. هذا التنوع قد يستند إلي عدة أبعاد

رئيســية الــبعد الأول تاريخي حيث المجتمعات متباينة من حيث الزمان الذي تعيش فيه، فبينما أن الولايات المتحدة الأمريكية ومجتمع السنغال أو موريتانــيا تعيش في نفس القرن الواحد والعشرين إلا إننا نعتقد أن هناك فــارق في التقدم بينهما. الأمر الذي يشير إلي أن الولايات المتحدة تعيش فــي زمان تاريخي مختلف عن الزمان الذي تعيش فيه هذه المجتمعات. ويتمــثل البعد الثاني في البعد الجغرافي ويتصل بطبيعة الموقع الجغرافي الــذي يعــيش فــي نطاق المجتمع، فالأوضاع الاجتماعية التي تطورها مجــتمعات المــناطق البادرة تختلف عن نظرتها في مجتمعات المناطق الحارة تختلف عن تلك التي تعيش في إطار المناطق المعتدلة. فالأوضاع الاجتماعــية التي طورتها اليابان غير تلك التي طورتها الولايات المتحدة غــير تلــك القائمــة فــي الهند أو الصين. ويتصل البعد الثالث بالحالة الحضــارية للمجــتمعات، فعالمنا المعاصر يتشكل من حضارات تشغل الأديان مكانة محورية في بنائها، الأمر الذي يسلمنا إلي مجتمعات متباينة في تراثها وحضاراتها ومن ثم في أوضاعها الإجتماعية، في هذا الإطار تتبايــن المجــتمعات الشــرقية والمجتمعات الغربية، والشرقية درجات والغربــية كذلــك. ونتــيجة لذلــك فإننا نجد لدينا تباينات بين عديد من المجتمعات. ومن ثم فقد تكون النظرية التي جردت عن إحداها قادرة علي فهــم تفاعلاتها أو التفاعلات المناظرة لتفاعلاتها، أي التفاعلات التي تقع فــي مجتمعات مناظرة لها. غير أنها لا تكون قادرة – حتى الآن– علي فهم التفاعل الكائن في مختلف المجتمعات. ويصبح لتحقيق هذا الهدف أن تسلك أحد سبيلين. الأول أن تتكاثر الدراسات التى تجرى علي نماذج من المجتمعات الممثلة لمختلفة المجتمعات المتباينة، حيث تصبح القضايا التي يمكــن أن نصل إليها أساساً أو قاعدة لبناء النظرية العامة، التي يمكن أن نصــل إليها إذا أخذنا في الاعتبار المتغيرات أو الأبعاد التي تباينت علي أساســها مجــتمعات العــالم. أو إذا تخلق وضع حضاري متجانس علي الصــعيد العالمــي، وهذا أمر مستبعد حتى في المستقبل القريب أو حتى

الوسيط. أما السبيل الثاني فيتمثل في أن نصل إلي نظرية عامة علي درجة عالية من التجريد. بحيث تعالج الأسس الرئيسية المشتركة للمجتمعات المتباينة في هذه الحالة من الممكن أن تصبح مقولاتها مصور إلهام لتأسيس نظريات فرعية تعالج ظواهر أو وقائع أو تعالج مجتمعات. ذلك أنه كلما ارتفع مستوى التجريد إلي اعلي كلما كانت هناك إمكانية توفير رؤية أشمل وابعد مدى، ويمكن ان يستفيد هذا المستوى التجريدى الأعلي من مقولات النظريات القائمة كمعطيات لتأسيس مقولاتها وقضاياها.

٥- ويتمثل المتغير الخامس الذي أعاق نمو نظرية إجتماعية كلية وشاملة في الطبيعة الخاصة للمادة الإنسانية والاجتماعية. وإذا كان البشر أو المادة الإنسانية تشكل أساس بناء المادة الاجتماعية. فإن البشر ليست لهم طبيعة واحدة. إضافة إلي أن المظهر الخارجي الذي ندركه من خلال مؤشراته الخارجية قد لا تعبر عن طبيعة الحقيقة، فالصلة قد تكون منقطعة بين المظهر الخارجي والعمق الداخلي للإنسان. ذلك دفع أحد علماء الاجتماع "أرفنج جوفمان" إلي التأكيد بأننا جميعنا نلعب أدوار علي مسرح الحياة. وأن شخصياتنا الحقيقية كامنة في العمق لا ندرى عنها شيئا، ومن الصعب أن نعلم عنها شيئا، المادة الإنسانية الكامنة هي التي تشكل وتوجه سلوكيات البشر في مختلف المجالات الإنسانية، وهي الطاقة الحقيقية الموجهة، أو هي الرواسب حسبما يذهب فلفريدو باريتو. ولفترة طويلة من تاريخ علم الأجتماع جردت مقولات، كثيرة عن الجوانب الظاهرة أو الخارجية للسلوك الإنساني بينما تركت مستوياته الكامنة، ولذلك نجد أن غالبية هذه النظريات لم تعالج الجوانب الحقيقية في السلوك الإنساني لقد ظلت حسبما يذهب فلفريدو باريتو عند مستوى المشتقات بينما هي ينبغي أن تعالج مستويات أعمق عند مستوى الرواسب، لذلك لم تنجح النظريات الاجتماعية القائمة في إمتلاك درجة عالية من التحكم في السلوك الإنساني

وضـــبطه، لكونها لم تتناول المستويات أو المتغيرات الجوهرية الموجهة للسلوك الإنساني أو المؤسسة للتفاعل الاجتماعي.

٦- يضـــاف إلي ذلك أن علم الاجتماع لم يتجاوز عمره المائتي سنة تقريبا، وهـــو عمر قصير للغاية إذا قورنه بعمر علوم أخرى بعضها يرجع إلي خمســة آلاف سنة قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام. ومائتي سنة في عمـــر علـــم ليست سوى لحظات عمر إنساني ولهذا فإنه من الصعب أن نفـــرض علي هذا العلم الحدث والحديث مطالب صعبة كضرورة إمتلاك مـــنهج ملائم أونظرية كاملة وفعالة في هذا العمر المحدود. ومن ثم فمن المعـــتقد أن استمرار الزمن سوف يمنح هذا العلم الفرصة الكاملة لتطوير منهجيـــته وكذلـــك إكتمال تطوير نظريته، وهو ما ينبغي أن يسعى إليه علمـــاء الاجتماع آخذين في الأعتبار المتغيرات السابقة أو المعوقة التي أشرت إليها.

المراجع

١- **سمير نعيم:** النظرية في علم الاجتماع، دراسة نقدية مكتبة سعيد رأفت، الطبعة الأولي، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٢٤.

2- **Skidmore, William:** Theoretical Thinking in Sociology, Combridge Univerisity Press. London. 1975. P. 3.

٣- **سمير نعيم:** مرجع سابق، ص ٢٠.

4- **Merton, Robert. K:** Social Theory and Social structure. The Free Press. Gleonce. 1962. P. 3.

٥- **زكريا إبراهيم:** مشكلة الفلسفة، مكتبة مصر، الطبعة الثالثة، ١٩٧٠، ص ١١٢.

٦- **سمير نعيم:** مرجع سابق، ص ص ٢٢ - ٣٢.

7- **Soro Kin, Pitrim:** Contemporary Social Theories. New York. Harper. 1928.

حيـــث يعــرض الكتاب بكامله لكافة النظريات العالمية التي ترى أن عاملا أساسيا من وجهة نظر المدرسة هو الذي يلعب دور المتغير المستقل، ويحتم يسر التفاعل والعلاقات الاجتماعية من وجهة معينة.

8- **K. R. Merton:** Op, cit. P. 87.

٩- **علــياء شكري، محمد علي محمد:** قراءات معاصر في علم الاجتماع: الـــنظرية والمنهج. سلسلة علم الاجتماع المعاصر، الكتاب التاسع، شركة دار النشر المتحدة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٢، ص ١٥٢.

١٠- **محمـــد الجوهرى وآخرون:** ميادين علم الاجتماع (ترجمة وتحرير). دار المعارف بمصر، القاهرة، الطبعة الأولي، ١٩٧٠، ص٦٨.

١١- **عــبد الباســط حسن:** أصول البحث الاجتماعي، مكتبة وهبة، الطبعة الخامسة، ١٩٧٦، ص ص ٢٢٢ – ٢٣٢، وبخاصة ص ٢٣١.

١٢- **علياء شكري، محمد علي:** مرجع سابق، ص ص ١٦٥ – ١٧٦.

13- **Kaufmans, Flex:** Methodology of The Social Sciences. New York. Oxford University Press. 1944. P. 97

14- **Parsons, T:** The Structure of Social Action. New York. Mac- Graw- Hill. 1937. P. 432.

15- **Cohn, Percy. S:** Modern Social Theory. Heinmann. London. 1968. P. 11.

16- **Ibid.** P. 12.

17- **Ibid.** Pp. 12 – 13

١٨- **سمير نعيم:** مرجع سابق، ص ٢٤.

19- **Dahrendorf, Ralf;** Class and Class Conflict in industrial Society. Standford University Press. Stanford. 1959. P. 129.

٢٠- تـيما شيف، نيقولد: نظرية علم الأجتماع، طبيعتها وتطورها، ترجمة محمود عودة وآخرون، ١٩٧٠، دار المعارف، مصر، ص ٣.

21- K. R. Merton: Op. cit, P. 34.

٢٢- **نيقولات تيماشيف**، مرجع سابق ص ٣.

23- Pitrim Sorkin: Op. cit.

٢٤- **نيقولا تيماشيف**، مرجع سابق ص ١٦

25- Galton, Johan: Theory and Method of Social Research. London. George Allen & Unwin. LTD. 1987. P. 451.

٢٦- **نيقولا تمياشيف**، مرجع سابق، ص ١٥

27- R. K. Merton: Op. cit . P.5.

28- Ibid. P. 89

29- T. Parsons: Op. cit. P. 28.

30- Seltiz, C. Jahoda & Others: Research Methods in Social Relations. New York. 1963. P. 28.

31- Ibid. P. 41.

32- Fair Child, H. P: Dictionary of Sociology, 1967. P. 56.

33- Rily, M.W: Socio logical Research. A Case of Approach. New York. 1964. P. 5

34- R.K. Merton: Op, cit. P. 90.

35- Ibid. PP. 91 – 92

36- Johan Galtung. Op, cit.P. 451.

37- Hommans, G: Contemporary Sociology (in) R. Fairs (ed) Hand Book of Modern Sociology. New York. 1966. P. 951.

38- **Smelser. N. J:** Theory of Collective Behavior. New York. 1963. P. 24.

39- **Catgrove, Stephen:** The Science of Society. An Intruction to Sociology. London. Grow- Allen & Unwin. ITD. 1968. Pp. 31 – 38.

40- **Ibid.** P 20.

41- **R. K. Merton:** Op. cit. Pp. 13 – 15.

42- **Parsons, T:** Essays in Sociological Theory. The Free Press. New York. Collier Macmillan Limitod. London. 1966. P. 350.

43- **Percy, Cohn:** Op, cit. P. 12

44- **Nagel, E:** The Structure of Science, Problems m logic of Scientific explanation. Harcourt Brace & world. Inc. New York. 1961. P. 91.

45- **Johan Galton:** Op. cit. P. 8.

46- **Compell, Norman. R:** The Structure of Theories (m) Herbert Fiegl & May Brodbeck (eds) New York. 1923. Pp. 288 – 308 esp P. 303.

47- **T. Parsons:** Essays in Sociological Theory, Op. cit. P. 323.

48- **Ibid.** P. 215

49- **Ibid.** P. 216

50- **E. Nagel:** Op, cit. P. 95

51- **N. R. Campell:** Op, cit. P. 289

52- **W. Skidmore:** Op. cit. Pp. 15 – 16

53- T, Parsons: Essays in Sociological Theory. Op. cit. P. 350.

54- Ibid. P. 354.

٥٥- **محمد عارف**، المنهج الكيفي والمنهج الكمي في علم الاجتماع في ضوء نظرية التكامل المنهجي لدراسة الظواهر الاجتماعية، رسالة دكتوراة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٦١ ص ٢٥٩.

٥٦- **كريم حمزة**، المفاهيم والقضايا في النظرية والبحث، مجلة البحوث الاجتماعية والجنائية. المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، العراق، العدد (١) السنة الأولي، آزار، ١٩٧٢، ص ص ٧٤ - ٩٢.

الفصل الثاني
إستراتيجيات بناء النظرية الاجتماعية

تمهيـد:

حسبما هو مؤكد وثابت يعد بناء النظرية واكتمال تأسيسها دالة علي النضـج وأكـتمال النظام العقلي الذي تنتمى إليه، ذلك لأن النظرية هي التى تـتولى ترشـيد حركة العلم، من حيث انتقاء المشكلات التى ينبغي التصدى لهـان ثم منطق التناول العلمي الذي ينبغي أن يكون. وإرتباطاً بذلك يتطلب تحلـيل بناء النظرية العلمية، وخاصة النظرية الاجتماعية ضرورة التركيز علي ثلاثة جوانب أساسية.

الجانـب الأول: وهو ما يمكن أن نسميه مجازا بالبناء المورفلوجي للـنظرية أو مكوناتهـا الأساسية، ونعني بها العناصر الأساسية لأي نظرية علمية مشخصة بشكل ثابت غير متفاعل.

أما الجانب الثاني: فيتمثل في العمليات الدينامية لبناء النظرية العلمية. سـواء تلك العمليات المتعلقة بتأسيس النظرية، أو تلك الخاصة بأعمالها في عملـيات البحث المختلفة، أو التى تركز علي صياغة النظرية العلمية لتحديد مبادئها الأساسية.

أمـا الجانب الثالث: فيتعلق بوظيفة النظرية بالنظر إلي نسق التفكير العلمـي للـنظام العقلـي الـذي تنتمي إليه كإطار لها، وبالنظر إلي النسق الاجتماعي كاطار لأعمال فاعليتها.

وفي محاولة لتأمل هذه الجوانب الثلاثة فإننا نجد أن مختلف المواقف الـنظرية تجمـع علي أن النظرية العلمية تتركب من ثلاثة مكونات أساسية لازمـة لتأسسـها كنسق نظرى، وإن غياب أي من هذه العناصر، يعني أن النظرية مازالت في طور الإكتمال وأنها لم تكتمل بعد. أي مازالت مشروعا نظريا ناقصا. ويتمثل أول هذه العناصر في القضايا النظرية، أو التوجيهات

الـــنظرية العامـــة، وأحـــيانا مـــا يطلق عليها اختصار النظرية أو القوانين النظرية. وتعد القضايا أو القوانين الأمبيريقية العنصر الثاني. ويمكن ضمها إلـــي العنصـــر الأول لتشكلا معاً مستويين لعنصر واحد. أما المكون الثالث فيتمـــثل فـــي البـــناء المنطقي الذي يضم المستويين السابقين من القضايا أو القوانيـــن، بالإضـــافة إلي العمليات الأساسية لبناء النظرية، تلك التي تشكل إطارات التفاعل بين مستويات قضايا النظرية من ناحية، وبين النظرية ككل والسياقات المحيطة بها من ناحية أخرى[*].

ويشـــكل الـــنوع الأول من القضايا أو القوانين- التوجيهات النظرية العامـــة – المبادئ الأساسية لأي نسق نظرى، حيث يرتبط أساسا برؤيته أو نظـــرته إلي الواقع وإجراءاته المحددة لدراسته. في إطار ذلك يؤكد روبرت ميرتون أن التعميم النظرى ينبغي أن يكون محددا لكي يساعد علي الملاحظة أو الـــتجربة المحورية، هذا بالإضافة إلي ضرورة تساند التعميمات النظرية بعضـــها مع البعض، لكي تشكل في مجموعها بناء نظريا يمتلك درجة عالية من التماسك المنطقي[١]. أما القضية النظرية فعادة ما تشتق أساسا من البناء النظرى.

أمـــا الـــنوع الثانـــي من القضايا أو القوانين الامبيريقية، ولا تعتبر الـــنظرية مصـــدرا أساسيا له، فالتعميم أو القضية الامبيريقية قضية منعزلة تلخص العلاقات المطردة والملحوظة بين متغيرين واقعيين[٢]. ويزخر الفكر الاجتماعـــي بهذا الطراز من التعميمات التي تحتاج إلي إعادة صياغتها في إطار بناء نظري، ويوفر التنوع الهائل لهذا النموذج من القضايا المادة الخام لتأسيس النظرية في علم الاجتماع.

---

* يطلق ايرنست ناجل علي القضايا أو القوانين النظرية مصطلح نظرية Theory، بينما يطلق علي القضايا أو القوانين الامبيريقية مصطلح القوانين التجريبية Experimental Laws، وذلك يرجع إلي أنه قد انطلق إلي فلسفة العلم من خلال كونه متخصصا في العلوم الطبيعية وليس الإنسانية.

ويشـــكل البـــناء المـــنطقي العنصر الثالث في بناء النظرية. وللبناء المنطقـــي معنيان، الأول يتمثل في أنه أيا كان المدخل إلي تأسيس النظرية، سواء كان ذلك تصعيدا عن طريق التعميمات الامبيريقية، أو أنها تولدت من خلال التأليف بين القضايا النظرية، فإن النظرية ينبغي أن تكون علي درجة عالـــية مـــن الدقـــة التنظيمـــية، بحيث تتخذ في شكلها النهائي شكل النسق الاستنباطي. وبالنظر إلي ذلك نجد أن الافتراضات الأساسية للنظرية لا تحدد شيئا سوى بناء العلاقات المجردة. وبذلك فإن الافتراضات الأساسية للنظرية تتشـــكل مـــن مجموعة من المسلمات. ومن ثم فما دامت المصطلحات تتحدد بواسطة مسلماتها، فإن هذه المسلمات لا تحدد شيئا واقعيا. فهي بذلك أشكال قضايا وليست قضايا، ويمكن استكشافها عن طريق اشتقاق قضايا أخرى منها وفقـــا لقواعـــد الاستنباط المنطقي. وبايجاز فإن النظرية العلمية الدقيقة البناء ينبغـــي أن تمتلك بناء منطقيا يشكل هيكلها الأساسي(٣). ويتعلق المعنى الثاني للبناء المنطقي بالترتيب الذي تتخذه قضايا البناء النظرى. بحيث يحدد البناء المـــنطقي قضـــايا النظام أو المستوى الأعلي ذات الطابع النظرى، وقضايا النظام أو المستوى الأدني ذات الطابع الأمبيريقي. ثم طبيعة العلاقة الوظيفية المتـــبادلة بيـــن نوعـــي القضايا أو التعميمات من خلال العمليات المرتبطة بالـــتفاعل الداخلي للبناء النظري، وهي عمليات اشتقاق الفروض والتأسيس الافتراضـــي للـــنظرية ثم عملية تنظيم المعطيات الأمبيريقية في شكل إطار نظرى(٤).

أولاً: تأسيس النظرية الاجتماعية، العمليات الأساسية

فـــي إطـــار هذه الفقرة، سوف نتعرض للعمليات الرئيسية التي من خلالها يتأسس بناء النظرية الاجتماعية منذ بداية كونها معطاة يطرد وقوعها نسبة إلي بعدى الزمان والمكان، وحتى تأسيس التعميم النظرى العام. أو منذ بداية كونها توجيها فلسفيا عاما، وحتى اكتسابها طابع القضية العلمية القادرة علـــي توجـــيه البحـــث الامبيريقـــي المرتكـــز علي تناول معطيات الواقع واطـــراداتها. وسواء بدأنا صياغة التعميم النظرى من هذا الطريق أو ذاك.

فــإن إنجـــازه وتأســـيس إطار نظرى يتضمنه لابد أن يمر من خلال أربع عملـــيات رئيسية وهي التأسيس Construction والتنظيم Codification والاشتقاق Derivation والإبداع Creation وسوف نعرض بإيجاز لكل من هذه العمليات.

١ - التأسيس Construction:

وتعتـــبر عملـــية التأســـيس من أهم العلميات المتصلة ببناء النظرية وأخطـــرها. إذ يعتبر تأسيس النظرية محاولة لإنشائها بدقة، وفقا لخطة يمكن الدفـــاع عـــنها بالاستناد إلي فهم واضح للمسلمات. وللاختلاف بين القضايا التحليلية والتركيبية، واختلاف التعريف عن البرهان، إلي غير ذلك. علي هذا الـــنحو يعتبر تأسيس النظرية جهدا خاصا يهدف إلي صياغة بعض القضايا النظرية التي تعتبر مقدمات منطقية أو تتضمن مبدأ منهجياً عاماً واضحاً قابلا للاختـــبار الامبيريقـــي[٥]. وتتبع علمية التأسيس النظرى فيما يتعلق بصياغة النظريات المتوسطة المدى وليست النظريات الشاملة، ومن ثم فمن المستحيل أن يحاول أحد العلماء استخدام تكنيك تأسيس النظرية لصياغة نظريات ذات طابع شامل كالنظرية البارسونزية أو النظرية الماركسية مثلا. وبصفة عامة طـــبق علماء الاجتماع المهتمون بقضايا المنهج والإجراءات العلمية تكنيكات تأســـيس الـــنظرية لاهتمامهم بتطوير نظريات تغطى مجموعة من المشاكل الواقعـــية الأضيق نطاقا من تلك التي يهتم بها منظروا النظرية العامة. ومن هـــنا نجـــد أن معظم الفكر المتعلق بالتأسيس الإفتراضى للنظرية يدور حول التفســـيرات الـــنظرية للمعطيات موضع الاهتمام، مع تأكيد العلاقة بين هذه التفسيرات وقضايا النظرية الأكثر عمومية[٦]. ويتطلب تأسيس النظرية توافر عديـــد من القضايا النظرية ذات الصلة بالمشكلة موضع الاهتمام. وينبغي أن تكـــون هـــذه القضـــايا واضحة ومختصرة. وإلي حد واضح لا يهتم مؤسس الـــنظرية بإنشـــاء نظـــرية جديدة تماما بقدر ما يهتم بخلق ارتباطات جديدة للقضـــايا الـــنظرية القائمـــة، بحيث يمكن أن يقود ذلك إلي تفسيرات جديدة. وحينما تتطلب الحاجة إلي قضايا جديدة، فإن المؤسس النظرى (المنظر) يلجأ

عـادة إلـي الأسلوب الاستنتاجى inductive عن طريق التعميم من النتائج البحثية. ولتوضيح ذلك نذهب إلي أنه إذا افترضت إحدى النظريات أن أ، ب تربطهما علاقة حتمية، وإذا افترضت نظرية أخرى أن ج، د تربطهما علاقة حتمـية ايضـا، فإنـه إذا تأكد بالدليل أن ب، ج تربطهما علاقة حتمية، فإن إضـافة هـذه المعلومـة الأخيرة تمكن من تأسيس قضايا نظرية فيما يتعلق بالعلاقـة بين أ، ب، ج، د علي أساس من قضايا النظريتين إلي جانب بعض المعطـيات الإضـافية، مع ملاحظة أن الفرض الذي قاد إلي تأسيس العلاقة الإضافية (ب،ج) لم يشتق من أي من النظريتين(٧).

وينبغي أن يكون واضحا عند تأسيس النظرية أن تكون لدى المنظر فكـرة واضحة عن نموذج النظرية التى ينتوى ابتكارها. ذلك لأن النظريات الاجتماعـية لا تقول أشياء مختلفة فقط. ولكنها تقولها بأساليب متباينة كذلك. ومـن ثـم فعلى المنظر أن يحدد منذ البداية ما هي بنية النظرية التي ينتوى تأسيسـها(٨)، ثم ما هو موضوعها الأساسي، وما هو نطاق هذه النظرية. هل تقتصـر النظرية علي مضمون اجتماعى متماثل، كأن تقتصر في معالجتها لموضوعها علي نطاق اجتماعى بعينه أسريا كان أو اقتصاديا أو سياسيا، أو تتضـمن تفاعلا اجتماعيا يتقاطع عبر مجالات اجتماعية متباينة. هذا وينبغى توضيح أن تأسيس النظري كعملية أساسية يتضمن ثلاث عمليات فرعية هي:

أ – صـياغة المفهوم Concept Formulation إذا تعتبر صياغة المفاهيم من المهام الرئيسية لتأسيس النظرية. والمفهوم كما نعلم – عبارة عن أسم أو رمـز لفـئة من الوقائع والأفكار، وقد يكون المفهوم ذا دلالة واقعية تتأسـس بالـنظر إلـي الملاحظات الواقعية، أو قد يكون مجردا بصورة كاملة. وما يهمنا في عملية تأسيس النظرية المفهوم بالمعنى الأول. بيد أن التساؤل الذي يطرح نفسه يتمثل في ماهية الإجراء الذي من خلاله يمكن صياغة مفهوم يعبر عن فئة من المعطيات الواقعية، لكي يصبح بدوره – حيـن اكـتمال صياغته– وحدة أساسية في تشييدات نظرية تالية؟ يجيب علي ذلك لليان جروس Liewellyn Gross بتأكيده أن ذلك يتحقق حينما

نضـــع مجموعـــة من الملاحظات الفجة فيما يتعلق بمتغير معين، بشكل مباشـــر فـــي إطـــار مجموعـــة من المقولات التي نسميها مفاهيم. ومن الضرورى التركيز علي ضرورة توضيح الحدود بين مجموعات المناشط الـــتى تصبح المفاهيم رموزا لها، وذلك بهدف إشاعة نوع من الوضوح النظرى[٩].

ب- تأســيس القضـــية النظرية: في أعقاب فراغنا من صياغة المفهوم فإننا نعمـــل علي خلق الصلة بينه وبين مفاهيم اخرى في اطار قضية حتمية. فـــإذا استطعنا تحديد مفهوم كمفهوم الانتحار – كما حدده دوركيم- فإننا نجد أن الانتحار- كمفهوم- يتصل بالضغوط الاجتماعية- كمفهوم آخر- الـــتى يـــتعرض لهـــا المنـــتحر. في إطار ذلك فإن ما نعنيه بالضغوط الاجتماعـــية كمفهوم يصبح ذا أهمية قصوى في عملية التأسيس النظرى، ما دام التعرف عليها يمكن أن يصبح أساسا لنظريات عن الشخص الذي يمـــيل إلـــي الانـــتحار، ومن ثم فسوف نطرح أهمية ملاحظة الضغوط الاجتماعـــية التي تقع علي البشر ويكون من نتائجها- برغم الصعوبات الكثـــيرة التي تتعلق بملاحظة ذلك- تأسيس قضية تجريبية تتعلق بالعلاقة بين مفهوم الانتحار ومفهوم الضغوط الاجتماعية.

ج- إضافة قضايا نظرية، فإذا أضيفت العبارة – كما في المثال السابق- التي تـــتخذ شـــكل (أن الضغوط الاجتماعية تؤثر علي ميل بعض البشر نحو الانـــتحار). فإنـــنا نجد أنه وإن صاغ المنظر مفهوم الانتحار والضغوط الاجتماعية، فإنه يجد نفسه مضطرا إلي تحديد طبيعة هذه العلاقة. ونحن وإن كـــنا لم نلاحظ التأثير، إلا اننا أدركناه من خلال مؤشراته. ومن ثم فـــالمفهوم المعبر عن هذه العلاقة يعتبر أكثر تجريدا من مفهوم الإنتحار والضـــغوط الاجتماعـــية. وحيـــنما يبدأ مؤسس النظرية في العمل علي مســـتويات متباينة من التجريد، فإن عليه أيضا تأسيس العلاقة الكائنة بين هـــذه المستويات، وعادة ما تشكل الأخيرة البناء المنطقى الذي يتكون من مجموعة العلاقات التي تضم هذه المستويات بعضها مع البعض.

نــتاجا لذلــك تتأسس لدينا نظرية ذات قضايا ومفاهيم بعضها تمت ملاحظــته امبيريقيا وبعضها له طابعه النظرى التحليلي. ومن المثال السابق إذا قلنا إن مفهوم الانتحار والضغوط الاجتماعية مفاهيم ذات طابع امبيريقي، فــإن مفهوم التأثير influence يشكل المفهوم النظرى في هذا المثال. وهو يصــاغ بطريقة تجعل منه متغيرا Variable إذا أعملناه في حالات واقعية فــإن مــدى تأثــيره يــبدأ مــن صفر وحتى أقصى مستوى، وحينئذ يكون باستطاعتنا أن نشتق الفرض القائل، أنه كلما كان تأثير الضغوط الاجتماعية هائلا ازداد الميل إلي الانتحار عنه لو كانت الضغوط الاجتماعية في مستوى الصــفر، إذ يفــترض حدوث التأثير من خلال الضغوط الاجتماعية كوسيط لذلــك. بــيد أن هذا لا يمنع من تدخل متغيرات أخرى في أحداث الانتحار، ومــن ثم يمكن تضمينها في قضايا مثلما حدث في القضية السابقة، بحيث أنه كلمــا زادت قضــايا النظرية والمتغيرات التي تضمها زادت النظرية تعقيدا واكــتمالا. ولتحقيق ذلك فإن علي مؤسس النظرية أن يتنبه بشكل محدد إلي نمــاذج وأنــواع المصــطلحات، وإلي وضوح الشكل المنطقى، وأيضا إلي تفاصــيل التعريف ودقته، وقبل كل شئ فإن علي مؤسس النظرية أن يكون مستقيم التفكير وان يكون يقظاً في استخدام تكنيكاته(١٠).

٢- تنظيم القضايا Codification:

بيــنما يــتركز جهد التأسيس النظرى حول تحديد طبيعة المفهوم، ثم العلاقة بين المفاهيم حتى تأسيس القضية النظرية. فإن تأسيس النظرية يحتاج بالإضــافة إلــي ذلك تنظيم مجموعة القضايا التى تم التوصل إليها في إطار شــكل مــنطقى منــتظم ونســقي، وهــي العملية التي يطلق عليها التنظيم Codification. والتنظــيم كما يعرفه روبرت ميرتون هو الترتيب المنتظم والمحكــم للــتجربة المــنظمة والمثمرة التي يتم إنجازها بواسطة إجراءات البحث، كذلك والنتائج العينية التي تنتج عن الاستفادة من هذه الإجراءات(١١). وعلــي هــذا النحو يهدف التنظيم إلي تنسيق to systematize التعميمات الامبيريقية المنفصلة، التي تقع في إطار مجالات متميزة أو منفصلة للسلوك،

أو تشير إليها. وبذلك نجد أن التنظيم من المحاولة الإرادية لتأسيس الفروض المؤقتة ذات الدلالة والتي تبشر بتوسيع نطاق النظرية القائمة. بالإضافة إلي ذلك فإن الصياغة النظرية من خلا التنظيم توضح عادة القضايا النظرية التي يمكـــن إغفالهـــا بيـــنما تـــبقى علي القضايا الأخرى التى تصمد أمام البحث الأمبيريقـــي، ومـــن المســـلم بـــه أن التنظيم كاجراء منهجى يكمل الاشتقاق الصورى للفروض التى ينبغي أختبارها، بحيث ييسر ذلك السعى الحثيث إلي تأسيس النظرية الإجتماعية الفعالة والبحث الامبيريقي الملائم لها[١٢].

وكاجـــراء مـــنهجى فإنـــه لتأسيس النظرية لابد من وجود تعميمات امبيريقية متعددة، وفرها البحث الامبيريقي الموجه نظريا في مختلف مجالات الواقـــع الاجتماعـــي. بالاضافة إلي التراكم الذي يتحقق من خلال توافر هذه التعميمات ونموها. وعلي عكس التأسيس النظرى فإن التنظيم يقتصر أعماله علـــي مســـتوى الـــنظرية الضـــيقة أوالمتوسطة المدى وذلك بهدف تأسيس النظريات الشاملة. وتعتبر محاولة تالكوت بارسونز من المحاولات الجادة في تـــاريخ علم الاجتماع لتأسيس النظرية من خلال تنظيم التعميمات الأمبيريقية فـــي إطار بناء نظرى، حيث نجده يذهب إلي القول في اكثر من موضع إلي أن كـــم التعمـــيمات التـــي توفر يحتاج إلي إعادة نظر وتنقيح بما يمكن من صـــياغة نظـــرية عن توازن النسق الاجتماعي، من خلال تنظيم التعميمات الامبيريقـــية التـــي توافرت في إطار علم النفس والاجتماع والانثربولوجيا. بالإضافة إلي ذلك نجده يؤكد أن كم المعرفة الامبيريقية الذي توافر حتى الأن فـــيما يتعلق بواقعة التغير الاجتماعي يتيح لنا أن نبدأ في صياغة نظرية عن التغير الاجتماعي[١٣].

يضـــاف إلي ذلك أنه إذا كان التأسيس الافتراضي للنظرية يتم عادة علـــي مستوى المفاهيم الأساسية والتعميمات أو القضايا الامبيريقية كوحدات أساســـية فـــي بـــناء الـــنظرية. فإن التنظيم علي العكس من ذلك يتخذ من التعمـــيمات أو القضايا الامبيريقية والنظرية وحدات أساسية في بناء النظرية الاجتماعية، الأعلى مستوي من حيث إمكاناتها التحليلية من المستوى السابق،

والأكثر شمولا لأنها في الحقيقة ليست سوى إعادة صياغة لمجموعة من النظريات الخاصة، في إطار نظرى شامل.

٣- الاشتقاق Derivation:

بينما تتصل عمليات التأسيس الافتراضي والتنظيم بصياغة بناء النظرية في مستوياته المتباينة، فإن الاشتقاق - كعملية تتبع في بناء النظرية الاجتماعية - يهتم أساساً بتأكيد كفاءة النظرية عن طريق إعادة تعريض قضايا النظرية في شكل فروض جديدة تحتاج إلي الصدق والإثبات الامبيريقى. وبذلك تتأكد الصلة التي ينبغي أن تكون بين النظرية والبحث الامبيريقي، وتؤكد استمرار كفاءة النظرية، عن طريق الإعادة المستمرة لاختبار الفروض المشتقة من بنائها الأساسي. وإلي جانب أن الاشتقاق قد يعني محاولة تحديد طبيعة وخصائص بعض البيانات بالنظر إلي بعض الفروض المشتقة من بناء النظرية بشأنها، فإنه يساعد أيضا في التحقق من سلامة التفسيرات البعدية التى قد تطرح في أعقاب اكتشاف أية معطيات أساسية تتعلق بمفاهيم معينة، أو بالعلاقات بين هذه المفاهيم. هذا وقد كان للاشتقاق الصوري علي هذا النحو فوائد كثيرة في كل من علمي النفس والاقتصاد، فقد أدى في أحدهما إلي إجراء سلسلة من التجارب المتتابعة، وأدى في الآخر إلي مجموعة من البحوث التفصيلية. هذا ويساعد الاشتقاق بشكل عام علي تمهيد الطريق نحو البحث المتراكم والمترابط بدلا من الكم الهائل من البحوث المتناثرة التى لا رابط بينها[١٤].

وبالنظر إلي هذه العمليات ذات الأهمية بالنسبة لبناء النظرية، فإننا نجد أن عمليتي التأسيس والتنظيم تتجهان من أسفل إلي أعلي، بحيث تسبق أولاهما الثانية، أي من مستوى المعطيات الامبيريقية إلي مستوى المبادئ والتوجيهات النظرية العامة فهى تتجه مما هو ملموس وواقعى إلي ما هو تركيبي وأكثر تجريدا. علي خلاف ذلك نجد أن عملية الاشتقاق تتخذ اتجاها عسكيا، من البناء النظرى إلي المعطيات الامبيريقية من خلال اشتقاق الفروض من بناء النظرية ثم إعادة اختبارها امبيريقيا، هذا بالإضافة إلي قطع

الطريق في مواجهة أية كيانات نظرية زائفة كالتفسيرات البعدية، أو تلك التي تظل علي مستوى التوجيات النظرية العامة.

٤- الإبداع Creation

بـــرغم أهمـــية هذه العملية لاستكمال بناء النظرية الاجتماعية فإنها تعتـــبر أقل العمليات من حيث مستوى التقنين، فليس يكفي أن تصوغ مفهوما يشـــير إلـــي مجموعة من المعطيات الواقعية المتماثلة، أو تأسيس قضية عن طـــريق صياغة علاقة اطرادية بين مفهومين، أو ضم هذه القضايا من خلال عملـــية التنظيم في إطار بناء نجاهد أن يكون متسقا ومنطقيا، إذ أنه لو كان الأمـــر علـــي هذا النحو في بناء النظريات العلمية لوجدنا كما من النظريات يقـــارب تقريبا كم المتخصصين في أي علم من العلوم. يؤكد ذلك ما يذهب إلـــيه ايرنســـت ناجل من أن النظريات إلي جانب أنها جهد عقلي منظم فهي تعتبر (ابداعات حرة) للعقل(١٥). بل أننا نجد باحثا مثل جوهان جالتونج يذهب إلـــي القول بأن توفر التراث العلمي في شكل معطيات أو تعميمات امبيريقية لـــيس كافيا لقيام النظرية "إذ تعتبر النظرية هي الوحدة المعرفية الوحيدة في نســـق التفكـــير العلمـــي التي لا تخضع في صياغتها للتنظيم. ذلك لأن بناء النظرية يعد إنجازا خلاقا، ومن هنا فإن الأمر لا يدعو للدهشة حين نجد نفرا قلـــيلا من المشتغلين في ميدان علمي معين هم القادرون علي القيام بمثل هذا العمل. حيث نجد لديهم القدرة علي القفز فوق الأدلة المنطقية، وأحساس خفى متصـــل بالجهد الخلاق، فصياغة النظرية تشبه – إلي حد كبير – إنجاز العلم الفنـــي. ومـــن هـــنا كانت منهجية النظرية وصياغة النظرية متخلفة بالنسبة لمنهجـــية الفروض وصياغتها. وأنه يبدو أن نوعى الفلاسفة والعلماء اللذين يعملان علي هذين المستويين مختلفين كيفيا(١٦).

ثانياً: إستراتيجيات بناء النظرية الاجتماعية

شـــكل بـــناء النظرية الاجتماعية والمنهج الذي ينبغي اتباعه في هذا الصـــدد موقفا خلافياً في إطار النظرية العامة للعلم. ودون الحاجة إلي التتبع التاريخـــي لهذا الخلاف الذي بدأ باغتراب الأنساق النظرية التأملية ووظيفتها

الأساسية فيما يتعلق بالواقع الذي عايشته- وهو الاغتراب الذي ظهرت النزعة الامبيريقية كرد فعل له، يهدف إلي رفض كل ما تعنيه هذه الأنساق النظرية التأملية أو ينتج عنها- ثم تكرر الخلاف فيما يتعلق باستراتيجيات بناء النظريات العاملية التى زخرت بها المرحلة الكلاسيكية من تاريخ النظرية الاجتماعية. في هذا الإطار سوف نكتفى بتحديد طبيعة الاستراتيجيات المعاصرة لبناء النظرية الاجتماعية. ومن الضرورى أن نوضح في هذا الصدد أن تباين استراتيجيات بناء النظرية الاجتماعية يرجع إلي ثلاثة عوامل أساسية. أولها يتمثل في المرحلة التاريخية التى يمر بها العلم، ثم حالة وقدر التراكم المعرفي الذي تحقق، وثانيهما إكتمال التفاعل ووضوحه بين مختلف الابنية النظرية بمستوياتها المتباينة، وبين معطيات الواقع ومتغيراته وفقا لمحكات تؤكد مضوعية هذا التفاعل. وثالثهما، طبيعة النظرة المثلي لنقطة البداية التي ينبغي أن ننطلق منها لتأسيس النظرية ثم منطق إدراك متغيرات الواقع وتفاعلاته.

وإذا كان تاريخ النظرية السوسيولوجية قد شهد تبلور ثلاثة استراتيجيات لبناء النظرية، هي (استراتيجية بناء الأنساق النظرية المغلقة) و(استراتيجية بناء النظريات العامة أو الشاملة) و(استراتيجية بناء النظريات الخاصة أو المتوسطة المدى)، فإن ذلك لا يعنى الانفصال التام بين هذه الاستراتيجيات الاساسية، فهناك الكثير من نقاط الالتقاء المشتركة، بالإضافة إلي ذلك يوجد التقاء حول عدد من الخطوات أو الممارسات التكنيكية ومن ثم فتميزها علي هذا النحو الفاصل يحمل قدرا كبيرا من الارادية والتعسف، وسوف نتحدث عن كل منها فيما يلي:

١- استراتيجية بناء الانساق النظرية المغلقة

سادت هذه الاستراتيجية المرحلة الأولى لنشأة النظرية الاجتماعية التي تضمنت أشكالا نظرية متعددة، يرجع بعضها إلي اشتقاقه من فرضيات الأنساق الفلسفية السابقة علي نشأة علم الاجتماع، ويرجع بعضها الآخر إلي محاولة نقل قضايا وممارسات علوم أخرى ومتقدمة إلي نطاق علم الاجتماع.

ومــن ثم فقد تميزت هذه الأنساق النظرية بمحاولتها تفسير النسق الاجتماعي بالــنظر إلـــي فرضيات من خارجه، واستخدمت معطيات النسق الاجتماعي الواقعي انتقائيا في إثباتها، وهناك شكلان أساسيان لهذه الأنساق النظرية:

١- الشـــكل الأول ويعرف بالأنساق النظرية التأملية، وهي عبارة عن أبنية افتراضـــية اشـــتقت اساسا من الاتجاهات الفلسفية التي عايشت نشأة علم الاجـــتماع، وتمثل المثالية والوضعية والنفعية نماذج فكرية لهذه الأنساق. ونظـــرا للتدريـــب الفلســـفي ولمحاولة فهم الواقع المعاش وتقديم تفسير عقلانـــي لتفاعله، حاول مفكروا هذه الاتجاهات إدراك الواقع بالنظر إلي مجموعة من المقولات الفلسفية التي تضفى علي الواقع هوية محددة. ولقد ظلـــت هذه الأنساق تستمد صدقها من معقوليتها المنطقية وليس من خلال الاختـــبار الامبيريقـــي لفرضياتها الفلسفية، فإذا أضطر المفكر نفسه إلي الاستعانة بمعطيات الواقع فإن ذلك غالبا ما كان يتم بشكل انتقائي. ونظراً لتباين "أصولها المعرفية". فإن جهدها العلمي لم يتجه إلي محاولة البحث عن الموضوعية من خلال تأسيس حوار بين متغيراتها المتباينة، ومحاولة اختـــبار فاعليـــتها بالـــنظر إلي معطيات الواقع. وإنما أتجه إلي ترسيخ تبايـــناتها عـــن طريق فرض تصورات نظرية مطلقة عن الواقع، وبذلك ظلـــت عـــند مستوى مجموعة من الافتراضات الفلسفية الاعتقادية التي تقـــترب إلـــي حـــد كبـــير من شكل التوجيهات النظرية العامة. غير أن الخاصـــية الرئيســـية لهذه المرحلة تتحدد في أنها كانت تمثل اختلافا عن الفلســـفة مـــن حيـــث كونها تعطى المعطيات الواقعية اعتبارا ولو بشكل انتقائـــي، ثـــم أنها كانت أقل تأملية وانفصالا عن الواقع مقارنة بالتفكير الاجتماعي السابق عليها. هذا بالإضافة إلي كونها خير شاهد علي تحول وانـــتقال تاريخـــي للفلسفة من مجموعة من الفرضيات الميتافيزيقية إلي بـــناءات نظرية ذات قضايا محددة إلي حد ما، وذات طبيعة اجتماعية في برهنتها.

٢- وتمـــثل الـــنظريات العاملية الشكل الثاني لاستراتيجية الأنساق النظرية المغلقة، حيث سادت هذه النظريات في الفترة التالية لنشأة علم الاجتماع. وقد شكل هذا النموذج التنظيري تيارا كاملا يحاول ان يعطي أهمية لأي من العوامل المتعددة في تحتيم الظواهر الاجتماعية، وقد اتجهت دائما في برهنتها إلي التأكيد علي الأهمية الشاملة لعامل ما جغرافيا، أم بيولوجيا، أم اقتصــاديا، أم ســيكلوجيا أم اجتماعيا. ونتيجة لذلك فقد أسهم التنظير العاملي في تخلف تأسيس النظرية العامة للأنساق الاجتماعية، وذلك عن طريق تركيزها الأساسي علي مجموعة من العوامل التي لا تنتسب بشكل محــدد للنســق الاجتماعــي، وخاصــة العامل البيئي أو البيولوجي أو الأقتصــادي علي ما يذهب تالكوت بارسونز(١٧). وبرغم إمكانية استفادة أي علــم من الفرضيات أو القضايا التي تحدث في نطاق علم آخر. فإن هــذه العوامل كلها درست وبحثت في إطار علوم أخرى، ونقلت رؤيتها إلــي نطاق علم الاجتماع. مثال ذلك التأكيد علي العامل الجغرافي، ونقله من علم الجغرافيا إلي علم الاجتماع، وهكذا بالنسبة للعامل الاقتصادى، أو البيولوجــي الوراثــي، أو السلالى. وقد دفع ذلك إلي التأكيد علي العامل الاجتماعي فقط- كما يذهب دوركيم- وسيطرته علي التفاعل الاجتماعي في مواجهة العوامل الأخرى، يتضح ذلك من مقولة دوركيم الشهيرة بأن المجتمع حقيقة مفسرة لذاتها(١٨). وإذا كانت النظريات العاملية قد تميزت بإسرافها في الإطلاقات الافتراضية علي غرار التفكير الفلسفي، وعزوفها عن تعريض قضاياها للتحقيق الامبيريقي، وهو الشرط الأساسى للاجازة العلمية لأي قضية نظرية، وإتجاها إلي البحث عن المعطيات – انتقائيا – الملائمة لتأكيد العامل الذي تعتبره مستقلا دائما وقادرا علي قيادة التفاعل الاجتماعي، فإنها، مع ذلك، قد أدت دورا هاما، يتمثل في جمع قدر كبير مــن المعطــيات المتعلقة بالعامل الذي ترى أولوية تأثيره وفاعليته. مما ساعد كثيرا في مرحلة تالية من مراحل النظرية الاجتماعية إلي أعادة هذا التوازن المهتز بشكل علمي عن طريق اعطاء مجموعة العوامل المتباينة

والمشكلة للواقع الاجتماعي أوزانها النسبية والملائمة في صياغة تفاعله.
ونظرا للتشابه الكبير بين البناءات النظرية لهذه المرحلة- الأنساق التأملية والنظريات العاملية- فإن لنا عليها المآخذ التالية:

أ - ظلت هذه الأنساق النظرية أبعد ما تكون عن أن تشكل معرفة تراكمية، حيث كان من النادر أن تستند تصورات أي اطار نظرى منفرد علي أفكار السابقين عليه. ومن ثم فلقد تأسست نمطيا كتصورات بديلة ومتنافسة وليس كتصورات تتحد وتستمر في نتاج تراكمي. ورغم أن أعمال رواد هذه المرحلة تشهد علي عبقرية بشر موهوبين، إلا أنها لم ترسي الأسس الملائمة للتحليل الاجتماعي السائد في علم الاجتماع اليوم، ومن ثم فرغم كونها قد شكلت انجازات عملاقة في عصرها، غير أن عصرها ليس عصرنا(١٩).

ب- أن هذه النظريات وخاصة النظريات العاملية أكدت علي عوامل مفسرة للتفاعل الاجتماعي من خارج النسق الاجتماعي- إذا إدركناه تحليليا- ومن ثم فقد مالت كلها إلي تفسير الظاهرة الاجتماعية بعوامل خارجة عنها، وليست من داخلها او متفاعلة تفاعلا جوهريا معها(٢٠).

جـ- أنه كان من المضار القاتلة للتنظير العاملي أن أنقسم ميدان علم الاجتماع إلي مجموعة من النظريات المتحاربة، حيث أمتلكت كل مدرسة تبريرا امبيريقيا قويا لموقفها، ولكنها في محاولتها تشكيل أنساق نظرية مغلقة تضمنت صعابا وصراعات مع التفسيرات الأخرى فيما يتعلق بذات الظواهر، ولقد واجهت هذه النظريات مأزقاً حينما دفع الكبرياء المهنى والمصالح المكتسبة إلي الدفاع عن نظرية معينة في مواجهة أخرى(٢١).

د - أنه كان من نتائج سيادة الأنساق التأملية أو النظريات العاملية أن ظهرت النزعة الامبيريقية المتطرفة، والتي تنكر بداءة أن باستطاعة النظرية أن تفعل كل شئ للعلم، بل ذهب مناصروا هذه النزعة إلي القول بأن النظرية لا تعدو أن تكون تأسيسا افتراضيا تأمليا يقود بعيدا عن احترام الحقائق،

ومــن ثــم فقــد اعــتقدوا أن تقدم العلم يمكن أن يتحقق فقط عن طريق المكتشفات غير الموجهة والمتناثرة للحقيقة(٢٢).

غــير أنــه في مرحلة تالية من مراحل النظرية الاجتماعية تطورت الــنظريات من كونها افتراضات تعبر عن وجهة نظر روادها إلي تأسيسات نظرية ينتمي إليها علماؤها. ولقد حدثت هذه الانتقالة عبر تاريخ طويل ألغيت في إطاره الارتباطات العضوية بين ذاتية الباحث أو المنظر من ناحية وبين البــناء النظري من ناحية أخرى، وتأسست في محلها رابطة موضوعية بين المنظر والبناء النظرى يستطيع من خلاله الباحث ان يساهم في بناء النظرية – ان سلبا أو ايجابا- عن طريق تعريض فرضياتها للبحث الامبيريقي، بحث انتفــت أي رابطــة اعتقادية بين المنظر والبناء النظري يستطيع من خلاله الباحث أن يساهم في بناء النظرية – ان سلبا أو ايجابا- عن طريق تعريض فرضــياتها للبحث الامبيريقي، بحيث انتفت أي رابطة اعتقادية بين المنظر والبــناء الــنظرى. بــيد أنــه وإن شهدت هذه المرحلة ايمانا بقدرة النظرية ودورها في البناء المعرفي للعلم، فإنه قد ظهر خلاف جديد حول طبيعة البناء الــنظري الملائــم للعلم الاجتماعي في هذه المرحلة. حيث برز موقف يؤكد علــي ضــرورة أن نتجه إلي بناء النظريات العامة والشاملة التى تجرد عن تراكم المعرفة الذي توفرت في مختلف فروع العلم الاجتماعي هي التي يجب ان نتجه لبنائها، ثم نتولي تطويرها من خلال علاقتها بالمعطيات الامبيريقية.

في مواجهة ذلك ظهر موقف آخر يذهب إلي أن التركيز علي تأسيس أطر نظرية شاملة، واشتقاق النظريات منها فيه مخاطرة أن تؤسس في القرن العشرين المعادلات السوسيولوجية للأنساق الفلسفية التي سادت في الماضي بكل ايحاءاتها المتنوعة، وبناءاتها الفخمة، وضحالتها العلمية(٢٣). ويطرح هذا الموقــف إمكانية تأسيس النظريات الخاصة نطاقات معينة من نطاقات الواقع الاجتماعــي. وإن كــان مردودا عليه بأن تأسيس النظريات الخاصة يحمل مخاطــرة تأســيس أبنــية نظرية لأغراض معينة، وتتسق فقط مع نطاقات محــدودة من الملاحظات وغير متسقة فيما بين بعضها والبعض الآخر دون

أن تضـــمها كلها رؤية شاملة. إستناداً إلي ذلك يمكن بلورة هذا الموقف من خلال استراتيجيتين أساسيتين لبناء النظرية السوسيولوجية الأولي استراتيجية بـــناء الـــنظرية الشـــاملة، والثانية استراتيجية بناء النظرية المتوسطة المدى ونعرض فيما يلي بإيجاز لكل منهما.

٢- استراتيجية بناء النظرية الشاملة:

يعتـــبر تـــالكوت بارسونز خير من تبني هذه الاستراتيجية في بناء النظرية الاجتماعية، حيث ينادى في هذا الصدد بضرورة الاتجاه مباشرة إلي تأسيس النظرية الشاملة، بحيث يستند هذا التأسيس الشامل إلي ثلاثة أعتبارات أساسية:

١- أنه بالنظر إلي أن وحدة التحليل الأساسية لديه هي بناء الفعل الاجتماعي كنســق اجتماعي، ولما كان بناء الفعل يحتوى علي كل عناصر الوجود الاجتماعـــي الشامل فإنه كان منطقيا أن تكون النظرية عنده شاملة متخذة مـــن مفهـــوم النسق البنائي الوظيفي اطارا منطقيا لتنظيم المعطيات التى يحويها الواقع الاجتماعي وأداة مفسرة لظواهره(٢٤).

٢- أنـــه اعتبر إن الإطار الأساسي لنظرية الفعل الاجتماعي تستند إلي ثلاثة مرتكـــزات أساسية هي. نسق الثقافة الذي قدمت الانثروبولوجيا اسهامات واضـــحة فـــي إطاره. ونسق الشخصية الذي قدم علم النفس بقيادة فرويد فهمـــا لعملياتها الأساسية وبنائها الدافعي. والنسق الاجتماعي الذي طور دوركـــيم ومـــاكس فيـــبر تصـــورا لعناصره الرئيسية وعلاقاته وبنائه المعياري(٢٥).

٣- أن هـــذه النظرية بتأسيسه لها تعتبر من وجهة نظر بارسونز دليلا علي نضـــج العلـــم، لأنها علي هذا النحو تشكل إطار تصورى يحدد المسلك المـــنهجى للباحـــث في تناوله لمعطياته. وفى بنائه لنظريته قام بارسونز بتجريد تعميماته عن قضايا توصلت إليها العلوم الثلاثة من خلال دراستها لمتغـــيرات الواقـــع موضـــع الاهـــتمام، ولذلك فالنظرية لديه ذات طابع تجـــريدي شـــامل. ولعـــل هذه الطبيعية هي التي جعلت عالما مثل جان

وايـــتكر يذهـــب إلي القول بإنعدام أية اشارات أو اسنادات امبيريقية في عمله[٢٦]، وأنه قد اتخذ من أعمال دوركيم وماكس فيبر ومارشال وباريتو معطيات وبرهانا ودعما أمبيريقيا لنظريته[٢٧].

ولتحديد أسلوب بارسونز في تأسيس النظرية الشاملة نجده يؤكد علي المنطق التدريجي في تأسيسها، فهي لا تتأسس لديه دفعة واحدة. يتضح ذلك مـــن قولـــه أنه وإن كانت توجد بعض المتضمنات النظرية هذه، إلا أنها قد تكـــون مبعثرة بعضها عن البعض. كما توجد القضايا الامبيريقية ذات صلة مباشـــرة بدرجة عامة بالحقائق إلا أنها غير واضحة. غير انه بسبب تطوير التحليل الاجتماعي العام، وبسبب التراكم المباشر للأدلة الامبيريقية المتصلة بـــه، فإن هذه المتضمنات النظرية سوف تقترب بعضها من البعض، وتصبح ملامحهـــا أكثر وضوحا وتحديدا، بحيث تيسر الاستعانة بها في اقترابنا من الحقيقة.

ويذكر تالكوت بارسونز أن تأسيس النظرية الشاملة مسألة درجة بهذا المعني. حيث أنه عن طريق ارتباط مجموعات النظريات المتوسطة المدى، وهي الطراز الذي يفضله ميرتون. فإن تشابكها واتصال متضمناتها المتبادلة ســـوف يؤدي إلي اندماجها في كيان للمعرفة أكثر اتساقا وعمومية. وعندما تـــتكامل هـــذه النظريات في النهاية، تتخلق الحالة المثالية حيث تشتق معظم الفـــروض الإجرائـــية والحقيقية للبحث الامبيريقي من النسق النظرى العام. وفي اعتقاد تالكوت بارسونز أن هذه الحالة لم تتحقق إلا بالنسبة لعلم الطبيعة. ومع أننا لم نصبح بعد قريبين من مثل هذه الحالة، إلا إن هذا لا يعني أن أية خطـــوات في هذا الاتجاه لا قيمة لها، بل علي العكس، فإن أية خطوة حقيقية فـــي هـــذا الاتجاه تعتبر تقدما. فعند نقطة النهاية سوف تتحول هذه النظرية المتوســـطة المـــدى إلـــي نســـق نظـــرى شامل[٨٢]. ورغم أهتمام بارسونز بالـــنظريات الشاملة فإننا نجده في أكثر من موضع يصرح أن ذلك لا يعني استخفافا بأهمية النظريات الخاصة، أو بمعنى آخر، بالنماذج الأكثر تواضُعا للعمـــل الـــنظرى. وعلي العكس من ذلك، يؤكد أنه عند هذا المستوى سوف

تتأسس المواضع المتنامية للنظرية الشاملة من خلال التفاعل المباشر والفعال بين هذه النظريات الخاصة من ناحية وبين البحث الامبيريقي من ناحية أخرى[٢٩].

ومن الواضح ان بارسونز في تأسيسه للنظرية يتخذ من النظريات الخاصة طريقا لذلك وهو ما قد فعله منه خلال تنقيحه لقضايا الأنثروبولوجيا وعلم النفس والاجتماع بهدف صياغة بنائه النظرى عن الفعل الاجتماعى. وإذا كانت العمليات الأساسية لبناء النظرية العلمية تتمثل في عمليتي التأسيس الافتراضي – أي إذا كان الاتجاه من أسفل إلي أعلي-، أي من التعميمات الامبيريقية إلي صياغة التوجيهات النظرية العامة. ثم التنظيم والاشتقاق- إذا كنا نتجه من أعلي إلي أسفل- فإننا نلاحظ أن تالكوت بارسونز استند كثيرا إلي العلمية الثانية دون الأولي متخذا من قضايا النظريات الخاصة للعلوم الثلاثة معطيات تركيبية لتأسيس نظريته الشاملة(*)، أو ينتقى بعض قضاياها التي يمكن أن تتكامل لتشكل بناء النظرية العامة أو الشاملة.

٣- استراتيجية بناء النظرية المتوسطة المدى

إذا كان تالكوت بارسونز قد أكد علي ضرورة تأسيس النظرية الشاملة التي تتضمن عددا من النظريات الخاصة التي تشتق منها والتي تتناول نطاقات جانبية من خلال اتصالها بعمليات البحث الامبيريقي، فإننا

(*) ليست البارسونزية هي النظرية الشاملة فقط في علم الاجتماع وإنما تعتبر الماركسية في بنائها المنهجي نظرية من هذا الطراز أيضا، ذلك لأنها تبدأ من التوجيهات النظرية العامة فيما يتعلق بطبيعة تشكل الحقيقة الواقعية والقوانين التي تعمل وفقا لها. ثم تتدرج من ذلك إلي تأسيس بعض النظريات الخاصة التي تحتوي علي بعض القضايا الامبيريقية المشتقة اصلا من هذا الاطار النظرى العام للنظرية الماركسية، مثل نظرية الطبقة والصراع والتغير الاجتماعي، وطبيعة ترتيب العناصر البنائية وتفاعلها بعضها مع البعض. ومن ثم فما يصدق علي البارسونزية من حيث كونها نظرية شاملة في شكلها المنهجي واستراتيجية بنائها يصدق علي الماركسية أيضا. وعلي نظريات كل من دوركيم وماكس فيبر كذلك.

نجد ان روبرت ميرتون يرى ضرورة تأسيس النظريات الخاصة أولا انطلاقا إلي النظرية العامة للعلم. ومن هنا فالمعتقد أنه ليس هناك خلاف بينهما حول أهمية النظرية العامة الشاملة أو النظرية الخاصة والمتوسطة المدى بالنسبة للعلم، وإنما يتركز الخلاف أساسا حول أي منهما التي ينبغي ان تشكل نقطة البدء الأساسية. ولعل الخلاف بين هاتين الاستراتيجيتين يرجع إلي خلاف في المنطلقات الأساسية لكل منهما، فبينما كان الأول نتاجا للتنظير الأوربي الشامل، فإن الثاني كان تحديا للفكر الأمريكي في علم الاجتماع الذي استغرق إما في ممارسات امبيريقية فجه لم تستطع أن توفر قضايا نظرية ذات قيمة. وأن طورت أدوات منهجية غاية في الدقة أو في تنظير شامل يهدد بإرجاعنا من جديد إلي الأنساق الفلسفية. ومن ثم فإذا كان الأول قد إتجه إلي اختبار الفرضيات النظرية التي قد يؤسسها في ضوء معطيات الواقع، فإن الثاني ركز أساسا علي صياغة مجموعة من التعميمات الامبيريقية المتوافرة التي قد تيسر ذلك. أما السبب الثاني لاختلافهما الاستراتيجي فيرجع إلي طبيعة الالتزام النظرى لكل منهما تجاه النسق الواقعي. فبينما نجد أن بارسونز لديه التزام كامل بكلية النسق، أعني ضرورة افتراض أن كلية النسق تشكل تكوينا تصوريا قبل إجراء أي بحث او تحليل للأنماط المحددة(٣٠)، فإننا نجد أن ميرتون ألتزم بجزئية النسق كمدخل لتحليله، وليست كليته، وأن تباين الالتزام بين الكل والجزء أدي إلي تباين الالتزام بمستوى النظرية ومنطق بنائها، إذ يتقابل تأكيد بارسونز علي النظرية الشاملة مع تأكيد ميرتون علي النظرية المتوسطة المدى، ومن ثم نجده يتبني مدخلا أكثر امبيريقية إلي حد كبير(٣١).

وتبدأ استراتيجية ميرتون بنقده للنظريات الشاملة بتأكيده أننا نلاحظ في الآونة الأخيرة ميلا نحو تأسيس النظرية الشاملة التي يجد فيها الباحث كل شئ معدا. مثل هذا الاتجاه إلي هذا التأسيس الشامل سوف يواجه نفس التحدى، ونفس المصير التي انتهت إليه الانساق الفلسفية الشاملة لكل شئ، والتي سقطت الآن في نوع من الأهمال الذي تستحقه. أن القول بذلك اعتبره

غريباً وغير ناضج. فنحن لسنا علي استعداد، فالعمل الممهد لذلك لم ينجز بعد[٣٢]. ثم يذهب إلي أن ثمة عوامل أربعة دفعت إلي هذا الاتجاه الخاطئ.

١- أدى نجـاح العلـوم الطبيعية وضخامة الانجازات التي حققتها إلى دفع الكثيرين نحو مقارنة علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الطبيعية. ومن ثم الوصـول إلـي نتـيجة خاطـئة تتمثل في أنه من الضروري أن تكون إنجازاتهـا مـثل إنجـازات هذه العلوم، وأيضا أن يكون لعلم الاجتماع نظريـته الشاملة مثل ما للعلم الطبيعي. ثم يؤكد أن السبب في ذلك يرجع إلـي تجـاهل التاريخ الطويل من المعاناة والبحث الذي مرت به العلوم الطبيعـية، وذلك لمجرد أن علماء الاجتماع وجدوا انفسهم يعيشون ذات اللحظة التاريخية التي تعيشها العلوم الطبيعية[٣٣].

٢- أنـه نظـرا لضـآلة المعطـيات التي لدى علماء الاجتماع في مواجهة المطالب الملقاة علي عاتقهم من قبل رجال السياسة، والمصلحين ورجال الأعمال، فقد دفع ذلك علماء الاجتماع إلي نوع من الاعتقاد والحماسة في أنهـم بطـريقة ما ينبغي أن يكونوا قادرين علي مواجهة هذه المتطلبات مهمـا كانـت فجـة أو غير ناضجة[٣٤]. ومن ثم فقد اعتقدوا أن تأسيس النظرية الشاملة يمكن ان يكون وسيلة جوهرية لتحقيق ذلك.

٣- أعتقد علماء الاجتماع – خطأ – إن الكفاءة تعنى القدرة علي مواجهة كل المطالـب، ذلـك أنه يحدث في المراحل المبكرة للعلم المبتدئ أن يسعى رواده بنفس الأسلوب وراء مطالب فجة مثل طلبهم ان تكون لديهم أنساق نظرية كلية شاملة مناسبة لأي نوع من المشاكل أو القضايا التي تدخل في نطاق هذا العلم[٣٥].

٤- أن الأزمـة الاقتصادية التي ظهرت في الولايات المتحدة في الثلاثينيات أثبتـت بما لا يدع مجالا للشك أن الاتجاه الامبيريقي الذي شكل الطبيعة الأساسـية لعلـم الاجـتماع الامريكي حتى حينئذ، فشل في مواجهة هذه الأزمة، ومن ثم يعتبر التنظير والاغراق في طلب النظريات الشاملة رد

فعل حادا لهذه الأزمة لكونه يشكل بحثا عن إطار نظري يجنب المجتمع الأمريكي وقوعها ثانية[٣٦].

وتـــتحدد استراتيجية ميرتون في بناء النظريات المتوسطة المدى من خــلال تعريفه لمصطلح النظرية الاجتماعية الذي يشير من وجهة نظره إلي التصـــورات المـــترابطة منطقيا، تلك التصورات المحدودة والمتواضعة في نطاقهـــا، وليســت تلك الشاملة والمتضمنة لكل شئ[٣٧]. فهو يؤكد أن هناك معضـــلة أساسية تواجه علم الاجتماع الآن وينبغي التصدى لها، وهي الهوة التـــي تحدث الآن داخل العلم بين النظرية ومعطيات الواقع، إذ تكون الأفكار أكـــثر نموا وتطورا في سرعتها عن قدرة البحث الامبيريقي اللازم لاختبار هذه الأفكار في الغالب أو توضيحها[٣٨]. فالمشكلة عند ميرتون تتمثل أذن في قيام نظرية لابد أن تكون ذات صلة بالأبحاث الامبيريقية التي تدعمها[٣٩]. ثم يطـــرح مـــيرتون صيغة النظرية المتوسطة المدى لكي يعبر بها الفجوة بين التنظير الشامل من ناحية والنزعة الامبيريقية من ناحية أخرى[٤٠]. وهو يؤكد أن الأنســـاق الشـــاملة ينبغي أن تفسح الطريق للنظريات المتوسطة المدى، والأقـــل مهابة وجلالا، ولكنها الأكثر ثراء من حيث الأسس والمرتكزات. ثم يذهب إلي القول بأننا لا نتوقع من أي فرد أن يخلق نسقا أو مخططا لنظرية تقـــدم حلـــولا لكافـــة القضـــايا الاجتماعـــية والسوسيولوجية، فالعلم، والعلم الاجتماعى ليس بهذه البساطة[٤١]. ثم يؤكد أنه قد يبدو معقولاً ان نفترض أن علـــم الاجتماع سوف يتقدم إلي الدرجة التي سوف ينصب اهتمامه الرئيسي عـــندها علي تطوير نظريات ذات نطاق متوسط، وأنه سوف يحبط إذا ركز انتباهه علي بناء النظرية من النوع الشامل[٤٢].

لكـــن ما هي طبيعة النظرية المتوسطة المدى؟ يقدم ميرتون الإجابة علي ذلك بقوله أن وظيفتنا الرئيسية اليوم هي تطوير نظريات خاصة ملائمة لـــنطاقات محـــدودة من المعطيات، علي سبيل المثال نظريات عن ديناميات الطبقة، عن ضغوط الجماعات المتصارعة، عن القوة وممارسة التأثير، بدلا مـــن البحـــث منذ البداية عن بناء تصورى (متكامل) ملائم لاشتقاق كل هذه

وغيرها من النظريات[٤٣]. ويعنى ذلك تأكيد ميرتون علي ضرورة الاقتصار في هذه المرحلة علي بناء النظريات التي تغطى جوانب من البناء الاجتماعي أو تتناول بعض متغيراته، غير أن ذلك لا يعني إغفاله للنظرية العامة وعدم الاهتمام بها. وأن ما يراه هو أن تكون الاولي طريقا لتأسيس الثانية، إذ يؤكد أنـــه مـــن خـــلال تأسيس النظريات الخاصة الملائمة لنطاقات محدودة من المعطيات الاجتماعية، يمكن تطوير إطار تصورى أكثر عمومية وقدرة علي ضم هذه المجموعة من النظريات الخاصة في إطار نظرى شامل. وإذا كانت عملـــية التأسيس الافتراضى والتنظيم قد أدت دورا محوريا في بناء النظرية عـــند بارســـونز. فإن ميرتون يستند في بنائه النظرى إلي عمليتي التأسيس والاشـــتقاق، حيـــث تتأســـس القضايا عن علاقات الواقع ومعطياته. ثم يعاد توجـــيهها نحو قيادة البحث الامبيريقي في نطاق مجالات خاصة بالنظر إلي كونها فروضا اشتقت من قضايا جردت عن ذات الواقع أو واقع مماثل.

وجهـــة نظـــرنا في هذا الصدد تتمثل في أنه وإن كنا نوافق روبرت ميرتون علي أن الاتجاه إلي بناء النظريات الشاملة فيه تهديد الاستغراق في ممارسات تأملية بعيدا عن معطيات الواقع المتفاعلة. إلا أننا نختلف معه في ضـــرورة أن نعمل علي تأسيس التصورات الشاملة من خلال الالتزام بكلية النســـق، وإن كـــنا نفرض استناد هذه الكلية إلي التوازن البارسونزى. وفيما يـــتعلق بموقـــف مـــيرتون فقـــد نتفق معه علي ضرورة ان تكون القضية الامبيريقية هي التعميم الرئيسي لصياغة البناء النظرى، بيد أننا نختلف معه فـــي أن الأســـتغراق في تطوير قضايا امبيريقية يتعلق بنطاقات خاصة من الواقع الاجتماعي فيه تهديد أن نفقد البعد النسقى الشامل، وهو بعد أساسي في تحلـــيل أيـــة واقعـــة جزئية بدونه يفتقد علم الاجتماع القدرة علي تقديم فهم مجتمعي للعمليات الأساسية ومتتالياتها الجزئية، والوقوف عند مستوى الفهم الاجتماعي الذي يقتصر علي رؤية الواقعة من داخلها. دونما قدرة علي رؤية أبعادهـــا الخارجية ذات التأثير الأكبر، هذا بالإضافة إلي أنه يغفل التعميمات

النظرية التى توفرت لعلم الاجتماع حتى الآن في هذا الإطار فإننا نشير إلي ثلاثة اعتبارات أساسية.

١- ويشـــير الاعتبار الأولي إلي الحاجة إلي نظرية شاملة تتبنى رؤية شاملة ونســقية للواقــع مع الأخذ في الاعتبار عدم استناد هذه النسقية لأي من العمليات الأساسية التوازن أو الصراع بشكل مطلق.

٢-كما يؤكد الاعتبار الثاني علي ضرورة أن يستند بناء هذه النظرية الشاملة مــن خــلال ما وفرته النظريات العامة في علم الاجتماع من تصورات شاملة، ومن قضايا امبيريقية تصلح- عند إعادة تحليلها- أساسا لاختبار فاعلية التعميمات النظرية العامة لهذه التصورات الشاملة.

٣- كمــا يشير الاعتبار الثالث إلي أننا في حاجة الآن إلي الصياغة النظرية في علم الاجتماع بمعني formalization ذلك أنه قد أنفق جهد كبير في عملــية تأسيس النظرية، سواء علي المستوى المتوسط المدى أو الشامل. مــا نحــتاجه الآن هــو إعادة صياغة النظريات القائمة لتحديد القضايا المتماثلة- التي تتعلق بموضوع محدد- في مختلف النظريات القائمة تلك التـــي ثبت صدقها عند تعريضها للفحص والاختبار الامبيريقي. كصياغة نظــريات عــن الفعــل الاجتماعي، عن النظام الاجتماعي، عن التغير الاجتماعــي، عن النسق الاجتماعي ومكوناته الأساسية أو عن تفاعلاته الدينامية. وذلك من خلال الفحص المنطقى والامبيريقي للتعميمات القائمة الآن في علم الاجتماع، بهدف تأسيس نظرية شاملة، تمتلك الرؤية الشاملة دون الاستغراق التفصيلي، وتمتلك الصدق الامبيريقي والاتصال بالواقع، وهي خاصية لم تتوافر للأنساق الفلسفية الشاملة.

ثالثاً: نظريات المرحلة الكلاسيكية، البحث عن إطار تحليلي

تدخــل دراســة الــنظرية الاجتماعية في إطار أدبيات علم اجتماع المعــرفة، وفــي بعض جوانبها داخل نطاق فلسفة المعرفة. ويختلف تناول النظرية الاجتماعية بالتحليل والبحث والدراسة عن تناول أي موضوع آخر، لأنه تحليل ودراسة للأفكار ذاتها، بل وأكثر نماذج الأفكار تجريداً. وقد بذلك

محـــاولات كثـــيرة فـــي هـــذا الصدد، غير أن الكثير منها صدر عن غير المتخصصـــين، الأمـــر الذي أسهم في النهاية في تعقيد الأمور. أحيانا كان العـــرض بسيطا ومبسطا حتى أصبح مخلاً، وأحيانا أخرى كان أكثر تعقيداً حـــتى أصـــبح دلالة علي عدم الفهم. الأمر الذي أصبح من الضروري معه مواجهة هذه الظاهرة، خوفاً من تشويه تصور العقل العربي لمعنى النظرية، ونطـــاق العلم فيها، وآفاق الأسهام المحتملة. من هنا فقد أصبح من المفيد أن نعرض لاطارنا المقترح لتحليل النظرية الاجتماعية، غير أننا قبل أن نعرض لذلـــك نـــرى ضـــرورة طـــرح عدد من الأطر التحليلية التي تبناها بعض المشتغلون بالنظرية الاجتماعية.

ويعتـــبر تحلـــيل النظرية بالنظر إلي السياق الاجتماعي لمحاولة فهم قضاياها من المحاولات الأولي لفهم النظرية الاجتماعية، ويعتبر هارى المر بـــيرنز Barnes في مؤلفه "الفكر الاجتماعى من البدعة إلي العلم" Social Thought From Lore to Science مـــن المحـــاولات الأولـــي في هذا الصـــدد، يضاف إليها محاولة هانز موس Hans Mauss في مؤلفه "تاريخ الفكـــر الاجتماعي" History of Social Thought. ويحاول هذا الأسلوب في التحليل تحليل النظريات الاجتماعية بالنظر إلي السياقات الاجتماعية التى ظهرت فيها، كدراسة النظريات التي ظهرت في المجتمع اليوناني أو المجتمع الايطالـــي، أو الفرنســـي، أو الانجلـــيزى، أو الأمريكـــي. أحيانا يجتهد هذا الأســـلوب فـــيربط بعض قضايا النظرية ببعض أحداث السياق الاجتماعي، وأحيانا أخرى يعالج النظرية بتحليل مفاهيمها وقضاياها الأساسية دون ربطها بأحداث معينة في السياق اللهم سوى انتمائها لهذا المجتمع أو ذاك.

ويؤخـــذ علـــي هذا الاسلوب في دراسة وتحليل النظرية الاجتماعية إغفـــال فاعلـــية السياق الاجتماعى، سواء المحلي أو الأشمل، حيث نجد أن قضايا كثير من النظريات ليست سوى تجريد لبعض التفاعلات الواقعية. من ناحية ثانية يتجاهل هذا الاسلوب في غالب الأحيان وضع النظرية الاجتماعية فـــي سياقها الفكرى، فالنظرية الاجتماعية، هي حلقة في تطور، نسق التفكير

العلمـــي، حيـــث نجد أن كثيراً من مفاهيم هذا النسق وقضاياه قائمة في بناء الـــنظرية موضـــع الدراســـة ولو في إطار نسقي جديد، إضافة إلي أن هذا الأسلوب في التحليل يتجاهل الوظيفة الأيديولوجية للنظرية الاجتماعية، وهي الوظيفة التي برزت بوضوح في فترة الحرب الباردة.

ويتمثل الأسلوب الثاني للتحليل العلمي للنظريات الاجتماعية، في ذلك الأسلوب الذي يري في النظرية مجرد حلقة في تطور أو نمو التفكير العلمي، ويعتـــبر مؤلـــف دون مارتندال "طبيعة ونماذج النظرية الاجتماعية" The Nature and Types of Social Theory أفضـــل نمـــوذج لهذا الإتجاه، وهـــي تشـــكل بدورها مقدمات لما سوف يأتي بعدها. ويدخل في نطاق هذا الأسلوب ايضا التحليل الذي قدمه كل من بيرسي كوهن Percy Cohen في مؤلفـــه "الـــنظرية الاجتماعية الحديثة" Modern Social Theory وجون ركـــس John Rex "قضايا أساسية في النظرية الاجتماعية". وغير ذلك من التحليلات العديدة التي تبنت هذا الأسلوب.

وممـــا يؤخذ علي هذا الأسلوب أنه لا يهتم كثيرا بالنظر إلي النظرية باعتبارها، في بعض قضاياها، تعد انعكاساً للتفاعل الاجتماعى القائم، فهو لا يحـــاول ربـــط أي من المقولات النظرية بتفاعلات السياق الاجتماعي. كذلك يؤخـــذ علـــي هـــذا النمط من التسجيل أنه يغفل تماما الوظيفة الأيديولوجية للنظرية، مقتصرا علي المستوى المعرفي في معالجته للنظرية الاجتماعية.

ويمكن أن نسمى الأسلوب الثالث لتحليل ودراسة النظرية الاجتماعية بأســـلوب التحلـــيل التاريخـــي، وهو الاسلوب الذي يحاول أن يؤصل للبداية التاريخـــية لظهور مفاهيم النظرية وقضاياها الرئيسية، محاولا ان يبحث عن هذه الأصول إما في المجتمع اليوناني القديم، أو المجتمعات الشرقية (الصين، الهـــند، مصر) وحتى أوربا القرون الوسطى ثم يحاول بعد ذلك تتبع الانتقال والـــتحول والـــتطور التاريخي للمفهوم حتى بلغ تحديده الحالى. إذ يرى هذا الأسلوب في النظرية نتاج لتراكم تاريخي عبر قرون عديدة من الزمن، حيث يمـــيل دائمـــاً المـــنظر في هذا الاسلوب إلي البحث عن الجذور. إضافة إلي

تحديــد القضـــايا الـــنظرية العلمية التي تشكل بناء النظرية حاليا، كما يفعل الباحثون الذين يميلون إلي تسجيل النظرية وفقا للأسلوب الثاني.

وإن وفر هذا الأسلوب قدراً هائلا من المعلومات التفصيلية المتصلة ببناء النظرية، وهو الجهد الذي يفيد في الأغراض التعليمية إلا إنه لم يذكر شيئا عن العلاقة بين قضايا النظرية من ناحية وأحداث السياق الاجتماعى من ناحية أخرى، إضافة إلي أنه لا يذكر شيئا عن المتضمنات الأيديولوجية لأي نظرية من النظريات، باعتبار أن أصحاب هذا الاتجاه ينفقون كل جهدهم في معالجة الجوانب المعرفية للنظريات، في مقابل تجاهل الوظائف الأيديولوجية لأي نظرية من النظريات. ويعتبر مؤلف بيترم سروكن P.Sorokin النظريات الاجتماعية المعاصرة Contemporary Sociological Theories، من أهم النماذج تجسيدا لهذا الأسلوب في التحليل.

ويعتــبر تحليل النظرية ودراستها بالنظر إلي السياق الإجتماعى هو الأســلوب الــرابع الذي يتبعه عدد من الباحثين. ويعتبر مؤلف ألفن جولدنر Alvin Gouldner الأزمـــة القادمة لعلم الاجتماع الغربي The coming Crisis of western Sociology من أهم المؤلفات التي تجسد هذا الاتجاه في دراسة النظرية الاجتماعية وتحليلها. ويميل هذا الاتجاه إلي التركيز علي بعديــن رئيســيين الأول أن النظرية الاجتماعية هي إنعكاس لأحداث السياق الاجتماعـــي علـــي الصـــعيد المحلي الذي تتصاعد دوائره في الأتساع حتى الســـياق العالمـــي. فقضايا النظرية تعكس أحداث الواقع وما يحدث فيه من تفاعل، إضافة إلي علاقة السياق المحلي بالسياقات المحلية الأخرى في إطار الـــنظام العالمـــي، ومـــا يقـــع في الأخير من أحداث وتفاعلات. فالنظريات الاجتماعـــية الشاملة أو ذات الرؤية الكلية أتجهت إلي رفض بعضها البعض فـــي فـــترة الحرب الباردة، لكنها بدأت تنجذب إلي بعضها البعض في فترة الوفـــاق الدولـــي، ذلك ينطبق بالتحديد علي العلاقة بين الماركسية والبنائية الوظيفية في علم الاجتماع. ويتمثل البعد الثاني في تأكيد هذا الاتجاه بصورة محددة علي البعد الأيديولوجي للنظرية الاجتماعية. وبرغم تأكيد هذا الاتجاه

علــي محورية البعد المعرفى للنظرية إلا إنه في كثير من الأحيان يميل إلي التذكــير ببعض الوظائف للنظرية للنظري وإن احتلت مكانة ثانوية في هذا التحلــيل. إضــافة إلــي ذلك يغفل هذا الأسلوب نسبيا الحديث بإسهاب عن الأصــول المعرفية للنظرية، او النظر إلي النظرية باعتبارها وحدة في نسق التفكير العلمي.

ويمــثل أسلوب التحليل الايديولوجي أسلوب التحليل الخامس في هذا الصــدد. ويعتبر مؤلف ارفنج زايتلن Irving Zeitiln "الأيديولوجيا وتطور الــنظرية الاجتماعية Ideology and the development of sociological theory من أفضل المؤلفات في هذا الصدد. حيث يتصور هذا الاسلوب نشأة الــنظريات وظهورها استجابة لبعضها البعض. بمعنى إنه إذا كانت النظرية الماركســية تقــوم بتحليل النظام الرأسمالي ونقده، لتحديد القوانين التى تحكم التحرك نحو تأسيس المجتمع الشيوعى الذي ترى فيه النظرية المجتمع الاكثر اكــتمالا والــذي يــتخلص من كل الاغترابات، فإننا نجد عدد من النظريات الأخــرى تظهــر – حسبما يذهب هذا الأسلوب – لتفنيد النظرية الماركسية، والدفاع عن المجتمع الرأسمالي. فالنظرية من خلال هذا الأسلوب تدافع عن واقــع معيــن، أو تديــن آخــر وتبرز الوظيفة الأيديولوجية باعتبارها أكثر الوظــائف أهمية ووضوحاً. وقد يهتم هذا الأسلوب نسبيا بالنظر إلي النظرية كوحــدة فــي تطــور نســق التفكير العلمي، وقد يسقط تأثير إحداث السياق الاجــتماعى علي مقولات النظرية الاجتماعية، غير أن التأثير الواضح يظل منسوبا للمتغير الايديولوجي بالأساس.

وفي محاولتنا لتحليل النظرية الاجتماعية رأينا أن يتم ذلك بالنظر إلي إطــار وإن كان لا يلتزم حرفيا بأي من الأطر السابقة إلا إنه استعان ببعض متغــيراتها الأساسية. حيث تتشكل متغيرات هذا الإطار بالنظر إلي مجموعة مــن المتغيرات، التي نعتقد في اتصالها العضوي ببناء النظرية الاجتماعية. وإذا كــنا نعــتقد أن المتغيرات ذات التأثير في بناء النظرية الاجتماعية هي مكانة النظرية في بناء نسق التفكير العلمي، وايضا الحياة الشخصية للمنظر،

وطبـيعة أحـداث السياق الاجتماعي التي تعتبر النظرية في بعض مقولاتها انعكاساً لتفاعلاتها، فإننا أسسنا الأطار التحليلي الذي يضم العناصر التالية:

١- الحياة الشخصية للمنظر الذي لعب دوراً أساسيا في بناء النظرية، فمما لا شك فيه أن للحياة الشخصية للمنظر تأثيرها علي بناء نظريته، حيث نجد أن للأحـداث الشخصية تأثير نسبي علي طبيعة الظواهر التي تصدى لها المـنظر بالبحث والتحليل، ومن ثم التعميمات والقضايا التى وصل إليها مـن خلال دراسته لهذه الظواهر والأحداث فمثلا من المسلم به أن هناك تأثير ليهودية ماركس علي موقفه من الدين، وهناك تأثير لانتماء دوركيم لمقاطعـة الالـزاس- موضـع التنازع حينئذ بين ألمانيا وفرنسا - علي أفكـاره فـيما يتعلق بروح الأمة وعقلها الجمعى. كذلك هناك تأثير للبعد الـيهودى لمـنظري المدرسـة النقدية في علم الاجتماع علي كثير من أفكـارهم. وكذلك هناك تأثير للحياة الشخصية لفلفريدو باريتو علي كثير من افكاره النظرية كدورة الصفوة أو الموقف من الاشتراكية.

٢- وتشكل الجذور الفكرية العنصر الثاني في الإطار التحليلي المقترح، حيث تشكل الجذور الفكرية جوهر العلاقة بين نسق التفكير العلمي من ناحية، وبين النظرية موضع التحليل والاهتمام من ناحية أخرى في هذا الإطار، فإننا في معالجتنا لأي نظرية من النظريات، فإننا نعمل دائماً علي وضعها فـي مكانتها علي خريطة نسق التفكير العلمي، عن طريق تحديد الصلة الـتى تـربط الـنظرية بجذورها القائمة في نسق التفكير العلمي، لتحديد طبـيعة تأثـير نسـق التفكير العلمى علي بعض قضايا النظرية موضع التحلـيل، من ذلك مثلاً نسبة الجدل الماركسي إلي الجدل الهيجلي، الذي يرجع بدوره إلي الجدل في نسق الفلسفة اليونانية القديمة عند هيراقليطس. أو إسـناد فكـرة العقل الجمعى عند إميل دوركيم في بعض جوانبها إلي فكـرة الـروح العامـة أو الفكرة المطلقة عند هيجل، أو إسناد المنهجية الدوركيمية إلي تأكيد أوجست كونت علي نموذج العلم الطبيعي.

٣- ويتشـكل العنصر الثالث في الإطار التحليلي من البناء المنهجي للنظرية موضـع التحليل. ذلك أننا نقتنع أن أي نظرية من النظريات لها اقتراب منهجي من الواقع محدد وخاص بها. حيث يحتوى هذا العنصر المنهجى في بناء النظرية علي طبيعة تصور النظرية للحقيقة الاجتماعية، ومنطق تـناول الباحـث لها بالبحث والدراسة، وفي بعض الأحيان طبيعة أدوات البحـث الأكـثر ملائمة للنظرية التي يتبناها الباحث، علي سبيل المثال تصـور الحقـيقة الكلية بين ماركس وأوجست كونت مثلاً يفرض علي الأخـير إدراكهـا إدراكـا استقرائيا بينما الأول يدركها إدراكا تطوريا وتاريخـيا. أو أن تباين منطق إدراك الحقيقة بين ماكس فيبر ودوركيم، جعـل الثانـي يؤكد علي ضرورة الإدراك الموضوعى للظاهرة موضع الاهـتمام بيـنما أوصى الأول بضرورة التفهم والادراك الذاتي للواقعة موضع الدراسة.

٤- ويشـكل التصور الذي تطوره النظرية للواقع الاجتماعى العنصر الرابع في الإطار التحليلي. وهو العنصر الذي يشكل الجانب الاساسي أو العيني Substantive فـي بـناء النظرية. ونحن نعتقد أنه لا خلاف بين رواد الـنظرية الاجتماعـية فيما يتعلق بالمتغيرات المشكلة للواقع الاجتماعي. ولكـن يكمـن الخـلاف الرئيسـي بين النظريات في طبيعة ترتيب هذه العناصـر بالنظر إلي بعضها البعض، وأيضا في طبيعة العلاقات القائمة بيـنها. إذ تـدرك غالبية النظريات الواقع باعتباره يتكون من المتغيرات الاقتصـادية والاجتماعـية والسياسية والثقافية أو الدينية، ولكنها تختلف حـول المتغـيرات ذات الأولوية، فبينما تؤكد الماركسية علي المتغيرات الاقتصـادية تؤكد نظرية إميل دوركيم علي المتغيرات الاجتماعية، علي حين يعطى فيبر متغير الدين والثقافة كمتغير الأولوية، بينما يؤكد باريتو علي فاعلية دورة الصفوة كمتغير أساسي.

ولأن الـنظرية الاجتماعية كانت دائماً انعكاساً لازمة أو مشكلة يمر بهـا الـنظام الاجتماعي. يحاول المنظر تشخيصها وتحديد طبيعتها وطرح

الحلـــول الملائمـــة لهـــا. فقـــد رأينا أن تكون هذه الأبعاد هي أبعاد التصور النظرى، الذي بناء عليه يتم تحليل أي نظرية من النظريات. ومن ثم نجد أن قضـــايا التصور العيني أو الواقعي للنظرية تدور حول طبيعة مشكلة النظام الاجتماعـــي كمـــا تشخصـــها الـــنظرية ثم ما هي عناصر هذه المشكلة أو متغـــيراتها، ثم ما هو الحل الذي تطرحه النظرية للخروج من مشكلة النظام الاجتماعي التى تعتبر النظرية انعكاسا لها في بعض جوانبها.

٥- يبقي بعد ذلك أن نوضح أننا لم نعطي بعد الايديولوجيا اعتبارا كبيرا في تحليلنا لمختلف النظريات الاجتماعية، وذلك لاعتبارين. الأول أنني أري أننا كباحثين في علم الاجتماع ينبغي أن نهتم بالجوانب المعرفية لأي نظرية من الـــنظريات لأنها تشكل الأساس الجوهري لبناء النظرية. باعتبار أننا ندرك الـــنظرية باعتبارها اطاراً فكرياً أو منهجاً لوصف تفاعلات الواقع وتحليلها وتفســـيرها، للوصول إلي بعض التعميمات التي تيسر ضبط التفاعل الواقعي والســـيطرة علـــيه، وتوجيهه إلي أوضاع في المستقبل نتنبأ بها، ونوجه هذا التفاعل نحوها، وتلك هي الوظيفة الأساسية للنظرية العلمية. ويتمثل الاعتبار الثانـــي في انتهاء عصر الايديولوجيا وهو العصر الذي ازدهر فترة الحرب الـــباردة، واصـــبح خافتا للغاية في فترة الوفاق أو التجانس الذي يتجه إليها الـــنظام الدولـــي. ولأنـــنا نعتقد أيضا أن التبرير الايديولوجي قد يكون أحد وظـــائف النظرية الاجتماعية لكنه لا ينبغي ان يكون مكونا محوريا في بناء النظرية الاجتماعية.

رابعاً: الأيديولوجيا ونظرية علم الاجتماع

تعتـــبر قضـــية العلاقة بين الأيديولوجيا ونظرية علم الأجتماع من القضـــايا الهامة التي تحتاج إلي الدراسة. ذلك أنه قد كثر الجدل والحوار في الســـنوات الأخيرة حول قضايا عديدة تتعلق بالأيديولوجيا، كالقضية الخاصة بموقـــف الباحث من الالتزام العلمي والأيديولوجي، أو الأيديولوجيا ودورها في نشأة النظرية السوسيولوجية إلا أن هذا الجدل والحوار لم يصل إلي نتائج محـــددة ودقيقة. ذلك لأنه فضل أن يدور حول القضية من الخارج، وقد كان

ألزم له أن يغوص بداخلها ليسير طبيعة علاقاتها من الداخل، هذا إلي جانب عدم ألتزامه في تناوله لهذه القضية – علي خطورتها– التزاما منهجيا يصل إلــي نــتائج موضــوعية واضــحة ودقيقة، ونتيجة لذلك فقد انطلقت بعض الشــعارات التــي تؤكد أحيانا أن علم الاجتماع يجب أن يكون علم اجتماع سياســي، وأن القائمين به يجب أن لا يركزوا كثيرا علي النظرية والمنهج، فهــذا مــرض عضــال اســمه الحصر المنهجي. وما تشترك فيه كافة هذه الشــعارات يتمثل في إهمالها الكامل لعلم الاجتماع الأكاديمى نظرية ومنهجا وعــدم الــتقدم لــتطويره والإسهام فيه. الأمر الذي جعل ألفن جولدنر يضع عــنوانا لمؤلــف حديث له يعبر فيه عما يواجه علم الاجتماع بأنها "الأزمة القادمــة لعلــم الاجــتماع الغربي"، ويصورها ر. د. ليانج منظر راديكالية الشباب بتأكيده (أنها من أحد يستطيع ان يبدأ في التفكير أو الشعور أو العمل الآن إلا ابتداء من اغترابه، إننا لا نحتاج إلي النظرية إلي حد كبير طالما أن الخبرة هي مصدر النظرية[٤٤].

وإذا كــنا قد ناقشنا بناء النظرية ووظائفها واستراتيجيات بنائها، فإننا ســنحاول مناقشــة الأيديولوجيا من حيث طبيعتها وخصائصها، ثم علاقتها بالقضــايا العلمــية للنظرية الاجتماعية، ثم مناقشة هذه القضايا التى طرحت حول الأيديولوجيا والنظرية.

١– تعريف الأيديولوجيا

لمناقشــة الأيديولوجــيا مــن حيــث نشأتها وطبيعتها، نجد أنه من الضروري طرح تعريف لها، إلا أننا في مناقشتنا مسألة تعريفها نواجه بعدة تعــريفات. إذ يشــير هــذا اللفظ أحيانا إلي الأيديولوجيا بإعتبارها نسق من الأفكــار بشأن الظواهر، ولا سيما ظواهر الحياة الاجتماعية. أو هي طريقة التفكــير الممــيزة لطبقة أو فرد. أو أن اللفظ قد يشير إلي علم الأفكار، أي دراســة أصــل الأفكار وطبيعتها، ولا سيما في مذهب كوندياك الذي استمد جمــيع الافكار من الإحساس وحده. أما عند كارل ماركس وانجلز الذي أثار مشروعهما النظرى الاهتمام بالأيديولوجيا. حيث نجد أن مفهوم الايديولوجيا

عندهم لا يشمل نظرية المعرفة السياسية فحسب، بل يشمل أيضا الميتافيزيقيا والأخــلاق والديــن وأيــة (صورة للوعى) تعبر عن المواقف والالتزامات الأساسية لطبقة اجتماعية(٤٥)، أما تالكوت بارسونز فيعرف الأيديولوجيا بأنها نسق من الأفكار الموجهة أو التي لها أصل إمبيريقي، تلك التي تمنح الإنسان تفسيرا للطبيعة الإمبيريقية للجماعة وللمواقف التي تقف فيها، والعمليات التى تطــورت بهــا حــتى بلغــت حالتها الراهنة، ثم الأهداف التى يتوجه إليها الأعضاء جماعيا، كذا علاقتهم بمسار الأحداث في المستقبل(٤٦).

ويكشف التفحص الدقيق لهذه التعريفات، أن الأيديولوجيا تتعلق بكيان جماعة، وأنها تتعلق بتحقيق اهداف هذه الجماعة، سواء كانت طبقة أو تجمعا يتخذ أي شكل آخر، وأن لها علاقة بمستقبل هذه الجماعة، وأن جميع أفرادها لابــد وان يشاركوا فيها. ويصوغ هارى جونسون أهم عناصر الأيديولوجيا بأنها تتكون من:

أ – الأفكــار الموافــق عليها بصورة شائعة تلك المتعلقة بالبناء، وبالعمليات الداخلية (بما فيها التغيرات التي قد تقع، والإطار العالمى للمجتمع).

ب– الأفكار الشائعة الموافق عليها والمتعلقة بتاريخ المجتمع.

ج– التقويمات الشائعة المتعلقة بالحقائق الموافق عليها.

د – القيم والأهداف المتفق عليها بصورة شائعة بالنسبة للمجتمع(٤٧).

يعني ذلك أنه من الممكن وفقا للتحديدات السابقة، أن نجد في المجتمع الواحــد مجموعــة مــن الايديولوجيات، فكل جماعة ذات ثقل ما، أو حزب سياســي، أو مــنظمة مهنية أو نادى اجتماعي يمكن أن تكون له أيديولوجيا معينة، بذلك يتأكد لدينا أن الأيديولوجيا غالبا ما تعبر عن مشاعر ومعتقدات عاطفية وخاصة تلك التي تربط الفرد بالجماعة. فهى إلي جانب استنادها في نشــأتها إلــي حقائق إمبيريقية إلا إنه عادة ما يدخلها عنصر اللاعقلانية او الصوفية كالحال في الدين. والمؤكد ان هناك بعض الأيديولوجيات التي نجد لها أصولا في الصوفية والحدس والإلهام المبالغ فيــه(٤٨).

٢- نماذج الأيديولوجيا

ترتبط الأيديولوجيا وظيفيا بكيان الجماعة وتماسكها ودعمها والحفاظ عليها والدفاع عنها امام المجتمعات أو التجمعات الأخرى ذات الايديولوجيات المضـــادة. فلأدائها الوظيفي علاقة بتكامل المجتمع أو الجماعات الفرعية، ثم إنهـــا قد تحدد للجماعة اتجاها معرفيا وإدراكيا مشتركا تجاه أهداف معينة ثم وســـائل تحقيق هذه الأهداف. إضافة إلي أنها تحتوي علي الرموز التي تدعم الجماعـــة باســـتيعاب الاخـــيرة لها بالإضافة، حيث تعد هذه الرموز تجليات جمعية لتفاعل الجماعة، من هنا وجدنا أن الارتباط بالأيديولوجيا يكون أقوى مـــا يكـــون في حالات الصراع الذي قد تواجهه الجماعة سواء كان صراعا داخلـــيا أو خارجـــيا[٤٩]. ذلك لأن الأيديولوجيا تكون هي السلاح أو الأساس الـــذي تســـتند إليه الجماعة لكل تتجاوز حالة الصراع هذه، وتحقق التكامل والاستقرار من جديد بعد أن تحسم هذا الصراع لصالحها.

وإلـــي جانـــب أنه لكل جماعة إيديولوجيتها الخاصة، بالإضافة إلي إمكانية.تواجد عديد من الأيديولوجيات داخل المجتمع الواحد فإن هناك أنواعا مـــن الأيديولوجيات. فهناك الأيديولوجيا الثورية والأيديولوجيا الرجعية وكذا الأيديولوجيا المحافظة ثم الأيديولوجيا المضادة.

أمـــا الأيديولوجيا الثورية أو الراديكالية فهي تلك التي تهاجم النظام الاجتماعـــي الكائـــن أو أحـــد جوانـــبه. وبذلك فإنها يجب أولا أن تقدم نقدا للجوانـــب التي تهاجمها ثم برنامجا بديلا لما هو موجود، ومن ثم فهي تؤكد بشـــدة علي الخضوع لهذا البرنامج الراديكالي، وللأعضاء القائمين بالحركة الـــثورية[٥٠]. إلا أنـــه بالـــرغم من أن الجماعة الثورية تعمل علي الإطاحة بالنسق القائم، أو كثير من جوانبه، فإننا نلاحظ أن الأيديولوجيا الثورية تؤكد علـــي بعـــض القـــيم السائدة والموجودة وهي بذلك تشترك مع الأيديولوجيا المحافظة في الاتفاق علي هذه القيم[٥١].

وتعد الأيديولوجيا الرجعية شكلا خاصا كالأيديولوجيا الثورية، وليس من الضروري أن نقول بأن هذه الأيديولوجيا سيئة أو حسنة. بل أنها ببساطة

أيديولوجيا تعمل علي دعم العمل علي استعادة بعض جوانب النظام الماضي. إذ أنـــه في أعقاب كل ثورة، نجد عادة ممثلي الجانب المنهار والذي حطمته الثورة يؤيدون الرجوع إلي الأشكال النظامية التي أطاحت الثورة بها.

أما الأيديولوجيا المحافظة فهي الأيديولوجيا التى تحاول الحفاظ علي مـــا هو كائن وتطلب الخضوع له. إلا أننا نؤكد أن الخط الفاصل بين صفات الــثورية أو المحافظة فيما يتعلق بالأيديولوجيا إنما هو فصل نسبي ذلك لأن مصطلحات الثورية أو المحافظة لا تشير عادة إلي مضمون الأيديولوجيات. ولكنها تشير إلي علاقاتها بالنظم الاجتماعية السائدة. فالماركسية اللينينية هي الأيديولوجيا المحافظة في الاتحاد السوفيتي بينما هي الأيديولوجيا الثورية في الولايات المتحدة. ولذلك فإننا يمكننا أن نؤكد أن الأيديولوجيا المحافظة تبرر وتدافـــع عـــن الـــنظم القائمة وبخاصة تلك النظم التي لها علاقة بالحكومة، والاقتصاد، والبناء الطبقي، تلك العناصر التي تهاجمها الأيديولوجيا الثورية.

إلا أنـــه يجب ان يظل مؤكدا أن الأيديولوجيا الثورية إذا ظهرت في نفـــس الإطـــار أو الســـياق البنائي الذي تدعمه الأيديولوجيا المحافظة، فإنها ترتكز دائما علي بعض عناصر وقيم هذه الأيديولوجيا المحافظة، التي انبثقت عـــنها، وهـــو ما نجد أفضل له توضيح في نشأة أيديولوجيا الحركة الثورية الكارزمية من داخل نفس السياق الذي تدعمه الأيديولوجيا المحافظة، وهذا ما حـــدث فـــي روســـيا وألمانيا والصين(٥٢). أما الأيديولوجيات المضادة، فهي الأيديولوجيات التى تبرر وجهة نظر وأنماط الجماعة الرافضة أو المعارضة بدون أن تحاول العمل علي تغيير المجتمع ككل(٥٣).

يتأكد لنا مما سبق أن الأيديولوجيا ذات صلة عضوية ببناء اجتماعي محدد تنبثق عنه، وتتشكل بملامحه وأهدافه، وتعمل علي دعمه والدفاع عنه.

٣- الأيديولوجيا والعلم، طبيعة العلاقة المتبادلة

وفيما يتعلق بالعلاقة بين الأيديولوجيا والعلم، وضرورة الاستناد إلي معايـــير البحـــث المنهجية لتحديد خصائص هذه العلاقة، فنؤكد مبدأ أنه فيما يتعلق بالعلاقة بين الأيديولوجيا والعلم فإننا نجد أن هناك فريقين من العلماء،

حيث يؤكد الفريق الأول أن الأيديولوجيا لها صلة أساسية بالنظرية الاجتماعية بل إنها هي التي أدت إلي نشأة النظرية الاجتماعية، ومن هذا الفريق نأخذ اثنين هما رواد هذا الاتجاه وهما أرفنج زايتلن وألفن جولدنر.

وتتضح وجهة نظر أرفنج زايتلن كما حددها في كتابه (الأيديولوجيا ونشأة النظرية الاجتماعية) في أنه يعتبر أن الفكر الوضعي قام ردا علي الفكر النقدي، ومن هنا فإنه يصور موقف كل من دوركيم، وباريتو وموسكا علي انها كلها تمثل مشروعات نظرية قامت للرد علي شبح الفكر الماركسي. يصور ذلك عبارته عن "الحوار مع شبح كارل ماركس"، أما العالم الثاني، فهو ألفن جولدنر الذي تجاوز بالتطرف موقف أرفنج زايتلن إلي حد كبير. إذ يؤكد محاولا تصوير موقف اليسار الجديد، بأن هؤلاء الشباب يرون في عالم الاجتماع، كما يرون الشيوخ، علي أنهم كائنات مستغلة ومنافقة، وعلي أننا لم نلاحظ شهداء بين علماء الاجتماع، إن الشباب الراديكاليين يائسون من الحزن لأنهم لا يرون في عالم الاجتماع رجلا كاملا يتسق مع قيمه، إنه يدرس الفقراء إلا أنه لا يشارك في أوجاع هؤلاء الناس الذين يدرسهم، والذي جعل وجودهم ممكنا. إنك من الصعب أن تجد عالم أجتماع ذا شهرة منجذبا للتدريس في كليات الزنوج في الجنوب، وما يصدق علي عالم الاجتماع ينسحب علي النظرية الاجتماعية، حيث يرونها علي أنها تزييف لما يتبدى لهم في الواقع، إن الراديكالي الشاب ينظر عادة إلي النظرية الاجتماعية وعلم الاجتماع الأكاديمي علي أنهما يجعلان الحياة غامضة، وأنها أيديولوجيا ذات تحيز محافظ تعمل علي دعم الحالة الراهنة[٥٤].

ويتضح التطرف في موقف الفن جولدنر ليس في مهاجمته لنظرية علم الاجتماع التي قد تتأثر إلي حد ما بشخصية المفكر المنظر، ولكن في مهاجمته لمناهج علم الاجتماع وأدواته لجمع المعطيات متهما إياها بالتحيز الأيديولوجي أيضا. فهو يؤكد ان وجهة نظر العلماء في المطالبة بحصر وجمع أكبر عدد من البيانات، بل وإنشاء نسق للحصر والتقدير يسمح بالكشف عن التغيرات في عضوية التنظيمات، او الألتزام الديني، أو الحراك

المهني، تعبر عن وجهة نظر مجتمع قاس وتسلطي يسعى إلي أن يعرف كل شـئ عن أفراده، وأن المناهج التقليدية للبحث الاجتماعي تؤدي وتنمي عادة الـنزعة التسلطية الضاربة في العمق. بل إنها تمهد عادة السبيل لقيام أحتكار البشر لبعضهم.

وهو يتوافق مع موقف شيرسي ارجرز الذي يؤكد ان الرضا بمعايير البحـث الصارمة الدقة قد يؤدي إلي خلق عالم للموضوع يتحدد فيه سلوكه ويضبط ويقوم، ويسيطر عليه، ويقرر إلي الدرجة التي يمكن أن نقارنه فيها بالعمال الذين تحكمهم ظروف خط التجميع، بمعنى أن نظم جمع البيانات أو أدوات البحـث تفـرض عادة وجود، بل وتستخدم نظاما للضبط الاجتماعي. وأنـه لـيس فقـط أن البيانات التي يحصلون عليها تستخدم بواسطة أنساق الضبط، ولكنها في ذاتها أنساق للضبط.

ذلـك يعني أن أياً من أدوات البحث تؤسس بعض الافتراضات حول كـيف يمكـن الحصـول علي البيانات من الناس، وماذا يتبع معهم من أجل الحصـول علـيها. وهذا يرتكز بدوره علي افتراضات معينة تتعلق بمن هم البشـر ومـا كينونتهم. وإلي الدرجة التي يتم فيها تشبيه العلوم الاجتماعية بـالعلوم الطبيعـية، فإن ذلك يتضمن الافتراض الرئيسي الذي يؤكد علي أن الناس أشياء يمكن أن يعاملوا ويضبطوا بنفس الأسلوب التي تضبط به العلوم الاخـرى المادة غير البشرية، فالناس موضوعات معرضة لسيطرة وضبط المجرب لأغراض لا يحتاج أن يفهموها أو حتى يرضوا بها. مثل هذا العالم الاجتماعـي سوف يندفع بلا تفكير نحو شراء كميات من البيانات، ولو علي حساب الكبرياء الإنساني وكرامته. إن المنهجية قد ينظر إليها من وجهة نظر معيـنة تؤكـد علـي أنها مسألة فنية منفصلة بصورة تامة ومطلقة عن أية أيديولوجيا، إذ يفترض أنها تتعلق فقط بطرق استخراج المعلومات عن العالم، أو جمـع البـيانات، أو صـياغة الاستبيانات، أو سحب العينات، أو تحليل البيانات، إلا إنها شئ أكبر من هذا، حيث تختلط عادة بالفروض الأيديولوجية

العامـــة عـــن طبيعة العالم، وما هو عالم الاجتماع، وما هى طبيعة العلاقة بينهما.

أما الفريق الآخر فهو الذي يري في علم الاجتماع وسيلة لفهم العالم، وذلك تمهيداً لتحقيق ظروف أكثر ملائمة يمكن أن يعيش في إطارها الإنسان. ويؤكـــد هـــذا الفـــريق علـــي أن العلـــم علم، وأن هذه العلاقة المدعاة بين الأيديولوجـــية والعم علاقة زائفة ولا سند لها من الحقيقة، ونذكر منهم علي ســـبيل المـــثال لا الحصر اثنين، أولهما عالم الاجتماع الأمريكي مارتندال، وثانـــيهما عالم الاجتماع الفرنسي ريمون آرون. أما دون مارتندال فيؤكد أن القـــول بأن علم الاجتماع في البداية كان جزءا من أيديولوجيا محافظة ليس هجوما عليه أو دفاعا عنه، ذلك أنه إذ قيل علي نطاق ما أنه إيديولوجيا، فإن هذا النطاق يحرمه من صفة كونه علما، ذلك لأن طبيعة العلم تؤكد علي أن الموافقـــة النهائـــية علـــي تعميم، إنما ترتكز علي المعايير الموضوعية التي يتضـــمنها الـــنظام العقلـــي، ثم يؤكد علي أن علم الاجتماع يستطيع أن ينمو ويبقي فقط إلي الدرجة التي يتمكن فيها من صياغة معايير علمية ومهنية.

وبصـــراحة أكثر ووضوح يؤكد ريمون أرون أنه من الضرورى أن نميز النظرية والمنهج العلمي المتصل بالواقع الاجتماعي، عن الأيديولوجيات أو التصـــورات الخاطئة والمتحيزة والناتجة عن المواقف الطبقية التى تحرم الإنســـان من رؤية الحقيقة. بل إنه من الضروري أيضا أن نؤسس فواصل بين أنماط التفسيرات العقلية المختلفة، وأن ندرس علاقتها بالواقع الاجتماعي. ثـــم يؤكد أنه لكي نتجنب الخلط والعمومية فإننا يجب أن نؤكد علي قضيتين، الأولـــي أن هـــناك نطاقـــات يصل فيها الفكر البشري إلي الحقيقة الصادقة للجميع، وليست الحقيقة الصادقة لطبقة واحدة والثانية، أن هناك نطاقات يكون النـــتاج العقلـــي فيهـــا له قيمة بالنسبة للبشـــر في كافة المجتمعات علي حد سواء(٥٥). وهو بذلك يؤكد علي أن العلم ضمن هذه النطاقات.

بعـــد الفراغ من سرد هذه الآراء المتضادة، فإننا نتساءل عن ما هي إذا طبيعة هذه العلاقة، أي العلاقة بين العلم والأيديولوجيا. فإنه من الواضح

أنـــنا نرفضها لأمور كثيرة، إلا أننا نصنف أسباب الرفض إلي اثنين، الأول: يتعلق بالتفنيد النقدى لكل من قالوا بوجود هذه العلاقة وهو ما نسميه الجانب الســلبي فـــي وجهة نظرنا. أما الإيجابي فسوف نحدد من خلاله الخصائص الفارقة التى تجعل من المستحيل قيام هذه العلاقة.

ونتناول علي الجانب السلبي موقف ارفنج زايتلن، وإذا كنا قد أكد أن الوضـــعية تعد امتدادا للمنهج الاستقرائي التجريبي الذي حمل لواءه فرنسيس بيكون وروجر بيكون، وأيضا بصفتها امتداداً للفلسفة الإمبيريقية الإنجليزية، التي لها جذورها أيضا في هذا المنهج. وأنه أمام الفوضي التي أعقبت الثورة الفرنســية رأي فــريق مـــن المفكرين أن يوسعوا نطاق المنهج العلمي لكي يحـــتوى علـــي دراسة الظاهرة البشرية، فإن ذلك لم يكن موقفا ضد الفلسفة النقدية. وإذا كانت الفلسفة النقدية قد أسست موقفها الفكرى علي أساس تصور الكـــل المتكامل الممكن، والذي مازال كامنا، فإن الفلسفة الوضعية أو النظرة العلمـــية قد أسست موقفها علي أساس تناول الكل الكائن بالدراسة، باكتشاف عيوبه والتدخل اراديا للبحث عن ما يمكن أن يصلحه. هذا بالإضافة إلي أن الفكـــر الاجتماعي المحدث وإن كان يؤمن بالعلاقة السببية بين المتغيرات إلا إنـــه قـــد أكد علي ضرورة تدخل متغيرات وسيطة، بل إنه قد رفض منطق المتغير المستقل والتابع كأطراف تنحصر بينها العلاقة السببية فمثلا صياغة التصـــور الدوركيمـــي أســـهمت فيه متغيرات كثيرة، أسهمت فيه الوضعية، والمثالية الهيجلية، وأسهمت فيه المثالية الألمانية عند كل من زيمل وتونيس، بـــل وأســـهمت فيه إلي حد كبير معطيات الأثنوجرافيا الذي أقام بناء عليها نماذجه ومقارناته، فلم تكن الاشتراكية إذا هي المتغير الوحيد الذي أثار الفكر الدوركيمي لكي يؤسس قضاياه حول رفضها، بل إن هناك من الدراسات التي تؤكد علي أن طريق دوركيم إلي علم الاجتماع كان يمر عبر اهتمامه المبكر بالاشتراكية[٥٦].

وفـــيما يـــتعلق بنقد الفن جولدنر، بخصوص تشكيل المعرفة التي قد تجمـــع عـــن البشر في المجتمع تمهيدا للتدخل في حياة هؤلاء البشر، أو أن

القواعــد المنهجية التي طورها البحث الاجتماعي إلي جانب أنها تخدم نسق الضــبط فهـــي تشــكل أيضـــا نسقا آخر للضبط، أو أن علماء الاجتماع لا يشـــاركون فـــي قضـــايا المجتمع كظلم الزنوج أو عدم الوقوف إلي جانب الفقـــراء. فنحن إذا تفحصنا هذا النقد الذي أثاره الفن جولدنر فإننا سنجد أن هـــناك اتهامـــا ضـــمنيا، بـــأن هناك رابطة عضوية تجمع بين رجال العلم الاجتماعـــي والحكومة بهدف إستغلال جماهير الشعب والسيطرة عليهم، قد يكون ذلك موقف علماء الأجتماع الامريكيين إلا أن هذا الموقف لا يجب أن يشكل أساسا للحكم علي علماء الاجتماع عامة، فالخاص لا ينسحب أو يصدق بالضـــرورة علي العام. هذا بالإضافة إلي أن مهمة عالم الاجتماع تتمثل في تشـــخيص المشـــكلة وتحلـــيلها لأسبابها، والتفسير او التنبؤ بمتتالياتها إذا ما اســـتمرت هـــذه الظروف أو طرأت ظروف جديدة من نوع معين، أما عن استخدام هذه المعرفة ضد العامة فهذا ليس مسئولية العلماء وإنما مسئولية من أســـاؤا اســـتخدام معرفة العلماء. إن مشكلة الزنوج أو الفقراء في امريكا لا تتطلب من عالم الاجتماع ان يشترك بصفته مهيجا ثوريا بقدر ما تتطلب منه أن يـــرد تعقد هذه المشكلة إلي أسبابها الحقيقية، ويدعم ما يذهب إليه تحليل روبرت ميرتون العميق والموضوعي لظاهرة الأنومي وعلاقتها بالتناقض في بـــناء المجـــتمع الأمريكـــي حيث يعد هذا التحليل أكثر فعالية لصالح الفقراء الزنوج الذين أشار إليهم جولدنر لكونه الأقدر علي إبراز مشكلتهم، أو الشباب الراديكالـــيون الذين كان لهم إسهامهم كذلك، فمن الواضح أن أغلب المقالات التي كتبها الثوريون في هذا النطاق تبرز الظواهر التي يعاني منها المجتمع علي العموم.

أما القول بأن القواعد المنهجية تشكل نسقا جديدا للضبط فمن الواضح أنـــه قـــول يجانـــبه الصواب، ذلك لأن مجموعة القواعد المنهجية يلتزم بها الباحث وليس المبحوثون. بل إن البحث الاجتماعي قد طور من التكنيكات ما يجعـــل مهمـــة جمـــع المعطيات مهمة لا يشارك فيها المبحوث بجهد إرادى واعى، كالملاحظة بالمشاركة وتحليل المضمون والمعالجات الإحصائية. فإذا

ناقشـــنا إدانـــة الفن جولدنر، للضبط التجريبي لجميع المعطيات التي تتطلب ضبطا تجريبيا، فإن ذلك من شأنه أن يخلق موقفا يماثل الموقف الطبيعي إلي حـــد ما، أليس من الأفضل الحكم عليها بالنظر إلي غرضه أو هدفه بدلا من مناقشة طبيعته كوسيلة، علي ان نأخذ في الاعتبار دائما النظر إلي هدفها من خلال المنظور العلمي الموضوعي لا من خلال رؤية أيديولوجية معينة.

وفيما يتعلق بالجانب الإيجابي الذي نورده تدليلاً علي عدم وجود هذه العلاقـــة بين الأيديولوجيا والنظرية الاجتماعية كنظرية علمية، فإنه حتى إذا وجدت في لحظة معينة فإن العلم كنسق يمتلك من الميكانيزمات التي يلغي بها أية وحدات معرفية لا تحمل طابعه أو خاصيته.

نخلـــص من ذلك إلي أن الأيديولوجيا تعد موقف جماعي يشترك فيه كافـــة أعضاء الجماعة أو أغلبيتها. ويرتبط موقفهم هذا بتحقيق أهداف تتعلق بكـــيان الجماعة، وأن مصدر تدعيمها في الأفراد يكون عادة من خلال قادة المجـــتمع او مـــن خلال التطبيع الاجتماعي أو من خلال الإعلان والدعاية ووســـائل الاتصـــال العامـــة، أما العلم فهو موقف خاص بمجموعة محددة ومتمـــيزة من العلماء، وتتصل أهداف هذا الموقف أساسا بالعلم وكيانه كنسق إدراكـــي، بمعـــنى أن بحـــث العلماء يتناول عادة قضايا علمية أساسيا تمثل ثغرات تحتاج إلي تركيز جهودهم لتوضيحها. بذلك يصبح جهدهم في معظمه فني ومتخصص، إلا إن هذا لا يمنع أن يكون لمعرفتهم التي يتوصلون إليها استخداماً علمياً لصالح المجتمع ورفاهيته، بل لا يمنع أن تستخدم الأيديولوجيا بعـــض القضـــايا العلمـــية لتأييد موقفها، إلا إن هذا لا يعني أن هذه القضايا العلمية قد صيغت لغرض أيديولوجي.

اما الفارق الثاني فيكمن في أن الأيديولوجيا عادة ما تحرف أو تشوه الحقـــيقة الاجتماعـــية إلي حد ما، بالإضافة إلي أن الانطباعات العامة ليست خاطـــئة كلـــية، حيث تختلف نسب الصدق والخطأ من واحدة لأخرى. ذلك يوجـــب النظر إلي كل أيديولوجيا علي حدة، ويعد الصدق المقنن، مهما كان ناقصـــاً، أفضـــل معرفة يمكن الحصول عليها في العلوم الاجتماعية والعلوم

الأخرى. وأحيانا يمكن توضيح التحريف في الأيديولوجيا بسهولة، وذلك لأن الاخــتلاف بيــن القضية الأيديولوجية والقضية العلمية يتمثل في أن القضية العلمية أقل ثقة بنفسها، بل ومعرضة لتعديلات أكبر. فالعالم شكاك دائما ولا يكفــيه الدليل السببي، بينما الأيديولوجيا عادة ما تحتوى كبرهنة لذاتها علي حقــائق ذات طبيعة انتقائية. فالشخص الأيديولوجي يبحث عن الحقائق التي تثبــت عقــيدة اخــتارها ووافــق عليها سلفا، أما العالم فيرجئ الحكم حتى يستقصـــي إراديــاً الحقائق التي قد لا توافق علي فروضه التجريبية[٥٧].هذا بالإضــافة إلي أن الأيديولوجيا عادة تكون متعصبة، فالأيديولوجيا الراديكالية كالمحافظــة تميــل لأن ترى الأمور علي أنها إما أسـود أو أبيض[٥٨]. أما العلم فلا يمتلك هذا الحسم القاطع، وإنما تتعرض فروضه او قضاياه لدرجات متباينة من الدعم أو إثبات الزيف. إن الأيديولوجيا قد ترى المطلق كثيرا في الأشياء، أما العلم فيبني كيانه علي أساس النسبي.

بــيد أن هناك اختلافا أخر بين الأيديولوجيا والعلم. فبينما نجد أن أية أيديولوجيا – سواء كانت محافظة أو ثورية – تسعى إلي فرض أيديولوجيتها علي النسق، ذلك لأن هذه الأيديولوجيا تتضمن تحقيق مصالحه أو المحافظة علــي مصــالحه المكتسبة، فإن العلماء علي خلاف ذلك لديهم ألتزام أساسي بالحقيقة وبموضوعية هذه الحقيقة. وفي حين أن رجال الأيديولوجيا يطلبون من النسق أن يسير في فكلهم، نجد أن العلماء هم الذين يسيرون ويخضعون للعلم كنسق إدراكي، ولا مصلحة خاصة لهم سوى الكشف عن الحقيقة[٥٩].

غــير أن هــذه الاختلافات التي أوردناها بين الأيديولوجيا والعلم لا تمــنع من وجود علاقة نرى ضرورة إلقاء الضوء عليها، حيث تنحصر هذه العلاقة في إمكانية أن تستخدم القضية العلمية استخداما أيديولوجيا، فأي قضية يمكن أن تكون علمية إذا نظر إليها علي أنها صادقة أو خاطئة علميا، بالقدر الــذي توفــر فيه وصفا للأجزاء والارتباطات داخل النسق الاجتماعي، كما توجــد موضــوعيا. إلا أن هــذه القضــية يمكن أن ينظر إليها علي أنَ لها متتالــيات أو نتائج أيديولوجية إلي المدى الذي قد يستخدمها شخص له قيمة

وأهدافــه المعيــنة لتبرير دعم أو تغيير الأجزاء أو الارتباطات ذات الوجود الموضـــوعى، معنـــي ذلــك أن القضــية العلمــية ذاتها ليس لها أي التزام أيديولوجـــي مع أي موقف[٦٠]، وإنما الالتزام يأتي من الشخص الذي أستعان بها لكي يدعم موقفه، ذلك لأن القضية العلمية قد تصبح ذات دلالة أيديولوجية قدر ما يمكن أن تكون لها دلالة علمية.

هذا بالإضافة إلي إن قضية الاستخدامات الأيديولوجية للمعرفة مسألة عامة، وتنطبق علي كافة العلوم الاجتماعية، وعلي أي إطار تحليلي أو نسق نظـــرى داخـــل العلـــم الاجتماعـــي. وهنا كما في كافة أقسام النشاط العقلي الأخـــرى، فـــإن إســـاءة الأستخدام لا تلغى إمكانية الاستخدام. وأن النظرية الاجتماعـــية مثل تلك النظريات أو أدوات البحث الكائنة بالعلوم الطبيعية قد تســـلم نفسها بلا اهتمام أو انتباه، لاستخدامها بواسطة الجماعات المتعارضة أيديولوجـــيا، لتحقـــيق أغراض لم تكن في ذهن الباحث حيث صياغته لهذه النظريات، أو تصميمه لهذه الأدوات.

بيد أن هذا لا يمنع باحثا أو عالما أن يكون له موقف أيديولوجي. ولا يقتصر ذلك علي العلماء الاجتماعيين بل يشمل العلماء الطبيعيين أيضا، فمثلا جاليلـــيو الـــذي قـــاد نضـــالا ضد الفكر الديني وأيديولوجيا رجال الكنيسة ومهاجمـــته عـــن طـــريق التجريب للفكر الأرسطى الحليف الذي يدعم فكر الكنيســـة، فإنـــه كان يقوم في هذه اللحظة بدور أيديولوجي إلي جانب دوره العلمـــي، إلا إنـــه فـــي آدائـــه الأيديولوجي يظل ملتزما أساساً بقضايا العلم ومتطلـــباته. مثل هذا الموقف ينطبق علي كارل ماركس وتالكوت بارسونز، فهـــناك في أنساقهم النظرية قضايا علمية أساسا، إلا إنهم قد يستخدمون هذه القضايا العلمية إستخدامات أيديولوجية معينة.

بذلـــك يظـــل مؤكـــدا أن الأيديولوجيا قد تستفيد من قضايا النظرية الاجتماعـــية كـــنظرية علمية لدعم موقفها وكيانها أو تحقيق أهدافها، إلا أن النظرية العلمية لا يتوقف نموها علي إسهامات أو تأثيرات أيديولوجية معينة،

ونحـــن بذلـــك نخـــالف ما ذهب إليه أرفنج زايتلن وألفن جولدنر، وبخاصة الوضع المتطرف الذي ذهب إليه الآخير.

خامساً: الاختيار النظرى، وصف الواقع وتفسير معطياته(•)

يعــد الاختـــيار الـــنظرى أحـــد القضايا الهامة في إجراءات البحث الأجتماعـــي وذلـــك بأعتـــبار أن البحوث الاجتماعية الجادة ينبغي أن تكون موجهـــة بـــنظرية إجتماعـــية تشـــتق مـــنها فروض البحث، وتحدد مداخله ومنهجيـــته، إلي جانب أن النظرية تشكل في هذه الحالة مرجعية الباحث في عملـــية التفسير. وتثار هذه القضية بسبب الحالة التي عليها النظرية في علم الاجـــتماع، وهى الحالة التي قمنا بتشخيصها في الفصل الأول، ووصلنا فيها إلـــي نتيجة أن علم الاجتماع لم يصل بعد إلي نظريته العامة أو الشاملة. تلك الـــنظرية القـــادرة علي توجيه بحث وتفسير كل قضايا المجتمع، وهي حالة مازلنا لم نصل إليها بعد، لكن يملؤنا التفاؤل أن نصل إليها.

وبديـــلا لذلـــك فإننا نجد أن ما هو قائم الآن يتمثل في مجموعة من الـــنظريات أو بالأصح النماذج النظرية التي تلائم دراسة جوانب مختلفة من جوانـــب المجتمع، ومن ثم فإن علي الباحث ان يختار من بينها ما هو أكثر ملاءمـــة لدراســـة مشـــكلته أو قضيته. ولإنجاز ذلك نجد أن هناك مجموعة أساسية من الخطوات التي يجب أن يتخذها الباحث، وهي علي النحو التالي:

١- وتتمـــثل الخطوة الأولي في تحديد طبيعة الظاهرة التي يدرسها الباحث، هل هي من نمط الموضوعات أو الظواهر الكلية الشاملة التي ترتبط ببناء المجـــتمع ككـــل أم أنهـــا مـــن نمط الظواهر الجزئية التي تتناول بعض الموضـــوعات الأكـــثر ملاءمـــة للتحليل الجزئي أو الذري. فمثلا تعتبر ظاهـــرة الطـــلاق في المجتمع- كإحدى الظواهر التي برزت أثناء فترة الـــتحول الاجتماعي للاقتصادي، من الظواهر الكلية الشاملة التي ترتبط

(•) ألقـــي هذا الموضوع كمحاضرة علي طلاب النظرية الاجتماعية بجامعة عين شمس وسوف تعاد كتابتها في الطبعة القادمة بعد توثيقها.

ببناء المجتمع ككل، كذلك دراسة الطبقة الاجتماعية أو العلاقة بين الطبقات الاجتماعية، أو دراسة ظاهرة الحراك الاجتماعي. في هذه الحالة فإن النظرية التي ينبغي إختيارها هي من نوع النظريات الكلية أو الشاملة. كالنظرية الماركسية، أو البنائية الوظيفية أو نظرية التحديث، حيث تعد هذه النظريات نماذج للنظريات التي تعالج الظواهر الكلية أو الأبنية الشاملة بالأساس. وهو ما يعني أن الظاهرة الكلية أو المعالجة الكلية لابد أن نختار لفهمها نظرية شاملة أو كلية.

علي خلاف ذلك إذا كنا نعالج موضوعاً جزئياً أو ذرياً علي سبيل المثال دراسة التصورات المتبادلة بين البشر وبعضهم البعض. كالتصورات المتبادلة بين محبوبين في بداية علاقاتهم، أو التصورات المتبادلة بين الزوج والزوجة، أو بين السيد والخادم في هذه الحالة فنحن نتناول بالدراسة التفاصيل الدقيقة التي تحدث بين إثنين أو مجموعتين من البشر. في هذه الحالة فنحن ندرس تفاعلاً من نوع التفاصيل الدقيقة، وفي هذه الحالة فإننا نجد أن نظريات مثل التفاعلية الرمزية أو نظرية التبادل، أو نظرية المسرح لإرفنج جوفمان، أو المنهجية الشعبية لجارفنكل هي النظريات الأكثر ملاءمة لدارسة هذا النمط من التفاعل. بإعتبار ان هذه النظريات تدرس التفاعلات الجزئية بين البشر دون أن تهتم كثيراً بتتبع تطورها وحتى تأسيس الأبنية الشاملة في المجتمع.

أما إذا كنا نعالج طبيعة العلاقة بين المجتمعات علي الصعيد العالمي كعملية استغلال المجتمعات الكبيرة للمجتمعات الصغيرة علي الصعيد العالمي، أو عملية التغير والتحديث الشاملة التي يتبناها المجتمع سعيا لتحقيق التقدم. كذلك التفاعلات المعاصرة التي تحدث الآن علي الصعيد العالمي وتستهدف خلق عالم واحد ومتجانس، تارة بواسطة الاختراق الثقافي من خلال تكنولوجيا الاعلام والمعلومات، أو من خلال الفاعلية الاقتصادية للشركات متعدية الجنسية، فإنه لفهم هذا النمط من الموضوعات أو الظواهر تبرز ضرورة الاستعانة ببعض النظريات التي تهتم بالتفاعلات علي صعيد

النسق أو النظام العالمي. علي سبيل المثال نظرية إميل دوركيم لتقسيم العمل علـــي الصـــعيد الدولي، أو تصور تالكوت بارسونز للنسق العالمي بإعتباره نســقاً شاملاً تشتق منه أنساق فرعية عديدة. بالاضافة إلي ذلك هناك نظرية العولمـــة، التـــي تتطور الآن والتي تعكس تحرك بعض القوى العالمية ذات المكانـــة في النظام العالمي نحو إعادة تشكيل هذا العالم وفق نمطها، وهو ما يعني عولمة نمطها. ويمكن الاستعانة كذلك بنظرية التبعية التي تعالج العلاقة بيـــن قوى المركز والهوامش أو المحيطات، أي العلاقة بين المجتمعات التي تشـــكل قـــوى مركزية في النظام العالمي والمجتمعات التابعة لها، ثم طبيعة علاقـــات الاســـتغلال والاستلاب التي تربط بين الطرفين، أو نظرية النظام العـــالمى لولرشـــتين. وهو ما يعني أن هناك نظريات عديدة أمكن تطويرها لدراسة العلاقة بين المجتمعات التي تمتلك إمكانيات القوة بأشكالها المتنوعة، وبيـــن المجـــتمعات التـــي تفـــتقد إمتلاك هذه القوة، ومن ثم فليس عليها إلا الخضوع لها، من خلال أشكال العلاقة المتبادلة التي تقنن ذلك. ولا ينبغي أن ننســـي في هذه المناسبة الإسهامات القوية التي يمكن أن تقدمها النظرية في دراسة مثل هذا النوع من الموضوعات.

٢- وتتمـــثل الخطوة الثانية في إننا إذا تأملنا مجموعة النظريات العديدة التي تهـــتم بموضوع معين، كالظواهر الكلية أو الظواهر الجزئية أو تلك التي تقع علي الصعيد العالمي. فإننا نجد أمامنا وفرة من النظريات التي يمكنها أن تدرس ذات الموضوع، فما هو السبيل إلي الاختيار من بينها، لتحديد الـــنظرية الأكـــثر ملاءمـــة بين هذه النظريات وهنا يمكن أن نسند هذا الأختيار إلي بعدين.

ويتمـــثل الـــبعد الأول في طبيعة الافتراضات الكامنة في بنية الباحث، والتي ترتـــبط بعواطفـــه الأساســـية وتشـــكل نظـــرته أو وجهـــة نظره في العالم والموضـــوعات المخـــتلفة. وكمـــا أشرنا فإن هذه الافتراضات الكامنة تنمو وتـــتطور مـــع الباحث منذ أن كان صغيرا في أسرته، ومنذ أن تأثر بأحداث معيـــنة في سياقه الاجتماعى. بحيث نجد أن هذا الباحث بعد أن يكتمل نموه

الشخصـــي والعلمي أميل لاعتناق أفكار معينة، وإبداء وجهة نظر محددة في الأشياء. كما أنه إذا أصبح باحثا في علم الاجتماع، فإنه يكون أميل للارتباط، بفرضـــيات أو نظريات معينة، بل نجده أميل لدراسة موضوعات معينة دون اخـــرى. فهناك كثير من الباحثين الذين يميلون إلي دراسة موضوعات الدين والقـــرابة والقـــيم والـــزواج والتغير الاجتماعي، بينما يميل آخرون لدراسة ظواهر التغير الاجتماعي، العنف والصراع الطبقي، والاستغلال، وغير ذلك مـــن الظواهر المماثلة. وعلي المستوى النظري فإننا نجد بصورة تلقائية أن باحث معين قد يهتم بالنظرية الماركسية أو البارسونزية، أو أي من فرضيات ما بعد الحداثة بإعتبارها القادرة علي تفسير تفاعلات الواقع المحيط. في هذه الحالـــة فـــإن اختـــيار الباحث لنظرية معينة دون أخرى يتم بصورة تلقائية، وتتحكم فيه بالأساس الافتراضات الكامنة في بناء شخصيته والتي ترتبط بها عواطفه التي تطورت معه منذ نشأته في سياق إجتماعي بعينه.

بيـــنما يتصل البعد الثاني بطبيعة السياق الاجتماعي الذي ينتمي إليه الموضـــوع أو الظاهـــرة موضع الاهتمام بالبحث والدراسة. وقد أشرت في الفصل الأول إلي أن السياق الاجتماعي العالمي غير متجانس. إذ نجد أمامنا مجـــتمعات أو سياقات إجتماعية متباينة عن بعضها البعض في نطاق النظام العالمـــي الواحد الذي نعيش فيه. بحيث يمكن إعتبار السياق الاجتماعي أحد المعايـــير التـــي علي أساسها نختار بين نظرية واخرى. فمثلا إذا كنا ندرس موضـــوعاً ينتمـــي إلي النظريات ذات الطبيعة الكلية أو الشاملة. علي سبيل المـــثال طبيعة التفاعل الاجتماعي في المجتمع أو قضية الترتيب الاجتماعي فـــي المجـــتمع. فـــإن طبيعة السياق الاجتماعي الذي تنتمي إليه الظاهرة – بالإضـــافة إلـــي الافتراضات الكامنة للباحث بطبيعة الحال – هو الذي يمكن الاســـتناد إليه في الإختيار. ولنضرب مثالاً علي ذلك، إذا كنا ندرس طبيعة التنظيم أو الترتيب الاجتماعي في أحد المجتمعات الخليجية، فإنه من الأفضل للباحـــث الذي يتصدي لهذا الموضوع في مثل هذا السياق أن يختار البنائية الوظيفـــية، وذلـــك بإعتـــبار أن المجتمع الخليجي مازال في تنظيمه وترتيبه

الاجتماعى من نوع المجتمعات الانقسامية، التي يشبهها إميل دوركيم " بدودة الأرض" التـــي يتشكل بناؤها من مجموعة من الحلقات المتجاورة والمتماثلة. فـــي هذا الإطار فإننا نجد أن المجتمع الخليجي مثلاً، أو المجتمع الريفي في العـــالم الثالـــث عمومـــا، تتشكل مجتمعاته المحلية من الجماعات القبلية أو العائلـــية، حيـــث تشكل القبيلة الوحدة الاجتماعية الرئيسية في المجتمع، فيها الغنـــي وفيها الفقير، فيها المستغل، وفيها الخاضع لعملية الاستغلال، وبرغم ذلـــك فـــإن العلاقات القبلية أو العائلية لها أولويتها علي كل أنواع العلاقات الأخرى التي قد ترتبط بالأوضاع في المجتمعات المتقدمة. وعلي هذا النحو نجد أن الوعى العائلي أو الوعى القبلي سابق في هذه المجتمعات علي الوعى الطبقي مثلاً. ومن ثم فإذا أختار الباحث النظرية الماركسية كمرجعية يدرس بالنظر إليها ظواهر هذا الواقع فإنه يكون قد ارتكب الخطأ القاتل علي صعيد الممارســـة العلمية، ويصبح أختياره علي هذا النحو له طبيعته الأيديولوجية وليست العلمية.

٣- وتتمـــثل الخطوة الثالثة في أنه إذا كانت هناك أكثر من نظرية تعالج هذا الموضوع وملائمة لدراسة التفاعل الحادث في السياق. أو أن الموضوع الذي يتـــناول الباحث له أكثر من جانب وتعالجه أكثر من نظرية، فإنه من الممكن الاســـتفادة مـــن عدد من النظريات التي يمكن أن تساهم في فهم الظاهرة أو الموضـــوع موضع الاهتمام. غير أن الباحث في هذه الحالة إذا أستخدم اكثر من نظرية يري أنها من الممكن أن تساعده في فهم موضوع بحثه. فإن علي الباحـــث أن يعمـــد حينـــئذ إلي تشكيل إطار نظرى ينتقي من هذه النظريات القضـــايا أو الفرضـــيات التي يمكن أن تساعده في تناول الجوانب المختلفة لموضوع بحثه، غير أنه إذا حاول ذلك، فإن هناك شروط لابد أن يلتزم بها. الشـــرط الأول أن لا يكون هناك تناقض بين النظريات من حيث افتراضاتها القاعدية أو افتراضاتها الخاصة بالمجال. والثاني ان يكون هناك تناقض بين القضايا التي اختارها لتشكل بناء إطاره النظرى بحيث يراعي تأكيد الاتساق المنطقى لهذا الإطار النظرى. أما الشرط الثاني فيتمثل في أن عليه أن يدرك

أن هـذا الإطـار الـنظرى مؤقـت، ينتهى وجوده بمجرد أن ينتهي مبرر إستخدامه.

ويتكامل مع ذلك، حالة ثانية للجمع بين عديد من النظريات ولكن من منطق آخر. في الحالة السابقة يمكن أن يتشكل الإطار النظرى من نظريات متماثلة من حيث طبيعتها سواء كانت نظريات شاملة أو نظريات جزئية. أما في هذه الحالة الثانية فإننا نجد أن هناك بعض الظواهر التي تعالجها نظريات مـن مستويات مختلفة. فإذا كنا ندرس مثلاً موضوع تأثير التغير أو التحول الاجتماعـي علـي استقرار أو تفكك الحياة الأسرية. حيث نجد أن مثل هذا الموضوع له مستوياته الكلية أو الشاملة، لان هناك بعض المتغيرات البنائية علـي مسـتوى المجـتمع العام لها تأثيرها علي إستقرار الأسرة أو تفككها، إضـافة إلي أن هناك بعض المتغيرات المتصلة ببناء الأسرية ذاتها، وطبيعة العلاقـة بيـن الأعضـاء المكونيـن لها، وأنماط التصورات المتبادلة التي يطورونهـا لبعضهم البعض من خلال تفاعلاتهم اليومية. في هذه الحالة فإننا يمكـن ان نتبنـي بعض فرضيات البنائية الوظيفية أو حتى الماركسية فيما يتعلق بالمتغيرات البنائية المتصلة بالمجتمع العام وتؤثر علي الحياة والأبنية الأسرة. وفي ذات الوقت نهبط من هذا المستوى الشامل إلي المستوى الجزئى لنسـتعين بـنظرية التبادل مثلاً، في محاولة فهم شكبة العلاقات الاجتماعية داخـل الحياة الأسرية أي بين اعضاء الأسرة، وربما تتسع لندرس بواسطتها شـبكة العلاقات القرابية، أو التي تربط الأسرة بجيرانها، هذا بالإضافة إلي إمكانية الاستفادة من بعض قضايا أو فرضيات التفاعلية الرمزية لفهم التفاعل الحـادث بين أعضاء الأسرة، وكيف يساعد هذا التفاعل بصورة تلقائية علي تطوير مجموعة من التصورات المتبادلة التي تحكم سلوك البشر تجاه بعضهم البعض. فإذا كان هناك بعض الأبناء الذين أنحرفوا بسبب تفكك أسرهم، فإنه مـن الممكن الأستعانة بإحدى نظريات الجريمة أو الإنحراف، التي يمكن أن تساعدنا علي فهم الإنحرافات التي طرق سبيلها الأبناء.

٤- وتتمثل الخطوة الرابعة في هذا الصدد في ضرورة استفادة الباحث من النظرية أو الإطار النظرى في عمليات الوصف والتحليل والتفسير. في هذا الإطار تتجلى أهمية النظرية من حيث كونها تشكل الخريطة التي يسترشد بها الباحث في تناوله للواقع الاجتماعي. أو هي المنظار التي تساعده علي رؤية تفاصيل الواقع وطبيعة ترتيب هذه التفاصيل او العناصر بالنظر إلي بعضها البعض.وفي هذا الإطار فإننا نجد أن النظريات، وبخاصة النظريات الشاملة لا تختلف من حيث المتغيرات التي يتشكل منها بناء المجتمع أو واقعه. إذ تتفق كل النظريات علي أن بناء المجتمع يتضمن ذات المتغيرات التي تهتم هذه النظريات بتصوير التفاعل بينها. ففي كل النظريات الشاملة للمرحلة الكلاسيكية مثلاً (الماركسية، نظرية ماكس فيبر، إميل دوركيم، فلفريدو باريتو) نجد إدراك لوجود المتغيرات الثقافية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية، ولكن الخلاف بين هذه النظريات يكمن في تحديد المتغيرات المحورية أو المتغيرات المستقلة المحددة لطبيعة التفاعل الاجتماعي. كما تختلف أيضا في إتجاه العلاقات السببية بين هذه المتغيرات، ومن ثم إتجاه التفاعل الإجتماعى بينها. فمثلا الماركسية تعطى الأولولية للمتغيرات الإقتصادية وترى أنها مرجعية إنطلاق السببية، وأنها تؤثر علي التفاعل الإجتماعي وكافة المتغيرات الأخري، علي حين يؤكد ماكس فيبر علي المتغيرات الثقافية، بينما يذهب دوركيم إلي إبراز دور وفاعلية المتغيرات الاجتماعية. بينما نجد أن فلفريدو باريتو يؤكد علي فاعلية المتغيرات السياسية.

وأيا كانت النظرية الإجتماعية، أو الإطار النظرى الذي إختاره الباحث كمرجعية لتوجيه بحثه فإن عليه أن يوضح بداية طبيعة إختياره النظرى الذي سوف يوجه بحثه، وذلك حتى يمكن لقارئ إنتاجه العلمى أن يقرأ أفكاره بالنظر إلي مرجعيته، حتى ندرك تحيزات الباحث النظرية، ومن ثم نوفر إدراكا موضوعيا لأكبر قدر ممكن للمضانين التي قدمها من خلال بحثه. ومن ناحية ثانية حتي يترك الفرصة لغيره من الباحثين لتقييم طبيعة

إختـــياره النظرى ومدى ملاءمة هذا الاختيار. ومن ناحية ثالثة، حتى يترك لغيره من الباحثين الفرصة لتقييم أو تقدير قدرته فيما يتعلق بمدى كفاءته في إســـتخدام الاطار النظرى الذي إختاره، ومدى معقولية وقيمة التفسيرات التي قدمها الباحث نتيجة لإستخدامه لإطاره النظرى.

٥- اســـتنادا إلي ذلك فإننا نعتقد أن الباحث من الممكن أن يستفيد من الإطار النظرى الذى إختاره من خلال إبراز أوجه الاستفادة التالية:

أ - بدايـــة يستطيع الباحث الاستفادة من الأطار النظرى عن طريق توضيح أبعـــاد المشـــكلة أو الموضوع الذي تصدى لدراسته. إذ تساعد النظرية الباحـــث عادة في تحديده لمشكلة بحثه، أو لحدود الظاهرة التي يدرسها. بالإضافة إلي ذلك فهي تساعده في تحديد المتغيرات الاساسية التي تتشكل منها المشكلة سواء المتغيرات المستقلة أو المتغيرات الوسيطة أو التابعة. بالإضافة إلي ذلك فهي تساعد الباحث علي تحديد طبيعة وأنماط العلاقات الســـببية التـــي بين المتغيرات، واتجاه هذه العلاقات. إذ تساعد المعرفة القوية بالنظرية علي إنجاز هذه المهمة بكفاءة وإمتياز. بالإضافة إلي ذلك فإن النظرية تساعد الباحث علي تحديد نوعية المعطيات التي تساعده في إلقـــاء الضوء علي المتغيرات المختلفة ذات العلاقة المحورية بالقضية أو الظاهـــرة موضـــع البحث والدراسة. بالإضافة إلي ذلك تساعد النظرية الباحـــث فـــي تحديد الإجراءات المنهجية الملائمة لدراسة مشكلة البحث، ســـواء من حيث إختيار المدخل الملائم لتناول المشكلة، أو تحديد المنهج الذي يتلاءم مع هذا المدخل بإعتبار أن المنهج كما أشرنا يحدد الإجراءات والجهود المختلفة، وكذلك الخطوات التي يجب أن نقطعها لدراسة مشكلة البحث، إضافة تحديد طبيعة المعطيات التي سوف نجمعها لتصوير طبيعة متغيرات البحث، والعلاقات السببية القائمة بين هذه المتغيرات.

ب- وتتمـــثل الخطوة الثانية للأستفادة من النظرية في توجيه البحث الميداني فـــي إشـــتقاق الفـــروض والتساؤلات الموجهة للبحث الميداني من بناء

النظرية. ذلك أننا إذا تأملنا بناء النظرية فسوف نجدها تتكون من مجموعة من القضايا التي يمكن تحويلها إلي فروض او تساؤلات. وحسبما أشرنا، فإن القضية هي عبارة عن علاقة ثابتة بين متغيرين او أكثر، وانه من الممكن تحويل هذه القضية إلي فرض بجعل العلاقة الثابتة ذات طبيعة إحتمالية، او بتحويل القضايا إلي تساؤلات، او القيام بإشتقاق هذه التساؤلات منها، في هذه الحالة فإن البحث الذي نجريه ينبغي أن يتجه لجمع المعطيات التي تجيب علي هذه التساؤلات او الفروض وهنا تلعب النظرية دورها في جمع المعطيات الميدانية التي تلقي الضوء علي متغيرات المشكلة موضع الاهتمام.

ج- تساعد النظرية الباحث كذلك في عمليات الوصف للجوانب المختلفة للمشكلة موضع الأهتمام. ونعنى بالوصف عدة مستويات أولها تحديد المتغيرات التي تتشكل منها المشكلة، وأنماط هذه المتغيرات، ثم طبيعة العلاقات السببية القائمة بين هذه المتغيرات. أما المستوى الثاني، فهو وصف بناء المتغير ذاته عن طريق المعطيات الميدانية التي نحصل عليها، وما هي المتغيرات الفرعية التي قد ينقسم إليها هذا المتغير، ومكانة المتغير في بناء المشكلة. وإلي جانب هذا الوصف الاستاتيكى او المستقر للمتغيرات والعلاقات السببية القائمة بينها. فإنه من الضروري أن يستعين الباحث بالنظرية في إنجاز الوصف الدينامي أو المتفاعل لمتغيرات النظرية. بمعنى تحديد الأوضاع المختلفة التي يمكن أن يتخذها المتغير في علاقته بالمتغيرات الأخرى، والنتائج التي قد تترتب علي الأوضاع أو الأشكال المختلفة لتفاعل المتغيرات.

د – كذلك تساعد النظرية في عملية التحليل إذ أن التحليل عادة يتجه إلي تفكيك الكل إلي عناصره الرئيسية. وفي هذا الإطار فإننا نجد أن النظرية تتضمن تصورا للظاهرة أو موضوع الدراسة في وجوده الكلي. ويتشكل هذا التصور الكلي للواقع من عناصر عديدة في وجودها الثابت والديثامي أو المتفاعل. ومن ثم فإننا بالنظر إلي هذا التصور الذي تقدمه النظرية

للواقــع تقــوم بتحليله إلي عناصره الأساسية، ثم نحاول بالنظر إلي هذا التصــور أيضــا تحديد العلاقات وطبيعة التفاعلات القائمة بين العناصر القائمـــة، بحيــث يمكن أن نحلل الواقع إلي عناصره التفصيلية الواقعية، بالــنظر إلــي التصــور الكلي الذي لدينا عنه، وذلك يساعدنا علي فهم الــتفاعلات الحادثــة مــن خلال ربط أي من العناصر الواقعية بالسياق الاجتماعــي بالــنظر إلي التصور الكلي، بحيث يساعدنا ذلك علي توقع التفاعلات أو النتائج المحتملة.

هـــ- ثم يأتي في النهاية دور النظرية في مساعدة الباحث علي تفسير نتائج بحثه، أي علي تفسير التفاعلات القائمة بالنحو التي هي عليه. وإذا كانت النظرية تحدد لنا تصوريا طبيعة المتغيرات التي تتشكل منها الظاهرة أو الواقعـــة موضـــع الدراســـة، وكذلــك المتغيرات المحورية في بناء هذه الظاهـــرة، إضافة إلي العلاقات السببية بين هذه المتغيرات. فإن النظرية توضـــح لنا، أي تفسر لنا لماذا ظهرت نتائج معينة، أي تفاعلات بعينها داخل هذا الواقع. حيث توضح لنا أن نتائج محددة هي نتيجة لتفاعل بين متغـــيرات معينة في ظل ظروف محددة. بحيث يساعدنا ذلك علي توفير فهم كامل للجوانب المختلفة للمشكلة أو الظاهرة موضع البحث. وهو الفهم الذي يؤكد دائماً علي ان متغيرات معينة تعد مسئولة عن نتائج محددة في حالة تفاعلها مع متغيرات أخرى في ظل ظروف بعينها.

و - ويعتـــبر التنـــبؤ هو الوظيفة الأخيرة التي تؤديها النظرية للباحث وهو يســـتطيع ان يجـــرى هـــذا التنـــبؤ إذا هو قد حدد المتغيرات التي تشكل الظاهرة أو الواقعة موضع الدراسة، وإذا هو قد حدد العلاقات القائمة بين هـــذه المتغـــيرات، وإتجـــاه هـــذه العلاقات. إستناداً إلي المعرفة الدقيقة بالأوضـــاع الحالـــية للمتغيرات وأيضا إلي المعرفة بمعدلات نموها، فإن بإمكان الباحث أن يؤسس مجموعة من السيناريوهات التي تتنبأ بأوضاع هـــذه الظاهـــرة في المستقبل. ويمكن أن تتخذ سيناريوهات التنبؤ أي من أشكال ثلاثة، الأول التنبؤ إستناداً إلي فاعلية المتغير المستقل، حيث يقدم

تصوراً أو تنبؤا يستند إما إلي تعاظم حجم وفاعلية المتغير المستقل وتاثير ذلك علي المتغيرات الاخرى، وإستجاباتها المحتملة لتأثير المتغير المستقل أو إلـــي تقلص فاعليته أما الشكل الثاني فيتمثل في إحتمالية أن يحدث ما يمكن أن يسمى بالسببية الجماعية بين جمع من المتغيرات التي تتفاعل مع بعضـــها الــبعض بحيث يقدم كل متغير قيمة مضافة إلي التفاعل، بحيث يــؤدى تـــراكم هذه القيمة المضافة إلي إحداث تحول أو نقله نوعية في الظاهـــرة موضـــع الدراسة، قد يكون هذا التحول إيجابا إذا كانت القيمة المضـــافة ذات طبـــيعة إيجابـــية، وقد يكون التحول سلبيا إذا كانت القيم المضافة ذات طبيعة سلبية. بينما يتمثل الشكل الثالث للتنبؤ بمحاولة تحديد مدى تدخل ظروف أو متغيرات من خارج التفاعل علي الشكل الأول أو الثاني فتقدم لنا مسارات أو سيناريوهات مستقبلية بديلة.

بـــيد أننا لا ننسى أنه بإمكان البحث الواقعي أن يعدل بعض مقولات الـــنظرية إذا أدرك الباحـــث أن الواقـــع يطـــرح مجموعة من التفاعلات او المتغيرات التي ليست في بناء أو تصور النظرية، أو ليست موجودة بالحجم التي هي عليه واقعيا.

المراجـــع

1- **R. Merton:** Op. Cit. pp. 87 – 89.

2- **Dewey. Hohn:** The Theory of Inquiry, New York. Henry Hok and Co. 1938. p. 305.

3- **Ibid.** p. 85.

4- **Haye. Jerald:** Thechniques and Problems of Theory Construction in Sociology. New York. Willey. 1972. p. ‹72.

5- **Stinchcombe, Arther. L:** Constructing Social Theories. New York. Harcourt. 1968. p. 123.

6- **Mullins. Nicholas. C:** The art of Theory Construction and use. New York. Harper & Rew. 1971. p. 83.

7- **A. L. Stinch combe:** Op. Cit. p. 127.

8- **Ibid.** p. 132.

9- **W. Skiedmore:** Op. Cit. p. 249.

10- **A. L. Syinchcombe:** Op. Cit. p. 127.

11- **R. Merton:** Op. Cit. p. 13

12- **A. L. Stinchcombe:** Op. Cit. p. 247.

13- **Pareons. T:** Some Considerations on the Theory of Social Change Rural Sociology. No. 4. 1961. p. 219.

14- **R. Merton:** Op. Cit. p. 100

15- **E. Nagel:** Op. Cit. p. 86.

16- **J. Galtung:** Op. Cit. p. 451

17- **Parsons, T:** The Present Position and Prospects of systematic theory in sociology. In T. Parsons: Essays in socilogical theory. Pp. 220 – 221.

18- **P. Sorokin:** Op . Cit.

18- **R. Merton:** Op. Cit. p. 5.

19- **T. Parsons:** The Present position and prospects of systematic theory in sociology. P. 221.

20- **Ibid.** pp. 223 – 224.

21- **Ibid.** pp. 223 – 224.

22- **Ibid.** p. 224

23- **R. Merton:** Op. Cit. p. 10.

٢٤- **محمـــد عارف عثمان:** المنهج الكيفي والمنهج الكمى في علم الأجتماع في ضوء نظرية التكامل المنهجى لدراسة الظواهر الاجتماعية. رسالة دكتوراة. كلية الآداب- جامعة القاهرة، ١٩٧١، ص ٢٣٧.

25- **T. Parsons:** The present Position and prospects of Systematic Theory in Sociology. Pp. 224 – 227.

26- **Whitaker. Jan:** The Nature and Value of Functionalism in Sociology in D. Martindale (ed) Function in the Social Sciences. Philadelphia. Feb. 1965. p. 69.

27- **Sorokin. P:** Social Theory Today. London 1961. p. 404.

28- **T. Parasons:** The prospects of sociological theory. P. 354.

29- **Ibid.** p. 365.

30- **Gouldner. A. W:** Reciprocity and autonomy in Functional theory in N. J. Demerath & Richard Peterson. The free Press. New York. London. 1968. p. 145.

31- **Ibid.** p. 164.

32- **R. Merton:** Op. Cit. p. 6.

33- **Ibid.** p. 6.

34- **Ibid.** pp. 6-7.

35- **Ibid.** p. 7.

36- **Gouldner, A:** The Coming Crisis of Western Sociology. Heinmann. London. 1971. p. 153.

37- **R. Merton:** Op. Cit. p. 5.

38- **Merton. R. K:** Anomie, Anomia and Social Interaction, Contents of deviant behavior in Marshal B. Clinard (ed). Anomie and deviant behavior. A discussion and Critique, the free press. New York. 1969. p. 113.

39- **R. Merton:** Social Theory and Social Structure. P. 9.

40- **D. Martindale:** Limits and Alternatives of Functionalism in Sociology. P. 158.

41- **R. Merton:** Social Theory and Structure. P. 7.

42- **Ibid.** p. 9.

43- **Ibid.** p. 9.

44- **Alvin Gouldner,** Op, Cit. p.

٤٥- أيكن، هنرى. د

46- **Pansons, Talcott,** the Social System, the Free Press, Glencoe, II- Linois, 1951, p. 349.

47- **Hohnson, Harry, M,** Sociology, A Systematic introduction, Routledge & Kegan Paul Ltd, London, 1961, pp. 581 – 588.

48- **Bredemier, H.C & Stehenson, R. M,** The Analysis of Systems, Halt Rinehert, London, 1970, p. 310.

49- **Harry M. Johnson,** Op. Cit, p. 590.

50- **Ibid,** p. 606.

51- **Ibid,** p. 580.

52- **Talcott Parsons,** The Social Dystem, Op. Vit. P. 506.

53- **Harry M. Johnson,** Op. Cit. p. 389

54- **Alvia Gouldner,** Op, Cit, p. 9.

55- **Aron, Raymond,** Main Currents in Sociological thought, Vol., London, 1967, p. 170.

٥٦- **أحمـــد أبـــو زيد،** العلوم الإنسانية والصراع الأيديولوجي، مجلة عالم الفكر، المجلد الثاني، العدد الثاني، ١٩٧٠، ص ص ١٤١ – ١٦٥.

57- **Harry M. Johnson,** Op. Cit. p. 591.

58- **Ibid,** p. 607.

59- **Barber, Barnard,** Structural – Functional Analysis, Some Problems and Misunderstanding, Amer. Soc. Rev, Vol 21, 2, 1956, p. 132.

60- **Merton, Robert K,** Social Theory And Social Structure, the Free Press Of Glencos 1962, P. 42.

الفصل الثالث

النظرية الاجتماعية

تياراتها وعلاقتها بالواقع الاجتماعي

تمهيـــد:

أشـــرنا فـــي القسم الأول إلي أن نظرية علم الاجتماع نظرية نسقية بالأســـاس. وبهـــذا المعني فأن لها حوار وتفاعل مع الواقع بحيث يهدف هذا الحـــوار إلي تطوير قدرة الباحث علي تناول هذا الواقع بالفحص والدراسة. معني هذا أن النظرية تمثل جهداً لتفسير الظواهر الاجتماعية بنفس الأسلوب الذي فسرت به ظواهر العالم الفيزيقي بواسطة العلوم الطبيعية. حيث يحاول بهـــا العلمـــاء الاجتماعيون أن يدرسوا المجتمعات، ويطوروا القضايا العامة حول أسباب الفعل والسلوك بنفس الأسلوب الذي حاول به علماء الطبيعة بعد نيوتـــن أن يفســـروا بـــه ســـلوك المادة غير العضوية، أو كما حاول علماء البيولوجيا بعد دارون تفسير سلوك الكائنات العضوية.

بـــيد أن هـــناك معني آخر للنظرية الاجتماعية، إذ يتعلق هذا المعني أساساً بشكل المجتمع المثالي الذي يقف دائماً علي نقيض المجتمع الذي يعيشه المـــنظرون الاجتماعـــيون. إذ يؤكـــد هـــذا المعني للنظرية علي أن المنظر الاجتماعـــي علي نقيض نظيره في العلوم الطبيعية، يتناول بالدراسة مجتمعاً هو نفسه أحد جزئياته، يمسك بأنبوبة الاختبار لكي يتفحص ما فيها، وهو ذاته أحد ذرات هذه المادة وداخل نفس هذه الأنبوبة ويخضع لنفس حرارة التفاعل التـــي يتأثر بها. أنه عضو في المجتمع، ويجب أن يشكل ذلك أحد المصادر الأساســـية لفهم المجتمع، ولهذا السبب أصبح من المسلم به أن يدمج منظروا القـــرن التاســـع عشر في محاولتهم لتفسير الظواهر الاجتماعية آرائهم عن المجتمع الخير الأكثر سموا من المجتمع الكائن.

غير أن هناك معني ثالثاً للنظرية يتعلق بأنه مادام أي مجتمع يبحث عـــن نوع من الاتفاق العام، وأن هذه الاتفاق إذا كان قد تحقق في مجتمعات الماضي البدائية، بوسائل كالعرف والتقاليد والعواطف الجمعية، فإن النظرية

الاجتماعية قد حلت محل هذه الوسائل في العصر الحديث. حيث شكلت الأساس الذي يرتكز عليه الاتفاق العام، ومن ثم يسلم بها عقائدياً، ولا تعرض أبداً لتفحص نقدي لأنها تشكل من قضايا مسبقة يطلب الإيمان بها والاتساق معها، حتي تشكل مناخاً للرأي أو أساساً لأيديولوجيات شعبية شائعة. بذلك نجد أنه إذا كان المعني الأول والثاني يشكلان نطاق عمل العلماء الاجتماعيين، فأن المعني الثالث يشكل أساساً للاعتقاد والفعل بين جماهير الشعب الغفيرة(١).

بيد أن هذه المعاني الثلاث للنظرية لم تنشأ في فراغ، وإنما استندت إلي ركائز معينة قامت عليها، واستمرت هذه الركائز تؤتي ثمارها، تارة من خلال طرح أنواع عديدة لمعني النظرية، أو في خلال طرح وجهات نظر عديدة فيما يتعلق بدور النظرية ونطاق هذا الدور.

ذلك يرجع بنا إلي الوراء إلي القرن السابع عشر والثامن عشر، أو عصر التنوير وكذا التيارات الفكرية التي سادت هذه الفترة كرد فعل – وإن كنا متعسفين في ذلك – للثورة الفرنسية، والأحداث التي سادت أوربا فيما قبل الثورة. ذلك أننا نعرف أن هذه الثورة السياسية قامت بها البورجوازية ضد الطبقة الأرستقراطية، وأطاحت بها. وبنوع الحكم الملكي المستبد المطلق. ومن ثم فقد كان طبيعياً أن تحدث استجابة ورد فعل متباين من قبل الشرائح الاجتماعية المختلفة تجاه هذا الفعل الواحد الذي طرح تأثيراً متبايناً عليها. ومنهنا وجدنا ثلاثة مواقف، موقف محافظ يتمسك بما هو قائم ويطلب عودة الأمور إلي ما كانت عليه لأن ما حدث خرق للقانون الإلهي وإطاحة بملك استمد حقه في الحكم من الله. وموقف نقدي ثوري، يؤكد أن قدر الإنسان هو صانعه، وأن الإنسان هو الذي يخلق تاريخه عن طريق إلغاء كافة تناقضات الواقع الكائنة لان الواقع ممتلئ دائماً بالسلب، وأن الواقع يحمل دائماً إمكانية المستقبل، وعلينا أن نفتش عن إمكانية مجتمع المستقبل الكامنة في قلب التناقضات الكائنة عن طريق إلغائها. وكان هذا الموقف يمثل تطرفاً مضاداً للموقف المحافظ المتطرف أيضاً. إلا أن هناك موقفاً ثالثاً نشا

لــيؤكد أنــنا من الآن فصاعداً علينا أن نتناول أمورنا ليس بصورة عشوائية نعيش في ظلها تارة تحت ملوك يستغلون وأخري تحت نير فيضان ثوري لا نعــرف مــداه، إنــنا يجب أن نتناول أمورنا بصورة منظمة، أعني بصورة منهجــية تراعي أن الإنسان يمتلك عقلاً يفكر به إلا أنه يعيش واقعاً يجب أن يــأخذه هذا العقل في اعتباره. فهو موقف لا يدين الملكية أو يبرر الثورية أو العكس. وإنما ينادي بالموضوعية، كان هذا الموقف هو موقف الوضعية.

علــي أن الواقع يؤكد أن هناك ثلاثة مواقف كان لها تأثير علي أي فكــر بشــان المجــتمع أن هناك ثلاثة مواقف كان لها الموقف الأول وهو الموقف المحافظ. الذي يطلب الرجوع بالمجتمع إلي ما قبل الفوضي الثورية، يمــثله كثــيرون مــن أمثال أدموند بورك الذي عاب علي الثوريين معاملة المجــتمع كالآلــة، ينزعون منها أي جزء ويضيفون آخر، وهم في نزعتهم وإضافتهم هذه يتصرفون وكأنهم أصحاب الحق المطلق في هذا المجتمع. أننا نؤكــد لهم – أي للثوريين – أن المجتمع ليس مجتمعهم الحاضر فقط والذي يحطمونه بفعلهم الثوري، إنه سلسلة لا نهاية لها من الأجيال، يرث كل جيل ما سبقه، وما هم إلا أحدي حلقات هذه السلسلة. من هنا فجيل الثورة ليس له الحق في أن يحطم كل عادات ونظم لا تنتمي له لأنه لم يخلقها. ولكنها ترتبط بالأجيال السابقة وربما بالأجيال المستقلة، فليس هناك من أعطي الحق لستة وعشــرين ملــيوناً مــن الفرنسيين لأن يعتبروا أن لهم السلطة علي ماضي وحاضر ومستقبل المجتمع. إن كل جيل يضيف إلي ما هو موجود وينقل ما هــو موجــود إلي الجيل القادم. أما الدولة التي يريدون أن يطيحوا بها فهي مــتداخلة فــي كل شيء أيضاً، في العلم، والفن، وفي إسهام الأجيال ومن ثم فلــيس مــن حق هذا الجيل أن يلغي هذه الشركة. فهي نتاج عضوي لعملية طويلــة مــن النمو... إنها ليست مصالح مادية ولكنها روابط روحية تربط أعضاء المجتمع بعضهم ببعض، هذه الروابط قد تكون خفية وغير محسوسة كــالهواء إلا قــوة حلقات الحديد. بذلك أراد بورك وهو يمثل كل المحافظين أصحاب الموقف المضاد للثورة الفرنسية أن يحافظ علي الحريات التي ورثها

عـــن آبائـــه السابقين ولأنه صاحب مصلحة في ذلك، فلم ير فيما حدث في فرنســا خلال هذه الفترة إلا حكم الرعب في زمانه، ويتساءل زايتلن لقد كان الواجــب علب بورك أن يري حكم الألف سنة من الرعب التي سبقت الثورة والتي قادت إلي هذا البركان الثوري الذي أثار الرعب فيه [٢].

يبقـــي في الساحة بعد ذلك موقفان، الموقف المثالي النقدي، والموقف الوضعي الإيجابي العلمي، أما الموقف المثالي فينبع من داخل الفليسوف ومن ذاتـــه خارجاً إلي عالم الأشياء ، بينما الموقف الوضعي علي عكس ذلك يبدأ الشوط من عالم الأشياء لينتهي إلي باطن الفليسوف وذاته، الأول ينتهج منهجاً ذاتياً، والثاني يصطنع المنهج الوضعي الذي يبني لبناته من حقائق الواقع[٣].

كلاهما موقف يهدف إلي فهم الإنسان، كلاهما يتخلي عن البحث في الغيبـــيات أو فـــيما وراء الطبـــيعة، ومن هنا وجدناهما علي اختلافهما في الموقـــف التصـــوري والمنهجـــي يتفقان في مجال البحث من حيث الطبيعة والـــتاريخ، هـــذا إلـــي جانب تسليمها بأن العالم تطوري سائر إلي الأمام لا ســـكوني ذو حقـــائق ثابتة أو جامدة. وإذا فليس صواباً أن يقال عن وضعية القرن التاسع عشر أنها رد فعل للحركة المثالية التي سادت النصف الأول من ذلك القرن لأن الحركتين قد سارتاً جنباً إلي جنب. وليس صحيحاً أن يقال أن الوضعية كانت موقفاً طبقياً مهاجماً علي جبهة ومدافعاً علي أخري، ذلك فيه تبســـيط للأمور وإخلال بمعان أساسية. فقد كانت حركة علمية لها جذورها.. في الفكر المتراكم السابق عليها، ثم هي حركة فلسفية إلي واقع الإنسان لذلك نـــري ضـــرورة أن نعرض لهذين الموقفين، الأول هو الموقف المثالي، كما عرض له هيجل ثم امتداداته في الماركسية، الثاني هو الموقف الوضعي من خلال التعبير الكونتي عنه. وفيما يلي استعراض موجز لملامح كلا الموقفين:

أولاً : الفكر المثالي : أصوله وعلاقته بنظرية علم الاجتماع

عـــادة ما نسمي تياراً فكرياً بكونه مثالياً استناداً إلي أنه يدرك ما هو موضوعي بالنظر إلي ما هو مثالي. ذلك يعني أن الفكر المثالي يدرك العالم

الواقعي بالنظر إلي التصور العقلي له. حيث نجد أن ذلك قد تردد في فلسفات كانت وهيجل وغيرهما من المثالين في كافة العصور.
وفي الصفحات التالية نعالج الفكر المثالي عند فلهلم هيجل، وهي المثالية التي تستند إلي المنهج الجدلي، ذلك يفرض علينا ضرورة تحديد معني الجدل. البحث في ذلك يؤكد أنه عادة ما يعبر عن الجدل في اللغة اليونانية بالكلمة Dialegein ،ويعني جادل. فهي تعبير عن صراع الأفكار، ولقد ورد استخدام هذا المصطلح عند فلاسفة اليونان من أمثال هيراقليطس، وزينون الايلي، وسقراط وغيرهم(٤).

بيد أننا إذا أمعنا النظر في الفارق بين الجدل عند فلاسفة اليونان والجدل في العصر الحديث كما ظهر عند هيجل لوجدنا اختلافاً واسعاً. فهو عند اليونان مجرد طريقة للبحث والحوار أو أسلوب من أساليب العرض الفلسفي، دون أن تكون له أدني علاقة بحركة الأشياء أو صراع الواقع. ذلك لأن الجدل كان عندهم حركة فكرية وأسلوباً من أساليب المقال، دون أن يكون لهذا الأسلوب أو لتلك الحرية أية إحالة إلي الواقع نفسه وما له من طابع حركي.

فإذا كان تطور الفكر الجدلي المحدث علي بدايته يؤكد أن له صلة بحركة الواقع الحية المتفاعلة، وهو لن يتوقف عند كونه منهجية مقال أو حجاج ومن ثم. فإنه من الضروري أن يحتوي هذا التيار الفكري علي تصور معين لهذا الواقع المتصل به. وبذلك سوف نحدد معالجتنا علي محورين: المحور الأول نتحدث في إطاره عن خصائص أو سمات التصور المثالي، أما المحور الثاني فنتحدث فيه عن أسس المنهج الجدلي.

(١) خصائص التصور المثالي:

إذا كنا قد أشرنا إلي أن السمة الأساسية للفكر المثالي هو صياغة العقل لمثال يطلب من التفاعل الكائن بالواقع التطابق وهذا المثال، فإذا ما اقترب الواقع من التطابق معه، تخلق مثال عقلي جديد يطلب من الواقع الجديد تطابقاً جديداً أيضاً. فأنه امتداداً لذلك نجد أن الفكر المثالي الذي سوف

نركز عليه، هو المثالية الهيجلية في القرن التاسع عشر بالتحديد، ويرجع ذلك لأمرين، الأول أن هذا التيار من الفكر بلغ من الأهمية في تاريخ الفلسفة حداً جعلــه مصدراً لأهم الاتجاهات الفلسفية المعاصرة، إما بالتأييد، وإما بالتفنيد. ذلك أننا لا نكاد نجد فلسفة من فلسفات العصر لا تبدأ من هيجل، مناصرة له في أقل الأحيان، معارضة له في أكثرها. فلم يقتصر تأثيره علي (الماركسية) أو " الوجوديـــة أو "البراجماتية" وهي اتجاهات ثلاثة من أهم اتجاهات الفكر المعاصـــر، بـــل شـــمل كذلك الحركات الفلسفية الأخري التي هي من شأن محترفي الفلسفة ولا تتجاوزهم إلي سواد المثقفين، ومن ثم فهي لا تشكل ثقافة عامة(٥).

أما الأمر الثاني لاهتمامنا بالمثالية الهيجلية فينبثق عن دورها المؤثر علـــي نشأة نظرية علم الاجتماع. حيث شكلت هذه الفلسفة أساساً فكرياً ثورياً للموقف النقدي الذي تذرعت به واستندت إليه الطبقات البروليتارية في فترة مـــا بعـــد الثورة الفرنسية. بحيث نادت هذه الفئات بالقضاء الكامل علي بناء المجـــتمع القائم، والبحث عن ما هو كامن وكامل بداخله. ومن ثم وقفت هذه الفـــئات الـــثورية من الوضعية موقفاً مضاداً، متهمة إياها بأنها تمثل فلسفة هؤلاء المنسحبين – بحجة العلم – من ساحة الصراع والمشاركة الاجتماعية، أو بـــناء عليها وقفت أمام الجماعات الرجعية التي تطالب بإعادة ترميم بناء المجتمع لاستعادة حالته التي كان له قبل قيام الثورة الفرنسية. والمدهش في الأمـــر أن كلا الموقفين استند في برهنته إلي الفكر المثالي وبخاصة المثالية الهيجلـــية. هذا بالإضافة إلي أن المثالية الهيجلية، التي شكلت أساساً للنظرية الماركســـية ألهمـــت إلـــي حد كبير فكر التغير الاجتماعي، خاصة التغيرات الثورية الراديكالية في علم الاجتماع. إذن ما هي خصائص التصور المثالي الهيجلـــي؟ باستعراضنا لخصائص هذا التصور نجد أنها أربعة الوحدة الكلية الشاملة، التي تبحث عن اكتمالها عن طريق فض تناقضاتها، وثانيتها التصور العضوي للوجود الشامل. والثالثة تتمثل في التطور التاريخي المتفاعل، سعياً

لمـــثال أكثر تكاملاً. والرابعة أن العقل أو الفكر، هو قائد عملية التفاعل لكي يتسق الواقع مع المثال وفيما يلي تفصيل لكل من هذه الخصائص.

أ- الوحدة الكلية الشاملة كأساس للإدراك المثالي

كما هو مؤكد يؤدي التفحص الدقيق للفكر الهيجلي إلي إدراك إيمانه بـــالوحدة الكلية الشاملة للوجود، ومن هنا فإن أية وقائع منفصلة عن بعضها البعض ترتبط – علي يد هيجل – بالمبدأ الأوحد الذي يفسرها ويبرزها جميعاً وبذلك لا يعود كل منها مطلق قائم بذاته، أو حقيقة مستقلة مكتفية بذاتها. ذلك لأن الحقـــيقة الأولـــي في نظر هيجل هي الكل وأن الأخطاء لا تخرج عن كونهـــا وجهـــات نظر جزئية. أو وقائع فردية منفصلة. ذلك لأنه من طبيعة الحياة أن بها ميلا لتحطيم ما هو منفصل ومعزول ومجرد – سواء كان ذلك علـــي صـــورة موضوعية أو ذاتية – بل أن كافة الوقائع في الطبيعة والفكر معـــاً، لهي بمثابة أوجه مختلفة لتلك الحقيقة الكلية الواحدة التي يسميها هيجل باســـم (المطلق) [٦] . بذلك نجد أن جوهر الطبيعة والتاريخ عند هيجل إنما هـــو كلـــي يتكشـــف من خلال ما هو جزئي، أن الكلية هي العملية الطبيعية للجـــنس كما يتحقق من خلال النوع والأفراد. والكلية في التاريخ هي جوهر كـــل تطور، فدولة المدينة اليونانية، والصناعة الحديثة، والطبقة الاجتماعية، كل هذه الكيانات هي قوي تاريخية فعلية لا يمكن ردها إلي مكوناتها، بل أن الوقـــائع والعوامـــل الفردية ، علي عكس من ذلك، لا تكتسب معناها إلا من خـــلال الكلي الذي تنتمي إليه. فالفرد يتحدد لا بصفاته الجزئية ولكن بصفاته الكلـــية، مـــثل كونـــه مواطـــنا يونانـــياً، أو عـــاملاً فـــي مصنع حديث أو بورجوازي[٧]. وذلك أنه حينما أكد هيجل علي الكلية وجعلها معقلاً للحقيقة، فأنـــه كـــان حينئذ يعبر عن اقتناعه بأن أية صورة جزئية معطاة سواء في الطبـــيعة أو في المجتمع لا تتضمن الحقيقة كاملة. هذا بالإضافة إلي أن هذه الكلية تعد وسيلة للتنديد بانعزال الناس عن الأشياء، والاعتراف بأن إمكاناتهم لا يمكن أن يحتفظ بها إلا بإعادة التكامل بينها[٨].

بـــيد أن الكلـــية الهيجلـــية إلي جانب أنها كلية كائنة إلا أنها ليست مقتصـــرة علـــي هذه الكلية الكائنة، بل أنها كلية متكاملة يسعي إليها التفاعل الجدلي بين العناصر الأجزاء. والتي عند بلوغها سوف ينتهي عندها تفاعلها النقضـــي، فهي إلي جانب أنها كلية ما هو كائن ونعايشه فهي أيضاً الممكن والمرغوب، والذي نسعي إليه.

ب- التصور العضوي الشامل للوجود .

وتتصـــل هـــذه الخاصية الثانية بالخاصية الأولي، إذ يبدو الكون من وجهة نزر هذا التصور باعتباره كائناً عضوياً حياً ذو رغبات وأهداف. وكما نستطيع أن نفسر سلوك الكائن العضوي إذا ما عرفت رغباته وأهدافه فكذلك نستطيع تفسير ظواهر الكون وتغيرات التاريخ وتطورات الأنظمة إذا عرفنا كيف يكشف الروح الكوني عن نفسه وإلي أي هدف يتجه(٩). ويؤكد التصور العضـــوي فـــي الفلسفة الهيجلية أيضاً علي ضرورة قيام علاقات ترابط بين جزئـــيات الوجـــود وذاتـــه، بحيث أن حركة التغير في أحد أجزاء هذا الكل الشامل، إنما تكمن أسبابه في هذا الكل أو في أي من أجزائه، وأن تغيره إنما هـــو تطوير نحو اكتمال هذا الكل، وأن التناقضات التي قد تنتاب وحدة هذا الكـــل، إنما هي خطوات تمهد لهذا الكل طريق التجاوز والارتقاء نحو وحدة كلـــية أشمل وأرقي واكثر اكتمالاً. ذلك أنه إذا كان هيجل قد جعل من مفهوم الكـــل مفهوماً أساسياً من مفاهيم منهجية الجدلي، وذلك بأنه قد فطن إلي أن (الحقـــيقة هـــي الكل) وأن المنهج الجدلي إنما يعني في النهاية إدماج سائر الأشـــياء فـــي الوحـــدة الأشمل، وأن العالم – في نظر هيجل – يمثل وحدة عضوية بالإضافة إلي أن أي جزء من أجزائه إنما هو عضو جزئي في هذا الكـــل العضـــوي(١٠). بـــيد أننا لابد وأن نوضح أن هذا التأكيد علي الوحدة العضـــوية للكـــل، تلك التي تعد إحدى خصائص التفكير الهيجلي لم يكن من نتاج هذا التفكير وحده، فإلي جانب أن جذورها تمتد إلي الفكر اليوناني القديم بـــل والفكر اليوناني القديم بل والفكر الشرقي القديم أيضاً، فأنها كانت تمثل إحـــدي مقولات المناخ الفكري في مرحلة القرن الثامن والتاسع عشر، وذلك

تحت تأثير الفكر التطوري والفكر الموسوعي الذي يرسم صورة للمجتمع والعالم علي أنه مثل الكائن العضوي في مولده ونموه وموته. بل إننا نجد هذا التقسيم نفسه عند هيجل حينما يؤكد أن التاريخ ينقسم إلي أربعة فترات هامة كل منها ذات صلة بمرحلة من مراحل الحياة الفردية. فعنصر الحضارة الشرقية يتوافق مع مرحلة الطفولة، بينما نجد أن الحضارة الإغريقية تعبر عن شاب المجتمع. أما حضارة روما فهي تعبير عن رجولة الإنسان، بينما نجد أن الحضارة الأوربية في زمان هيجل تعبير عن النضج البشري(١١). بيد أننا يجب أن نلاحظ أن حالة الاكتمال والنضج الأخير، هي الحالة التي تسعي إليها الحضارة دائماً وفقاً للمشروع الهيجلي بعد أن تكون قد تخلصت من كل صراعاتها وتناقضاتها الجدلية.

وفي الحقيقة فأننا نجد أن هذه الخاصية تعد من أهم نقاط البدء لأهم فلسفات عصرنا، وهي الفلسفة الوجودية لكيركجادر ، الذي ثار علي هيجل ونسق الفكر الذي يجعل من الوجود كله كائناً عضوياً واحداً، فقد أفزعه – علي حد قوله – أن يري نفسه فقرة من فقرات هذا الكائن الكبير، لا ينفرد وحده بوجود خاص يمارس فيه إرادته الحرة وشخصيته المستقلة(١٢).

ج- التطور التاريخي المتكامل سعياً لمثال أكثر تكاملاً.

تشكل هذه الخاصية البعد الدينامي المتفاعل في عملية الانتقال من أحد أشكال الوحدة الكلية إلي أشكال كلية أخري أكثر تكاملاً وارتقاءاً. وهو يبني هذا الانتقال من خلال حركة التناقض والنفي الجدلي. فقد أكد هيجل مراراً علي أن الوعي ينمو من خلال الفكر التأملي علي مراحل، وأن الحقيقة أو الصدق هي العملية التي يعتبر فيها الموضوع والذات مجرد وجوه لها. فالوعي الفردي عبارة عن عوارض في تطور عالم الروح، والتاريخ ذاته هو نمو لوعي النوع الإنساني، والفكر ما هو إلا ناتج نهائي لهذه العملية الشاملة(١٣).

ذلك أن الكون من وجهة نظر المذهب الهيجلي كله بجميع ما فيه كله بجميع ما فيه ما هو إلا تعبيراً عن (روح العالم) أو (الفكرة المطلقة) أو إن

شئت فقل (المطلق) علي سبيل الاختصار. هذا المطلق يكشف عن نفسه في مظاهــر العــالم كما تقع في حواسنا، فلئن كان العالم المحسوس متطورا من مــراحل أدنـــي إلـــي مــراحل أعلي، فما ذلك إلا تطور في كشف (الروح المطلق) عن نفسه كشفاً متدرجاً ،كأنما هو الشريط المنطوي علي نفسه يبسط نفســه بسطاً ليبدو ما كان منه خافياً. هذا الكشف عما هو خاف لا ينجزه إلا تــناقض وتطور وتغير، فهيجل لم يعد يرضيه المنطق الأرسطي السكوني، لأنه لا يصور الحقيقة المتطورة، واستبدل به منطقاً تطورياً يقابل به الحقيقة كما تصورها. فإذا كان شيء(أ) سيتغير بحيث يصبح شيئاً أخر (ب) فلابد أن تكــون عناصر (ب) كائنة في (أ) ليمكن خروجها منها، وإذن فقد كانت (أ) محتوية علي شيء غيرها، أي محتوية علي نقضيها. وبهذا يجتمع النقيضان في كائن واحد علي خلاف المبدأ الأرسطي. كيف للشجرة مثلاً أن تخرج من الــبذرة إن لم تكن البذرة محتوية علي ما ليس بذرة؟ وكيف يمكن للرجل أن ينشأ عن الطفل إذا لم يكن الطفل محتوياً علي ما ليس طفلاً؟ وهكذا.

كان هذا المنطق التطوري، أو الجدلي كما يسمونه، هو محور الفلسفة الهيجلـــية، ذلك لأنها تذهب إلي القول بأن في الكون روحاً مطلقاً يكشف عن نفسه وفق نمط تطوري أو جدلي، وهو نمط قوامه أن تكون الخطوة الأولي- ويمكن تسميتها بالوضع – كاشفة عن صفة ما، ثم تتلوها خطوة ثانية – وهي نقــيض الوضع – كاشفة عن صفة ثانية، وأخيراً تجيء مرحلة ثالثة – هي التقاء الطرفين – تدمج الوضع ونقيضه في كائن واحد، ثم يصبح هذا الدمج (وضعاً) يتلوه (النقيض) فدمج جديد[١٤]، وهكذا حتي يبلغ التفاعل كماله.

ثم يطبق هيجل ذلك علي نظم، وأشكال تاريخية يتقمصها هذا الروح المطلـــق، بحيث نجد أن كل نظام يحمل في ذاته بذور فنائه ووسائل القضاء علي ذاته، وتحوله إلي نظام يناقضه ثم يفني هذا الأخير ليتولد ثالث يجمع به كلا النظامين السابقين. ثم يأتي نظام ضد هذا النظام[١٥]، ويجمعها تالف ثالث أكــثر اكتمالاً وتطوراً. ويطبق هيجل ذلك علي تاريخ الإنسان ومساره علي ســلم التطور ابتداء من العالم الشرقي القديم إلي العالم الحديث. حيث يجعل

الإنســـان نفســـه الموضوع الفعلي لهذه العملية التاريخية. فعن طريق سلب الإنسان لكل شكل تاريخي للوجود، يعد قيداً علي إمكاناته، فإنه يحصل نتاجاً لذلك علي الوعي الذاتي بالحرية(١٦). وتستمر هذه العملية التي تتضمن أساساً نفـــي الأشكال التاريخية التي تقيد هذه الحرية، وكل شكل يولد نقضيه ، الذي يلغي بدوره بشكل آخر ثالث يجمع أكثر صفات النقيضين كمالاً ، حتي نصل إلي اكتمال نهائي للوجود عن طريق هذا النمو الجدلي.

إلا أن التصوير الهيجلي للتطور، علي أساس أن العمليات التي تهتم بنفـــي النفـــي لا تضيف إلي أي منهما شيئاً عن كيف يحدث أو كيف حدث الانـــتقال أو التحولات من شكل إلي آخر. هذا الإضافة إلي أن ما يدعي أنه ينتج من خلال النمو الجيني أو من خلال الانتخاب الطبيعي هو سلب إنما هو تشـــبيه شـــاعري. ذلك أن ما تشترك فيه كافة العمليات التطورية ليس سلب الأشـــكال الأولـــي أو السابقة، ولكن تحويلها فقط . ولكي تثبت أو تؤكد علي تواجد مثل السلسلة التطورية فإن صلة ما ينبغي أن يحافظ علي بقائها.حقيقة أن الـــناتج النهائي لسلسلة التطور قد لا يحمل أي تشابه والأشكال الأولي في السلسة. ومع ذلك فليس هناك تبرير إمبيريقي معقول لافتراض أن كل سلسلة تطوريـــة يجب أن تنتج عن تغيرات عنيفة دون النظر إلي طول المدي الذي تستغرقه سلسلة التطور. فبالطبع لا يستطيع أي منا أن يمنع هيجل من القول أن عقلاء البشر هم نفي لبشر النياندرثال، إلا أن مثل هذه المحاورة اللغوية لم توضـــح بصـــورة أوضـــح الشروط المسئولية عن تطور الأنواع الإنسانية الحديـــثة. وبالمـــثل فليست هناك فائدة يمكن أن نحصل عليها سوي نوع من الإثـــارة الشـــاعرية حيـــنما يقرر ماركس وإنجلز أن ظهور ملكية الأرض الخاصـــة يعـــبر عـــن نفي الملكية الشرعية البدائية، وأن الملكية الشيوعية الاشتراكية هي نفي النفي.

ثـــم يعيب مارفن هاريس علي هجيل أنه وقع فيما وقع فيه أوجست كونت حينما أراد أن يستشهد علي تصور بتاريخ المجتمع الأوربي فقط،،ذلك لانـــه كـــان ينظر بحطة إلي هذه الشعوب. إذ يؤكد أنه بالرغم من أن هيجل

يتلطف باعتباره الهند والصين خليقتين بالاهتمام والعراقة، إلا أنه كان مقتنعا بـــان هذه البلاد ليس لديها تلعبه في الشئون الدولية، لأسباب متعلقة بالروح فقـــط. إذ أن تاريخ العالم يرحل من الشرق إلي الغرب، حيث أن أوربا هي نهايـــة الـــتاريخ بصورة مطلقة، بينما أسيا هي البداية، وأن الخطوط العامة الموجهـــة لهـــذه الحـــركة تطرح بواسطة نمو الوعي بالحرية، إذ نجد بين الشـــرقيين رجـــل واحد فقط هو الذي يمتلك الحرية، بينما عند الإغريق نجد حفـــنة هي التي تمتلكها، والآن يعرف العالم الألماني أن الكل أحرار. وتكمن المعضلة النهائية في هذه الصياغة، أن مفسري هيجل لم يتفقوا إلي الآن علي أن نوع من الدولة الألمانية تلك التي نعدها الهدف النهائي للتاريخ، تلك التي تؤمـــن الحرية للمجتمع، إلا أنه يبدو أن هيجل اعتقد أن العسكرية البروسية هي النسق أو النظام الذي يعيش الجميع في كنفه أحراراً [١٧].

د- العقل أو الفكر، هو قائد عملية التفاعل لكي يتسق الواقع مع المثال

تعـــد هذه الخاصية جوهرية في الفكر المثالي، ذلك لان هذا الاتجاه يعـــيش فـــي نعو من التطهر الذي لا تدنسه أمور الواقع، فهو أكثر ارتباطاً بالفكـــر وأكثر التزاماً به، إلا أن هذا لا يعني إغفال ما بالواقع أو وإسقاط أية أهمـــية عنه بل يعني طلباً دائماً لترقي هذا الواقع وفقاً لمثال يصوغه العقل. هذا المثال الذي استقه لكونه إمكانية دائمة متضمنة في هذا الواقع.

مـــن هنا نستطيع أن نؤكد المنطلق الهيجلي ليس مجرد علم للقواعد التـــي تفرض نفسها علي التفكير الذاتي، بل هي بمثابة النسيج العقلي للواقع، ولعل هذا ما حداً ببعض الباحثين إلي القول بأن منهج هيجل الجدلي أنما هو تعبـــير عـــن أعلـــي طموح للعقل في سعيه نحو الالتقاء بذاته في كل شيء والـــتعرف علي نفسه في كل شيء[١٨]. إلا أن هذا العقل ليس ملكه توجد في الفرد ليقتبس بها العادات والنظم فقط، بل هو موروث في عملية النمو ذاتها. وهـــذا يلقي ضوءاً علي فكرة هيجل (أن ما هو عقلي حقيقي وما هو حقيقي عقلـــي). فالعقل ليس كما اعتبره الفلاسفة تجريد عن الواقع، أنه قدرة فطرية وضرورية تحدد بناء ونمو الكون، وبهذا الأسلوب يجعل هيجل من العقل قوة

كونـــية عظـــيمة يسميها بالروح، بالفكرة أو المطلق أو الله، العقل بذلك ليس جوهـــرياً ثابتاً، ولكنه في حالة إمكان ونمو دائم فضلاً عن أنه عملية كونية ومنطقية ولا شخصية تفوق نطاق ما هو اجتماعي ونطاق ما هو طبيعي(١٩). بـــل أن حـــياة العقل ونموه وتحققه بالنسبة لهيجل تتمثل في صراع الإنسان الدائم من أجل فهم ما هو موجود وتشكيله وفقاً للحقيقة المفهومة.. كذلك فأن العقـــل قوة تاريخية أساساً، متحققة بوصفة عملية متطورة في العالم الزماني والمكانـــي، وهو في نهاية المطاف ليس إلا التاريخ الكامل للبشرية.. واللفظ الـــذي يشـــير إلـــي العقل تاريخياً هو الروح الذي يدل علي العالم التاريخي مـــنظوراً إلـــيه فـــي علاقته بالتقدم العقلي للإنسانية،أي العالم التاريخي ليس بوصـــفه سلسلة من الأفعال والأحداث، بل بوصفه صراعاً لا ينقطع من أجل تشكيل العالم تبعاً للإمكانيات البشرية المتزايدة.

وهكذا يرتب التاريخ في عصور متباينة، يدل كل منهما علي مستوي خـــاص للـــتطور، كما يمثل مرحلة معينة في تحقق العقل، ولابد من فهم كل مـــرحلة من حيث هي كل، من خلال أساليب التفكير والحياة السائدة المميزة لها، أو من خلال نظمها السياسية والاجتماعية، وعلمها ودينها وفلسفتها. وإذا كـــان تحقيق العقل يمر بفترات متباينة، فإنه لا يوجد مع ذلك إلا عقل واحد مـــثلما لا يوجـــد إلا كل واحد وحقيقة واحد (٢٠). يعني ذلك أن تحقق العقل وتغلغلـــه مـــن خـــلال الواقـــع والتاريخ يؤكد احتواء هذا العقل علي الكلية والشـــمول والـــثراء ذلك لأن تأكيد العقل معناه إعلان أن أفعال الإنسان هي أفعال ذات مفكرة تسترشد بالمعرفة التصورية. وفي استطاعة الذات المفكرة، إذا اتخـــذت مـــن التصورات أدوات لها أن تتعمق وراء الظواهر العارضة وتتغلغل في الأساليب الخفية للعالم، فتصل إلي القوانين الكلية الضرورية التي تحكم الموضوعات الفردية اللانهائية وتنظمها وهكذا تكشف الذات المشتركة عن إمكانات كثيرة بين كم هائل من الجزئيات. وهي إمكانات تفسر الأشكال المتغـــيرة للأشـــياء وتحدد المدي الذي تبلغه في مسارها واتجاه هذا المسار، وحينئذ تصبح التصورات الكلية أداة لمسلك عملي يغير العالم، وقد لا تظهر

هـــذه التصورات إلا من خلال هذا المسلك العملي، وقد يتغير مضمونها كما تقدم ولكنها لن تكون متوقفة علي المصادفات، ذلك لأن التجريد الحقيقي ليس اعتباطياً،ولــيس هـــو نتاج الخيال الحر المنطلق، بل هو يتحدد تماماً بالبناء الموضــــوعي للواقـــع[٢١]، والحـــق أن القول بأن العقل يتحدد بواسطة البناء الموضــــوعي للواقع، إنما هو قول ينفي أي اتهام بانفصال فلسفة هيجل عن الواقـــع. ذلك لأن العقل إذا تغلغل بناء علي مقولات معينة في الواقع،فأن هذا الأخـــير يكـــون قد أسهم بقدر واضح في صياغة هذه المقولات، وعلي ذلك ينبغـــي أن يخضـــع الفكر لما هو معطي ولحقائق الواقع[٢٢]. ومعني ذلك أن الجدل يميل إلي وصف شتي ضروب التنافر الشائعة في عالم الواقع. وهنا لا يكـــون الدياليكتـــيك مجـــرد جدل محض يقوم علي علاقة التناقض، بل نراه يســـتحيل إلـــي دراسة تكشف لنا عن ضروب الصراع القائم في دنيا الواقع. والمؤكد أننا إذا نجحنا في الامتداد إلي ما وراء العمليات المنطقية التي صاغ مـــنها هيجل كل استدلالاته الجدلية، لما وجدنا صعوبة كبري في الكشف عن (جدل الواقع) فيما وراء (جدل الفكر) . ومعني هذا أن صراع الأشياء يكمن وراء (تـــناقض التصورات) بحيث أنه بمجرد أن ينجح الباحث في اختراق قشرة ذلك (الجدل التصوري) القائم علي التناقض، فأنه سرعان ما ينفذ إلي صـــميم بـــناء الأشياء، لكي يتحقق من أن " التنافر" هو المبدأ الواقعي الذي يعمـــل عملـــه في باطن هذا العالم[٢٣]. ومعني هذا أيضاً أن الحركة الجدلية لتاريخ الفلسفة (وهي تلك الحركة التي نفضي في النهاية إلي الحقيقة الحاسمة المطلقة، إنما هي انعكاس للحرية الجدلية للتاريخ الفعلي للواقع[٢٤].

ب- أسس المنهج الجدلي

إذا كـــنا قـــد حددنا الخصائص الرئيسية للتصور المثالي، فأننا نري لزومـــية أن نحدد أيضاً الأسس المنهجية التي استند إليها التصور المثالي في بـــناء مقولاته السابقة. حقيقة أن الفصل تعسفي أحياناً، وذلك أن المقولات أو القضـــايا التصـــورية في الأنساق النظرية عادة ما تكون متداخلة مع الأسس المنهجـــية ذات الطبـــيعة الإجرائية، أعني أن الباحث يتناول الواقع بالدراسة

علـــي أساســـها. مـــن هنا فأن الاتصال عادة ما يكون دقيقاً وتاما في النسق النظري بين هذين المستويين. أما أسس لمنهج الجدلي فهي أربعة:

١- **الأساس الأول :** الترابط . ٢-**الأساس الثاني :** التحول الشامل

٣- **الأساس الثالث :** التحول النوعي. ٤- **الأساس الرابع:** نضال الأضداد.

١- الأساس الأول الترابط :

علـــي عكـــس المـــنهج الميتافيزيقي الذي ينظر إلي مكونات الوجود وظواهـــره، علـــي أنها منفصلة بعضها عن بعض، حيث الواقع منفصل عن الفكر، وتاريخ المجتمع ليس تعبيراً عن نمو هذا الكل العضوي طلباً لحالة من الترقـــي والاكتمال ، ولكنه خليط من العوارض، ومن الصدف العابثة. فبينما نجد أن الميتافيزيقي يجرد الواقعة أو الظاهرة عن مجموع الظروف التاريخية التـــي أوجدتها والتي تفسرها، فأن المنهج الجدلي يركز علي علاقات التفاعل والـــترابط العضـــوي بين الظواهر. ولهذا يري المنهج الجدلي أنه لا يمكن إجـــراء تفسير لأي ظاهرة طبيعية إذا نظرنا إليها علي حدة أو منفصلة عن الظواهـــر المحيطة بها، لأنها تصبح بلا معني إذا نظرنا إليها في منأي عن هذه الظروف المتعلقة بها. ذلك لأن الأسلوب الأمثل لفهم الظاهرة وتفسيرها، لابد وان يكون من خلال إدراك علاقاتها بالظواهر المحيطة التي ترتبط بها. وهـــذا انطـــلاق من أن الفهم الجدلي يؤكد أن كلي شيء في الطبيعة مرتبط بعضه ببعض[٢٥].

٢- الأساس الثاني التحول الشامل:

يلاحـــظ أن للمنهج الجدلي طابعاً إيجابياً يتجلي في حالة نفي النفي. ومـــن ثم الانتقال بالتفاعل الجدلي من السلب إلي الإيجاب. وعلي ذلك يكون التفاعل الجدلي في حالة تجاوز وتحقيق مستمر، بحيث تبلغ منتهاها في لحظة التأليف. ويعبر هيجل عن هذه اللحظة بفعل الماني معناه (الرفع) الذي يعني فـــي آن واحد (المحو أو الإلغاء) من جهة (والمحافظة أو الإبقاء) من جهة أخري. ومعني هذا أن مركب الموضوع يقضي علي كل من (الموضوع) ، (ونقيضه) من جهة، ولكنه يحافظ عليهما ويستبقيهما في وحدته العليا من جهة

أخري، ولا شك أن التناقض واضح في هذا التعبير. ذلك لأنه يتضمن معنيين متعارضـــين تماماً هما معني الافناء والإبقاء. ولكن ربما كان في وسعنا أن نقــول أن (مركــب الموضــوع) عند هيجل يتسامي بكل من (الموضوع) و(نقيضـــه) إلـــي حقيقة أعلي من كل منهما، بل ومن الاثنين مجتمعين. فهو يحولهـــا إلي مجال أسمي بحيث يخلع عليهما حقيقة أخري جديدة[٢٦] وبذلك يكــون الوجود أو الطبيعة والمجتمع في حالة تحول شامة، أو هي حالة من الحركة والتغير الدائمين والتجدد والنمو المستمرين، حيث يولد أي شيء بينما يتحلل أخر ويزول. وبذلك لا يصبح هناك انفصال بين الواقع والطبيعة وبين الحــركة، وبيــنما يصــبح الواقع أو الطبيعة ذاتهما هما الحركة [٢٧]. ولعل طبيعة هذا التفاعل الحركي الشامل هي الطريق الأساسي الذي يمتطيه الوجود نحــو حالة من التراقي والاكتمال. إذ يكون الجديد قد وجد علي نحو ما في قلــب القديــم. ولكنه لم يكن يوجد فيه إلا بوصفه إمكاناً، وكان الشكل السائد للوجــود يحول دون تحققه فعلياً، فلابد إن من الخروج عن نطاق هذا الشكل الســائد (أن تغير الوجود) هي (عملية تحول إلي أخر) تكسر نطاق التدرج، وتكــون مختلفة كيفياً بالقياس إلي حالة الوجود السابقة. فليس في العالم تقدم مطرد بل أن ظهور كل وضع جديد ينطوي علي قفزة، أو أن مولد الجديد هو موت القديم[٢٨].

٣- الأساس الثالث التحول الكيفي أو النوعي

يتمثل هذا الأساس الثالث ، في الحركة الأخيرة من اللحظة الجدلية، وهي الحركة التي يكون فيها مركب الموضوع، حقيقة جديدة، ومختلفة تماماً عن الحركتين السابقتين (الموضوع ونقضيه) التي تألفت منهما. إذ نكون في هــذه الحالة أمام انبثاق طفري جديد، وهو نتيجة منطقية للتحولات الشاملة، وهدف لهذه التحولات. ذلك لأن التغيرات التدريجية البسيطة هي قياسات أو كيفيات بسيطة تضاف، ولكن في لحظة معينة تكثر هذه الإضافات من ناحية، وتكــثر مقادير النفي والإلغاء في الحقيقة من ناحية أخري، بحيث أن الحقيقة المــتولدة تصبح جديدة تماماً عن سابقتها مع أنها تحمل منها شيئاً ما. وربما

يســعفنا المثال المشهور لكوم الحبوب الذي لا يعود كوماً لو أزيلت منه حبة بعد حبة، أو الماء الذي يصبح ثلجا عندما يصل النقصان التدريجي للحرارة إلي نقطة معينة، أو للامة التي تتفكك وتنحل فجأة خلال توسعها. وقد لا تعبر هذه الأمثلة عن المعني الكامل لفكرة هيجل، ولكنه كان يستهدف بها معارضة الــرأي القــائل بأن (عملية الظهور والاختفاء) هي عملية تدريجية، وكذلك الــرأي القــائل أن (الطبــيعة لا تعــرف الطفرات)[٢٩]. ولعل هذا ما حدا بالماركسيين (من بعد) إلي تعليق أهمية كبري علي هذا الأساس الخاص من أسس الجدل، إلا وهو قانون التحول الكيفي.

٤- الأساس الرابع تفاعل الأضداد :

يســتند هذا الأساس إلي ثلاثة اعتبارات هامة أولها أن حركة الواقع هــي نتاج للتناقض بين وحدات الجدل الثلاثة، إذ لولا هذا التناقض لما كان التغــير، ولــولا التناقض والإضافة لما كان التقدم نحو وجود أكثر اكتمالاً، والتــناقض غالباً ما يكون داخل الأشياء فلكل ظاهرة تناقضها الداخلي، وهي السبب الرئيسي لنموها، أما صلتها بالظواهر الأخري فهي ثانوية[٣٠]. ويؤكد هيجل أن الشيء عندما يتحول إلي ضده، وعندما يناقض ذاته فإنه يعبر عن ماهيته [٣١].

أما الاعتبار الثاني فيؤكد علي الدور التجديدي للتناقض. ذلك لأن هذا التــناقض بيــن القديــم والجديد عادة ما يتمخض عن تولد الجديد في أحشاء القديم. ذلك الجديد الذي لابد وأن يكون قد وجد علي نحو ما قلب القديم ولكنه وجــد بصــفته إمكاناً. وأن هذا الإمكان مع بعض الإضافات يقود إلي وجود الجديــد، وذلك لا يعني إلغاء القديم كلية، ولكنه يبقي علي العنصر الجوهري فــيه، ومن ثم فإن كل ما في الوجود شاهد علي بقاء الطاقة واستمرار القيم. ولــولا وحدة (الواقعي) و(المثالي) لزال المثل الأعلى من الوجود تماماً. أو لما استطاع أن يمد جذوره في أعماق الواقع. بذلك لا تقضي الأشكال الجديدة علي القديمة ولكنها تتسامي بها دون أن تمحوها[٣٢].

أمـــا الاعتبار الثالث فهو اشتراك أو انضواء أطراف التناقض داخل وحـــدة عضـــوية كاملـــة، ذلك علي عكس الوجود الميتافيزيقي حيث توجد الأضـــداد فـــي حالة انفصال تام. أما في الجدل فلابد من تواجد الوحدة بين النقيضين، فالعلم والجهل نقيضان إلا أننا إذا أمعنا النظر للاحظنا أن كل علم هـــو نضال ضد الجهل. فليس هناك علم مطلق، بل تظل الطبيعة حاملة دائماً لمـــا يجهلـــه العلـــم. إلا أن هذا التواجد المعي داخل وحدة واحدة يؤكد علي ضرورة وجود تأثير متبادل، حيث يؤثر هذا التأثير دائماً في الأضداد، بحيث ينـــتقل بها دائماً إلي حالات كيفية جديدة، لأنه تأثير مضيف، فهو انتقال مما هـــو أدني لما هو أعلي، ومن ثم فهو حركة متفاعلة دائماً تسعي إلي تجاوز ذاتها باستمرار نحو وجود أشمل وأكثر اكتمالاً.

ثانياً : الفكر الوضعي أصوله وإسهاماته في نظرية علم الاجتماع

الوضـــعية ليســـت جديـــدة ولم تظهر علي ما يدعي رداً علي الفكر النقدي، لأنها في ذاتها يمكن أن يكون فكراً نقدياً. أما لكي نحدد أصولها فإن ذلـــك يســـتوجب مـــنا أن نرجع إلي الوراء، إلي الفكر الإغريقي القديم عند الذريـــين والسوفسطائيين، فمن الفئة الأولي نجد أن ديمقريطس قد فهم كافة التغـــيرات والتحولات في الطبيعة علي أنها تعزي إلي الانفصال والاتصال الـــذي لا يـــتوقف بيـــن الذرات. كما اعتقد أن الخصائص تعتمد علي حجم وترتيب هذه الذرات. ثم إنه اعتقد أيضاً أن المعرفة تنتج عن الملاحظة، وأن عدم اكتمال الحواس أو نقص إدراكها يعد أحد المصادر الرئيسية للخطأ. بيد أنـــه إذا كنا نستطيع أن نأخذ أفكار ديمقريطس علي أنها مساعدة أو مدعمة للعـــالم الوضـــعي الحديـــث، إلا أننا نشك أن أفكاره هذه كانت مؤسسة علي الملاحظـــة أو محـــددة بواسطة الإجراءات العلمية، حيث يبدو أنه قد توصل إليها استنباطاً من مبادئه.

وتشـــكل الحـــركة الفكرية المعروفة بالسوفسطائية بعدا تاريخيا أخر للفكـــر الوضـــعي الحديـــث. فقـــد أعلن السوفسطائيون تخليهم عن الأبحاث الميتايفيزيقية واستندوا في موقفهم الفكري إلي التجربة. ولقد سعوا إلي جمع

أعظـــم قـــدر من المعرفة عن كافة نطاقات الحياة .. وكان منهجهم في ذلك إمبيريقـــيا استقرائياً. وفي هذا الإطار جاهدت النزعة السوفسطائية علي بناء كافة معارفها علي أساس من التجربة، كما حاولت الوضعية الحديثة صياغة امتداد للمنهج العلمي لحل المشاكل اليومية التي قد تظهر من اجتماع البشر.

إذن فللوضـــعية جذورها الضاربة في الفكر البشري،وليست علي ما يحاول البعض استكشاف أصولها وإرجاعها إلي جدل أو رد فعل حواري مع الفكر النقدي السلبي.

بـــيد أنـــنا يمكننا استكشاف أصول أكثر اقتراباً للوضعية في الفترة الســـابقة علي قيام الثورة الفرنسية، أو تلك التي أشعلت جذوة عصر التنوير بمـــا طرحـــت فيه من أفكار، بحيث أننا نحاول أن نري في الوضعية امتداداً فكرياً لمحورين أو تيارين فكريين. الأول، هو المنهج العلمي، الثاني ويتمثل فـــي الفلسفة الإمبيريقية الإنجليزية. ولتوضيح علاقة المنهج العلمي المؤسس علـــي الاستقراء والتجريب بالفكر الوضعي نري ضرورة الكشف عبد البعد التاريخي لهذا المنهج. حيث كان ظهوره نتيجة نزاع قام بين الإنسان وبين ما هو غيبي وراء هذا الكون ويتضح ذلك إذا نحن تأملنا الواقع الذي نعيش فيه.

بالإضـــافة إلـــي فلسفة أرسطو فأننا سوف ندرك طبيعة الفترة التي ســـبقت الثورة اللوثرية. حيث شكل الفكر الكنسي أساس التفسير لكل ما هو معضـــل وغـــامض أمـــام العقل الإنساني، وأصبح سدنة الفكر هم القساوسة وكـــتابهم هو الكتاب المقدس، وبناء علي ذلك صدر قانون في السنة ١٦٢٤ مـــن بـــرلمان باريس يقضي بتوقيع عقوبة الإعدام علي كل من يأتي بأفكار تعارض تعاليم الكنيسة أو فلسفة أرسطو[٣٣].

بـــيد أن الإنســـان وفكـــره كان لابد وأن يبحثا عن مخرج من هذا الحصـــار الـــذي أغلق مسالك تطور الفكر البشري. ووقعت في هذه الفترة واقعـــتان حطتما هذا الاحتكار الكنسي للفكر. حيث تمثلت الواقعة الأولى في رحـــلات الرحالة والتجار والمستكشفين إلي الشرق، حيث اطلعت الأوربيين

علــي ديانات وأنبياء ومفكرين مثل ككونفشيسوس ، وبوذا، وزرادشت، وأن هذه الديانات تسودها حرية اعتقاد وحرية فكر [٣٤].

وتمثلــت الواقعة الثانية في اختراع يوهان جوتنبرج للطباعة، حيث تيســر طــبع الكتــب وأصبحت متوفرة وفي متناول العامة، وخاصة الكتب المقدسة التي توفر القساوسة علي احتكارها، وأدي ذلك إلي فهم الناس للكتب المقدســة علــي أصولها الصحيحة، وأدي ذلك بالتالي إلي تراكم توتر ضد الكنيســة التــي تعمل علي إعاقة الفكر وتقييده لا سيما بعد تعنت أحد هؤلاء القساوســة وهــو يوهان تتسل في سنة ١٥١٧ وطرحه لما يسمي بصكوك الغفران [٣٥].

ومــنذ هذه الآونة بدأ الإنسان يترك ما هو غيبي ويتعقل بنفسه وقائع حــياته. ويمكننا أن نسجل أن ثورة مارتن لوثر في ٣١ مارس عام ١٥١٧ مــيلادية كانت تمثل وبداية، نهاية للاحتكار الفكري الذي مارسه أباء الكنيسة وبداية لإمكانية أن يسهم أي من أفراد الشعب في استيعاب الفكر أو خلقه بل أنــنا يمكننا أن نسجل أن هذه الفترة شهدت إنتهاء الفكر اللاهوتي الثيولوجي وبداية الفكر العقلي المتيافيزيقي . هذا بالإضافة إلي أن الثورة اللوثرية كانت ثــورة دينــية واقتصادية،حيث كان لها نتائج باهرة، من الناحية الفكرية، إذ كســرت احــتكار الكنيسة الكاثولوكية للأفكار، وعضدت من سلطة الملوك، وبذلك فتحت الباب أمام تقدم العلوم والفنون والآداب [٣٦].

بذلــك ازدهرت حرية البحث العلمي، وشكل الأسلوب العلمي أساساً لفهم العالم وبدأت تثمر جهود العلماء في هذا المجال فأثبتت كوبر نيقوس أن الأرض تــدور حول نفسها أمام الشمس كما تدور مع الكواكب الأخرى حول الشمس، وأثبت جاليليو نفس النتائج باستخدام اختراعه الجديد وهو التلسكوب وتخلصــت بحــوث الميكانــيكا والفلك من الأفكار الروحية والغيبية علي يد جاليليو وديكارت، حيث استطاع الأخير أن يفسر الحركات السماوية والفلكية، والطبــيعة العضــوية عــن طــريق المادة والتجربة تفسيراً رياضياً علمياً بحتاً [٣٧].

بــل أنــنا نجــد انتشـــار أثر هذه الثورة في مجالات علمية أخري كالتشريح وعلم الأجنة وعلم الحيوان[٣٨]. معني ذلك أن محاولة الإنسان لفهم واقعــة جعله يرفع سلاح العقل سواء في نطاق العلم أو الفلسفة ضد الكنيسة وضـــد كل ما يمكن أن يعوق التطور الفكري وتمثلت اليد القابضة علي هذا الســـلاح فـــي الطـــبقات الشعبية غير الطبقة الأرستقراطية وبخاصة الطبقة الوسطي[٣٩].

بـــيد أن التناقض بدأ يأخذ طريقة بين العلم والفلسفة، إذ أنهما بعد أن فــرغاً مـــن القضـــاء علي اللاهوت، بدأ كل منهما يحاج الآخر في منهجه وأســـلوبه. فبيـــنما فريق يؤكد أن العقل هو الذي خلص الإنسان من طغيان اللاهوت وأنه يجب أن يوصل مسيرته نحو خلق عالم أكثر ملاءمة للإنسان. وعلي ذلك فما علي الإنسان إلا أن يبذل كل جهده لصياغة واقع متكامل علي غـــرار تصور عقلي متكامل، نجد أن فريقا أخر يؤكد أن قدرته.تتأكد باستناد مقولاتـــه علي أساس من دراسة الواقع، دراسة منفصلة يصوغها في قضايا تعـــالج تـــرابطات الظواهر. ذلك ييسر الوصول إلي القوانين التي تحكم هذه الظواهـــر، وتمثل ذلك بأوضح ما يكون في المطالبة بالمنهج الاستقرائي. إذ نـــادي فرنســـيس بيكون في كتابة (الطريقة الجديدة) بضرورة الالتجاء إلي الـــتجربة والبحث علي أساس المنهج الاستقرائي، لأن هذا السبيل هو الكفيل بتوصيلنا إلي معرفة جديدة. فإذا تمكنا من الوصول إلي قوانين. فأننا نستطيع الاســـتفادة مـــنها في واقعنا ، بأن نوجه الطبيعة لخدمة الإنسان والأغراض الإنسانية، ذلك يتضح من قولته الشهيرة (لكي يخضع الإنسان الطبيعة يجب عليه دراستها أولاً)[٤٠].

وقامـــت الـــثورة الصناعية التي تعد امتداد لها التقدم العملي، إلا أنه حينما قامت الثورة الصناعية، وما شاع من اضطراب في بناء المجتمع، فأنه كان علي المنهج العلمي الذي نجح في علوم الطبيعة والكيمياء والرياضة وما إلي ذلك، أن يحاول النجاح في النطاق البشري أيضاً ،أعني أن يتناول شئون الاجـــتماع بالدراسة العلمية المستندة إلي أسس ومعايير منهجية، وكان علي

هــذا التيار أن يؤكد الفلسفة وإيمانها بالعقل أن تثوير الواقع لا يمكن أن يظل أبــدا، بل علينا أن ننزل لهذا الواقع، ونحاول تناوله بالدراسة العلمية، وظهر ذلــك في شكل إسهام من المنهج العلمي في قيام الفكر أو الفلسفة الوضعية. بذلك اتخذت الفلسفة الوضعية من العلوم الطبيعية نقطة بداية لها، محاولة أن تؤكــد أن ظواهر الاجتماع تخضع لنفس القوانين التي تحكم ظواهر الطبيعة الأخــري وتوصــلت إلــي ذلك بإنجاز أمرين، أولهما تطبيق مناهج البحث المستخدمة في العلوم الطبيعة في دراسة كل مجالات الخبرة، وثانيهما بتوسيع نطــاق النــتائج التي أنتهت إليها العلوم الطبيعة وتبنيها باعتبارها مؤشرات هادية لدراسة الظواهر الاجتماعية. ومعني ذلك استخدام مفهومات هذه العلوم الطبيعة ونظرياتها في دراسة الظواهر الإنسانية[٤١].

أمــا التــيار الفكري الثاني الذي أسهم بدور واضح في كيان الفلسفة الوضــعية فقــد تمــثل في الفلسفة الإمبيريقية الإنجليزية التي ازدهرت في إنجلــترا، والتــي كانــت تخضــع في هذه الفترة لحالة من الرخاء والحرية والوجــود المســتقر. بذلك كانت هي وليست فرنسا ولا ألمانيا المكان الذي واصــل فــيه المنهج التجريبي نموه، حيث ظهر في شكل فلسفة إمبيريقية، وليس في شكل إجراءات منهجية تميز المنهج العلمي في العلوم الطبيعية.

ويمكنــنا أن نحــدد أهــم رواد هذه الفلسفة بأنهم جون لوك، والقس بركلي والفيلسوف هيوم. فجون لوك يؤكد أن الأفكار ليست داخلية في العقل البشــري، ذلك أن هذا العقل يكون عند المولد صفحة بيضاء،أعني في حالة فراغ كامل، وتتسرب إليه الأفكار من خلال التجربة، أما العقل فوظيفته جمع المادة الناتجة والتي أتت عن طريق الحواس. بذلك يصبح للعقل دور سلبي، مــع وظيفة إبداعية أو تنظيمية ضئيلة،أو ربما لا شيء علي الإطلاق. بذلك أســلم قياد المعرفة للحواس وللمناهج التجريبية، حيث تتضاعف المعرفة إذا وســعت الحــواس مــن تجاربها[٤٢]. هذه التجارب التي ينتظر العقل نتاجها ليؤلف بينهما. ويختزنها في الذاكرة، ويعطي الأسماء لها [٤٣]. وقد كان الأب بيركلــي هــو فليسوف الإمبيريقية الثاني، وهو وإن كان قد سار علي نفس

خطـــوط الفلسفة الإمبيريقية من حيث أن الحواس هي مصدر المعرفة إلا أنه جنح جنوحاً مثالياً صوفياً، حيث أكد في مجمل فلسفته أن التجربة هي طريق الوصول إلي المعرفة، لكنه إن لم يستطيع المرء أن يبرهن علي وجود العالم الفيزيقـــي من خلال التجربة فإنه يمكنه أن يرد هذا العالم إلي أفكار في عقل الإنسان والله.

غـــير أن إمبيريقية أي من هؤلاء لم تكن في صرامة إمبيريقية ديفيد هـــيوم الـــذي كان مجيئة بمثابة الضربة القاتلة للتفكير الميتافيزيقي. ويرجع فضل هيوم في هذا الصدد إلي تطبيقه لمبادئ الإمبيريقيين في غير ملاينة أو تســامح. وهـــو المـــبدأ الذي يؤكد أن العقل لا يستطيع أن يعرف أي شيء خارجه، وأنه ليس هناك شيء في أي شيء وأنه هو الذي يقدم الدليل المعبر عـــنه، فليس لدينا ما يرسم استنتاجا يتعلق بأي شيء، بعيداً عن الشيء الذي بيـــن أيدينا موضع التجربة[٤٤]. فهو لم يفرغ كما فزع لوك من تطبيق هذه المـــبادىء علي أشياء كالنفس الإنسانية – فهي كغيرها من الأشياء – إذا لم أخبرها بالحواس فلا سبيل إلي علمي بها، وبالتالي فكل حديث عنها هراء ولا ينجـــيها أن نقـــول أن وجودهـــا ينـــتج منطقياً عن كذا أو كذا من المقدمات والمـــبادئ لأن الاســـتنباط وحـــده يســـتحيل أن ينبـــيء بجديد عن الوجود وكائـــناتـــه[٤٥] . ذلك دفعه إلي أن يؤكد أنه ليست لدينا أسس واضحة نوافق اســـتناداً إلـــيها علـــي بعض الأفكار التقليدية والهامة للغاية، كالله ، والنفس، والعالم الفيزيقي ،والسببية[٤٦].

استندت الوضعية في قيامها إذن إلي هذين التيارين الفكريين، اللذين مهـــداً لقـــيامها، وبذلـــك لا نـــتفق مع البعض الذين يجتزئونها عن جذورها ويـــنظرون إلـــيها كـــرد فعل للفكر النقدي، وإن كانت قد قامت بهذه المهمة لأسباب أخري. بيد أننا نستطيع أن نؤكد أنه وإن كانت الوضعية هي الرؤية المحدثـــة للمـــنهج الاســـتقرائي والفلسفة الامبيريقية إلا أن لها مع كل منهما اتفاقات وافتراقات.

فمـــن المنهج العلمي الاستقرائي أخذت الوضعية الإجراءات العلمية المنهجـــية ، لكـــنها افترقـــت عنه في أنها لم تؤسس كيانها علي مجرد هذه الإجـــراءات فقـــط، وإنمـــا امتلكـــت النظرية التي توجه هذه المنهجية نحو المعطـــيات الملائمـــة لموضوع الدراسة، فهناك نظرية أوجست كونت عن الـــنظام والتقدم،والانـــتقال من النظام إلي التقدم. هذا بالإضافة إلي أنها مثل المنهج العلمي الاستقرائي ودوره فيما بعد عصر النهضة، فأنه كان للوضعية موقفها ودلالاتها السياسية فيما بعد الثورة الفرنسية، إذ افترقت أو فاقت المنهج الاستقرائي بكونها امتلكت النظرية التي توجه هذا المنهج، والدلالة السياسية التي تعد حلقة اتصالها بالمجتمع.

أمـــا الاتفاقـــات والافـــتراقات التـــي تقف فيها الوضعية مع النزعة الإمبيريقـــية فهـــي وإن كانـــت تتفق معها في أن معطيات الواقع هي أساس المعرفة، تلك التي تتراكم بتناولها عن طريق الحواس، وأن العقل ليس له إلا دور مـــنظم وســـلبي لهذه المعطيات، إلا أنها تفترق عنها في أن انتقاء هذه المعطيات يتم في إطار كلي وشامل. بحيث تلعب هذه المعطاة دوراً تم التأكيد علـــي احتمالـــية أن تلعبه قبلاً، وهي أيضاً تفترق عنها في امتلاكها للنظرية الموجهـــة التـــي أشـــرنا إليها. بالإضافة إلي أن الوضعية لا تعطي مثل هذا الـــتقديس الكـــامل للواقـــع وإنما تؤكد كثيراً أنه من الممكن أن يؤدي التدخل الإرادي في هذا الواقع إلي تغيير مساره، بل وربما تنظيم معطياته حتي يتفق والقانون الطبيعي، إذا كانت هناك الأحداث والعوامل التي أدت إلي إنحراف هذا المسار.

الوضـــعية إذن قامت كامتداد لتيار فكري قديم وسابق، إلا أنها قامت أيضاً كمشروع فكري يريد أن يطرح تنظيما معيناً للواقع ، فنحن نعرف أن الهيجلـــية فـــي جانبها الثوري ألهمت فلسفات الهدم والتدمير علي ما يذهب الوضعيون. ومن ثم فقد كان طبيعياً أن تقوم فترة يبدأ فيها الإنسان في تنظيم واقعـــه تنظيماً مدروساً، لا يرجع به إلي الوراء، وإنما يتقدم به علي أساس واضح وملموس، بذلك الوضعية في العقد التالي لوفاة هيجل، فقد نشر كونت

دروساً في الفلسفة الوضعية،كما نشرت فلسفة (شتال) الوضعية في الدولة، وبدأ شلنج محاضراته التي ألقاها في برلين عن الفلسفة الوضعية(٤٧).

بيد أن التاريخ للفكر الوضعي يوجب الاهتمام برائدها المبرز أوجست كونت، واهتمامنا به سوف ينصب علي توضيح موقفه من ثلاث قضايا هي علم الاجتماع، ثم صياغاته النظرية والمنهجية. أما فيما يتعلق بعلم الاجتماع، فنجده قد ظهر في مناخ فكري استدعي وجوده فعلاً، ونعني بالمناخ الفكري القضايا والمشكلات التي تشغل اهتمام المثقفين في فترة زمنية معينة. في حين معين قد تجمعهم هذه المشكلات، وقد تفضهم في حين آخر إلي جماعات لكل منها رأيها الخاص بشأنها، ولقد كان هناك عاملان رسماً مناخ هذه الفترة. العامل الأول هو درجة التقدم التي حققها الرياضيات والعلوم الطبيعية وما أنجزته، والثقة التي ارتبطت بمناهج هذه العلوم(٤٨)، أما العامل الثاني فهو تلك الفوضي التي اجتاحت المجتمع الفرنسي في أعقاب الثورة الفرنسية، حيث كانت هناك حاجة إلي ترميم المجتمع، حاجة إلي إستعادة استقراره،وكان لكل جماعة رأي في أسلوب استعادة هذا الاستقرار، ويوضح ذلك (شتال) حينما يؤكد أن الناس حينما افتقدوا معتقداتهم التقليدية شعروا بالحاجة في الاعتقاد بشيء ما. في هذا الإطار ظهر علم الاجتماع كدراسة موضوعية ومستقلة. ذلك لأن القيم التقليدية قد أنهارت وليس هناك بدائل محدودة لها. ومن ثم فقد كانت التربة التي نشأ فيها علم الاجتماع مشبعة بمظاهر الأنومي المنتشرة، وظهرت موضوعية الوضعية السيوسيولوجية حينما أضمر الناس الشك في أن العالم الذي يعيش فيه، لا يتعاطفون معه وليست له القيمة التي تستحق الموت أو الحياة من أجله(٤٩).

فإذا كانت الظاهرة الاجتماعية جزءاً من الظاهرة الطبيعية عامة، وإذا كان الإنسان قد استكشف القوانين التي تحكم هذه الظواهر الطبيعية، فإنه بقي أن يستكشف إمكانية فاعلية هذه القوانين في عالم الإنسان. ولكي يتحقق ذلك ولكي نتنبأ بالمستقبل فيما يتعلق بالمجتمع، فعلي التاريخ أن يتوقف عن

أن يكون تاريخ أفراد بل تاريخ جموع إنسانية، حينما يتحقق مثل هذا التحول يصبح التنبؤ بالمستقبل أمراً ممكناً (٥٠).

ولأن كونت كان علي اتصال بالعلوم الطبيعية والرياضية من خلال التحاقه بمدرسة البوليتكنيك ، وتتلمذه علي أساتذة في الرياضة والطبيعة، فأنه كـان طبيعـياً أن يولي وجهة شطر ما أنجزته العلوم الطبيعية من تقدم في تناولها لظواهرها. ذلك أن التقدم الذي حققه العلوم الطبيعية حداً بالإنسان في هـذه المرحلة أن يتساءل ألا يمكن دراسة الظواهر الاجتماعية بنفس أساليب دراسـة الظواهـر الطبيعية، أيجوز لنا أن نجتزيء قسماً من ظواهر عالمنا ونقـول إن هـذا لا يخضع للمنهج، وإذا كان ذلك وارد فعلاً، ألا يجوز أن نحـاول. ومن هنا تركزت جهود أوجست كونت في هذا الصدد في أمرين، الأول أن يجعـل من العلوم العقلية علوماً وضعية، وثانياً أن ينسق بين شتي العلـوم، بما لها من قوانين ومناهج، وما تتناوله من موضوعات للبحث في بـناء نسـقي واحد، وتسلسل العلوم في هذا البناء النسقي، الواحد تلو الآخر ويترتـب علـيه(٥١). وبذلك رأي أوجست كونت إمكانية أن تصاغ الفيزياء الاجتماعـية، علـي غـرار الفيزياء الحيوانية، والنباتية والسماوية(٥٢)، من الـتجمعات كالاتحادات، والطبقات والمدن، كذلك من الدولة والحكومة. وهو يأسـف للآثـار المترتبة علي الثورة الفرنسية من تقويضها للجماعات التي تتوسـط بين الأسرة والدولة، ثم يؤكد أهمية وطبيعة نظام الدولة أو الحكومة ،بقوله قد يكون هذا النظام نظاماً صناعياً، إلا أنه يمثل تعديلاً للنظام الطبيعي الـذي تميل إليه كل المجتمعات، فالحكومة ممكنة نظراً لوجود رغبة واسعة في الحكم والقيادة بالإضافة إلي أن كثيراً من الأشخاص يرغبون في التخفف من عناء اتخاذ القرارات الضرورية بالنسبة لهم(٥٣).

وتمثل ديناميكا التقدم الشطر الثاني من بنائه النظري. وهو يحاول أن يثبـت فـي هذا الجهد تجاوز الفكر الوضعي للفكر اللاهوتي الديني والفكر الميتافيزيقـي ، فـيؤكد مـبدأ أن الفكر هو الذي يميز أي من هذه المراحل. وعلـي ذلك ففي مرحلة اللاهوت نجد أن الإنسان يجد لكل شيء علته وسببه

بافتراض أن له ذاتاً، وذلك فله إرادة وتصميم، والغلبة للأقوى،وانعكس ذلك علي السياسة في شكل السلطة المطلقة للحكم كانعكاس للاعتقاد في قوي مطلقة في إرادتها.

ثم جاء المرحلة الثانية وهي المرحلة الميتافيزيقة. وفيها يحاول الإنسان بدلاً من رد علل الظواهر إلي إرادتها الذاتية، يحاول أن يرد كل ظواهر الكون إلي مبدأ واحد أو فكرة واحدة، وهو يماثل المرحلة السابقة، فبدلاً من رد الظواهر إلي ذاتها ومن ثم إلي ذات واحدة هي الله، هنا ترد إلي مباديء ومن ثم إلي مبدأ أو فكرة واحدة مجردة، وبينما منهج الرد والتفسير في المرحلة اللاهوتية هو الخيال، في المرحلة الميتايزيقية حجاج منطقي يعلو من النتيجة إلي مقدماتها أو يهبط من المقدمة إلي نتيجتها [٥٤].

ثم تأتي المرحلة الوضعية، حيث تحل تجارب العلماء ومشاهداتهم الحسية محل خيال رجال اللاهوت وحجج الفلاسفة، هنا بات علي من يتكلم عن الطبيعة جادا أن يصل كلامه بالوقائع المحسوسة . وهنا أيضاً لم يعد الإنسان بحث عن (علل أولي) يرد إليها الطبيعة وما فيها، بل يبحث عن قوانين تصور الإطراد الملحوظ في الظواهر الطبيعة، أي أنه يبحث عن(العلاقات) الكائنة بين الظواهر الملحوظة، والتي تجعل منها مجموعات من حوادث يطرد وقوعها كلما تحققت ظروف معينة، ولا فرق عنده بين أن يكون موضوع البحث أفكار الإنسان ومشاعره. أو قطع المادة من حيث الوزن والصلابة، لأنه ينظر إلي كل ما يعرض له نظرة موضوعية تحاول أن تري وفق أي نظام يطرد حدوثه [٥٥].

أما عن عوامل الانتقال من مرحلة إلي أخري،أو بالأخرى عوامل التغير فنجد أن كونت يحدها علي أنها الأفكار التي تعد نواتج للنمو العقلي، كذا عدد السكان، بالإضافة إلي أن هناك عوامل قد تعجل من سرعة التقدم، مما يؤدي إلي خلق سرعات متفاوتة للتقدم، هذه العوامل هي التفوق للجنس الأبيض، والفروق المناخية، بالإضافة إلي أن العمل السياسي يمكن أن يعجل بالتقدم ويعوقه، هذا غير دور العباقرة. إلا أنه يرجع مرة أخري للإيمان

بفاعلية القوانين الطبيعية حينما يؤكد أن هؤلاء العباقرة يثيرون أو يتزعمون حركات مقدرة ومسطورة في الأزل (٥٦).

وتشـــكل خصائص موقفها المنهجي مضمون القضية الثالثة، ذلك أن الوضـــعية تؤكـــد علي ضرورة اصطناع المنهج الوضعي. فما هو المنهج الوضعي، لم يفصل فيه كونت كثيراً وإنما أكد علي ضرورة تبعية المفهومات للوقائع، وخضوع الظواهر الاجتماعية لنفس القوانين الاجتماعية العامة وأن كانت القوانين الاجتماعية أقل جموداً وصلابة من القوانين الطبيعية(٥٧).

بـــيد أن هـــناك ثلاثـــة خصائص رئيسية تميز المنهج الوضعي في عمومه، الأول نظرته التاريخية عند تقديره لقيمة الفكرة، فالفكرة المعينة في العصـــر اللاهوتـــي قد تكون صالحة في مرحلتها، لكنها لا تعود صالحة في المرحلتين التاليين، والفكرة المعينة في العصر الميتافيزيقي لم تكن لتصلح في المـــرحلة اللاهوتـــية الأولـــي ولن تكون صالحة في المرحلة العلمية الثالثة وهكـــذا. أمـــا الخاصية الثانية فهي حصر المعرفة النافعة في حدود المعرفة التجريبـــية، وكل علم لنا اليوم يتجاوز هذه الحدود، قد يكون خطأ أو صواباً، ولكـــنه علـــي أي حال علم لا يفيد. وتتمثل خاصيتها الثالثة في تقريبها بين الفكـــرة، أو الـــنظرية وتطبيقها العلمي، فليس علماً ما لا يمكن استخدامه في التحكم في مجري الطبيعة ومصير الإنسان (٦٠).

فـــإذا انقسمت النظرية الوضعية عند كونت إلي جانبي النظام والتقدم فلابـــد وأن نـــتوقع إجـــراءات منهجية تتسق مع جوانب النظرية هذه. ويعد تفضيل الإدراك الكلي علي الجزئي أول الإجراءات المنهجية التي تؤكد عليها النظرة الوضعية. وبهذا الصدد يؤكد أوجست كونت أن الروح غير المعقولة للتخصص، تلك التي انتشرت في زماننا قد يكون من نتائجها إرجاع للتاريخ إلـــي تـــراكم عديـــم القـــيمة من الموضوعات غير المتصلة. أما لكي توفر الخاصـــية العلمـــية الحقة، فأننا يجب أن نجري المقارنات التاريخية المختلفة لعصور الحضارة المختلفة في علاقتها بالتطور الاجتماعي(٦١). وفي موضع آخـــر يؤكد أن المظهر الرئيسي للعلم السياسي يفترض صراحة علي عكس

العـــادات الفلســفية الســـائدة، أن نتوقف عن النظر إلي العادات الاجتماعية بصـــورة مطلقـــة أو مســـتقلة عن العناصر الأخري، ويصر علي أنه يمكن معرفـــتها فقط بالنظر إلي العناصر الأخري[٦٢]. وهو هنا نجده يقوم بصياغة أحـــد المـــبادئ الهامة في الاتجاه الوظيفي ، وهو ضرورة التأكيد علي الإدراك الكلي ، وحتي إذا تناول الباحث أي من الأجزاء النسقية ، فلابد أن يكون ذلك بالنظر إلي كلية النسق الكائن به هذا الجزء .

أمـــا الخاصـــية المنهجـــية الثانية فتتمثل في صياغة أوجست كونت للـــنماذج المثالـــية ، وهـــو في ذلك يسبق ماكس فيبر[٦٣]، وإن كنا نجد أن وضـــعيا آخـــر وهو إميل دوركيم يتخلي عن هذا النموذج المثالي ، ويؤسس نموذجـــا متوســـطا أكثر واقعية وأكثر اقترابا من الفكر الوضعي . حيث يعد ذلـــك موضع نقد يوجه إلي أوجست كونت ، إذا كيف يقوم بصياغة نماذج مثالية قد تحتوي علي صفات أو خصائص أو رموز لمعطيات ليس لها وجود واقعـــي. لذلـــك قـــد يكون من الملائم أن تكون النماذج المثالية ربيبة الفكر المثالـــي وفـــي هذا جنوح كونتي مثالي ، يبحث عما ينبغي أن يكون ، بينما تنادي الوضعية بضرورة أن يعكس الفكر ما هو موجود وكائن .

وتتمـــثل الإجـــراءات المنهجية التي أوصي أوجست كونت بإتباعها للوصـــول إلـــي القوانيـــن التـــي تحكم تفاعل المتغيرات الواقعية وعلاقاتها المعطـــيات وعلاقاتـــه بأربعـــة مـــناهج هي: المنهج التاريخي ، المقارنة ، الملاحظـــة والـــتجربة .ولقد أهتم أوجست كونت بالمنهج التاريخي لأن هذا المـــنهج يســـاعد في الوصول إلي القوانين التي تحكم التغير المستمر للفكر الإنســـاني من وجهة نظره، كما تبدي ذلك في قانون المراحل الثلاث ، وهو يخـــتلف عن المؤرخين في إنه لا يبحث عن العلل السببية للظواهر وإن كان يركز أساسا علي دراسة العلاقات بين هذه الظواهر .

وقـــد نـــادي بـــأن تحل الملاحظة محل التأمل ، وهي تعني ضمنيا ملاحظـــة الـــنظم والتأكيد عليه بدلا من الخروج عليها [٦٤] .ويؤكد أوجست

كونت ضرورة أن توجه الملاحظة بنظرية ، هذا بالإضافة إلي قيام النظرية بتفسير ما قد لوحظ، فالحقائق لا تستطيع أن تتحدث عن نفسها . ذلك لأنه بدون النظرية فإننا لا نستطيع الاستفادة من الحقائق أو حتي نعي دلالتها ، فالحقائق يجب أن ترتبط علي الأقل بافتراض أساسي يتعلق بقوانين اجتماعية معينة خاصة بالنمو أو التطور(٦٥). أما التجربة فهو لا يقصد تلك التي تستخدم في العلوم الطبيعية لأن هذا مستحيل في العلوم الإنسانية ، وإنما ما يقصده هو إمكانية إقامة ملاحظة مضبوطة ومنظمة ، كما أكد علي إمكانية عقد المقارنات المثمرة بين المجتمعات الإنسانية والحيوانية ، أو بين المجتمعات التي تعيش معا زمنا بعينه ، أو بين الطبقات الاجتماعية داخل المجتمع الواحد(٦٦) .بيد أنه لابد وأن نشير إلي أن إميل دوركيم فيما بعد – وهو رائد وضعي آخر – قد اختزل الدراسة التاريخية كلية من البرنامج الوضعي وأحل محلها المقارنة بين نماذج بنائية محددة .

هذا بالإضافة إلي أنه قد قال بالنسبية ، إذ نجده يؤكد مراراً علي ضرورة الاستعاضة بالنسبي عن المطلق المثالي (٦٧) . وهو حينما يقول بالنسبية فإنه يفترض انسجاما مقدرا بين الجانب الذاتي لعلم الاجتماع (المنهج) وبين جانبه الموضوعي (المضمون). ذلك أن الوضعية تفترض أن كل الأشكال والنظم مؤقتة لأنها ستتحول بتحول وتقدم الثقافة العقلية ، إلي أشكال أخري تناظر القدرات العقلية لنمط أكثر تقدما . علي أن طابعها المؤقت ، وإن كان علامة علي نقصها إلا أنه في نفس الوقت علامة علي حقيقتها (النسبية) فتصورات الوضعية نسبية لأن الواقع نسبي(٦٨) .

وتسلم النسبية إلي الموضوعية ذلك أنه إذا كان العلم ، في نظر كونت ، هو ميدان النسبية النظرية ، التي تنعكس عن نسبية واقعية ، فإن ذلك يستوجب استبعاد أحكام القيمة . فعلم الاجتماع لا يستحسن الوقائع السياسية أو يستهجنها.بل ينظر إليها .علي أنها مجرد موضوعات للملاحظة، حتي يصبح علم الاجتماع علما وضعيا ، فإن عليه أن ينفصل عن أي اهتمام (بقيمة) أي شكل إجتماعي معين . فسعي الإنسان إلي السعادة ليس مشكلة

علمية ، وكذلك الحال في مسألة أفضل تحقيق ممكن لرغباته ومواهبه.ويفتخر كونت بأنه يستطيع بسهولة أن يعالج مجال الفيزياء الاجتماعية بأكمله دون أن يستخدم لفظ الكمال مرة واحدة ، بل يحل محله دائما لفظ علميا بحتا ، وهو النمو أو التطور[٦٩] .

بيد أننا نجد ألفن جولدنر في مؤلفه الأخير يؤكد أنه إذا كانت الوضعية تؤكد علي الموضوعية ، فإن الموضوعية ذاتها ليست سوي أيديولوجية هؤلاء المغتربين ، الذين يفتقدون إليه قوة من الناحية السياسية[٧٠]، ورغم أن ذلك قد عالجناه في تناولنا لعلاقة الأيدلوجيا بالنظرية السوسيولوجية ، إلا أننا نود أن نؤكد أنه إذا كانت الاستقراطية – مسلحة بالمثالية المحافظة– تطالب برد الأمور إلي ما كانت عليه قبل قيام الثورة الفرنسية ، وإذا كانت الطبقات الثورية تنادي بالمضي قدما في طريق الثورة لإكمال تحطيم ما هو قائم ابتغاء تأسيس بناء جديد . لكن ما هو المعيار الذي نستند إليه في التبرير المنطقي والواقعي المعقول لادعاءات أي من الفريقين ، أليست كلية المجتمع في مرحلة تاريخية معينة ، أعني في موقف تاريخي محدد بالإضافة إلي طبيعة احتياجاته وتوافقه مع الشروط البيئية المحيطة هي المعيار الذي يحدد ذلك ، ذلك يعني أن الحكم علي ذلك ليس حكما سياسيا يصدره أي من الفريقين ، ولكنه في أساسه حكم علمي يستند علي معايير الموضوعية وعدم التحيز . إذن فليس القائمون بهذا التحديد، جمهرة الباحثين والعلماء ، وهم ليسوا فئة منسحبة لا حول لها ولا قوة ، وإنما نجدها تؤكد أنها فئة عرفت دورها فتقدمت إليه ، ولم تتخاذل عنه بالانضواء تحت أية دعوي سياسية.

ثالثاً: المذهب النفعي والاستناد إلي مبدأ اللذة والألم

إذا تفحصنا موقف الاتجاهات النظرية فسوف نجد أن كل منها قد طور أحد جوانب التنوير علي حساب إغفال الجوانب الأخرى أو رفضها أو حتى التناقض معها. وإذا كانت المثالية قد ركزت علي تطوير الجوانب العقلية للتنوير ، في حين لم تستجب النظرية الأخرى لشعارات التنوير المتعلقة

بالإنسان كالحرية والمساواة. علي خلاف الإتجاه الوضعى الذي ركز أهتمامه علي المجتمع الجديد الذي خلقه التنوير، وأهتم كذلك بشعارات التقدم والأهتمام بالمعرفة البشرية ودعم النزعة العلمية، وإن لم تستجب لشعارات التنوير المتعلقة بالإنسان وقدرته علي تغيير واقعه وإعادة صياغته وفقاً لإرادته. في هذا الإطار نجد أن المذهب النفعى قد أهتم بالإنسان بأعتباره المقولة التى لم تهتم بها التيارات المثالية والوضعية، إلي جانب ذلك أهتمت الفلسفة النفعية بالمعرفة العقلية التي يمكن أن تساعد الإنسان في إنجاز سلوكه الاقتصادى الرشيد.

بداءة يدرك المذهب النفعي الواقع الاجتماعي من خلال مظاهره المحسوسة، ومن ثم فهو أكثر إرتباطاً بما هو عيني. وإرتباطا بذلك يرفض الأتجاه النفعي أية صياغات نظرية تتأسس بالنظر إلي علاقات غير مرئية. بالإضافة إلي ذلك تمثل النفعية أيديولوجيا الشرائح التجارية والصناعية من الطبقة الوسطي. حيث أهتمت هذه الشرائح بالسعي إلي كسب الامتيازات التي لن يتحقق كسب المزيد منها إلا بالقضاء علي فكرة النظام بإعتبارها تشكل قيداً علي حركتها الحرة. وبغض النظر عن التباينات داخل الاتجاه النفعي إلا أننا نجد أن هناك إتفاقاً بينها حول أربعة مبادئ رئيسية، نذكرها فيما يلي:

١- ويتعلق المبدأ الأول بطبيعة السلوك لدى النفعيين حيث يسعي البشر بالضرورة لتحقيق مصالحهم. إذ تشغل المصلحة الذاتية في الاخلاقية النفعية، ذات المكانة التي تشغلها الحركة Motion في الفيزياء[٧١]. ذلك يعني أن المصلحة غاية السلوك، وأن الأطار المرجعي للحكم علي المصلحة هو ذات الإنسان. حيث يسعى كل فرد لتحقيق مصالحه.

٢- ويتعلق المبدأ الثاني بأتجاه السلوك الإجتماعي لتحقيق اللذة وتجنب الالم[٧٢]. ويترتب علي ذلك وجود عدة معايير تتعلق بغاية السلوك وبدايته. إذا يبدأ السلوك من داخل الفرد متجهاً لتحقيق لذة أو لتجنب ألم. ومن ثم تعتبر اللذة والألم حسبما يذهب بنتام هما المعيار الوحيد لأية قيمة نحتاجها . ذلك أخضع النوع البشري لحكم سلطتين، هما اللذة Pleasure والألم Pain

حيــث يــتم الـــرجوع إليهما فيما ينبغي عمله، وأيضـــا لتحديد ما يمكن أن ننجـــزه[٧٣]. فقيمة السلوك خارجة عنه وليست من داخله[٧٤].

٣- ويتعلق المبدأ الثالث برشد الإنسان بحيث نجد أن سلوكه يتم بالنظر إلي حســـاب عـــدة أبعـــاد أساسية تتصل بالنتيجة المتوقعة عن السلوك وتأكيدها لجوانب اللذة أو الألم، وهي العمق أو الشدة Intensity والدوام Duration، ثم التأكيد أو التيقن Certainty، ثم الامتداد Remoteness من خلال الزمن أو من خلال شمولها للآخرين، ثم الصفاء Purity (أي تجردها من الآلام) ثم الخصوبة Fecundity، أي مدى ما يتولد عنها من لذات[٧٥].

يشير المبدأ الرابع إلي ضرورة التحول من المنفعة الفردية إلي المنفعة العامة عـــن طـــريق إستيعاب البعد الاجتماعي في السلوك. وقد تحقق ذلك بالتحديد علـــي يـــد جيمس مل. وجوهر هذا المبدأ هو التأكيد علي أن المعيار الوحيد للصواب هو السعادة القصوى لأكبر عدد من البشر[٧٦]. إرتباطاً بذلك يذهب كمبرلـــند إلـــي أعتبار خير الجميع غاية عليا لسلوك الإنسان ومعياراً أقصي لتقيـــيم ســـلوكه. ومن ثم أصبح الخير العام هو قانون الأخلاق الأسمي، فيه تتحقق سعادة الفرد والجماعة معاً، وقد سار في هذا التيار أيضا، شافتسبري فـــربط خـــير الفـــرد بخير المجموع، وقال أن نزعة الخير توجد في نزوع الإنســـان مـــن تلقـــاء نفســـه وبغير ضغط خارجي إلي ترقية خير المجتمع الإنساني وسعادته، وجاء هاتشيسون فتوصل إلي طبيعة المذهب النفعي الذي نحـــن بصدده إذ جعل غاية السلوك تحقيق "أوفي قدر من السعادة لأكبر عدد من البشر"[٧٧].

وفـــي محاولـــة فهم المذهب النفعي سوف نحاول ذلك من خلال التأكيد علي ثلاثـــة أبعاد رئيسية هي: الجذور الفكرية والاجتماعية للمذهب النفعي إضافة إلـــي مدخـــل المذهـــب النفعـــي لإدراك الواقـــع إلي جانب قضايا التصور الاجتماعي للمذهب النفعي، وسوف نعرض في الصفحات التالية هذه الأبعاد بإيجاز.

١- الجـــذور الفكـــرية للمذهـــب النفعي: يعتبر ظهور المذهب النفعي نتيجة لتفاعل وتطور تاريخي وفكري بين مجموعة من العناصر الفكرية والواقعية الـــتى تـــرجع في مجموعها إلي عصر التنوير. وبغض النظر عن اقتصار فاعلـــية بعـــض العناصــــر داخل حدود المذهب النفعي، إلا أن هناك بعض العناصـــــر الأخـــرى التي كان لها تأثيرها علي المذهب النفعي مثلما كان لها تأثيرها علي الاتجاهات النظرية الأخرى، وسوف نعرض فيما يلي لأبرز هذه الجذور الفكرية والاجتماعية.

ويعتـــبر الاتجـــاه التجريبي الرافد الفكري الأول الذي كان له تأثيره في هذا الصدد. فقد شكلت التجريبية أساساً للمذهب النفعي باعتباره مذهباً لا يلتزم بما هـــو قائم[٧٨]. توضيح ذلك ما تؤكده الأبستمولوجيا الامبيريقية كما عبر عنها جـــون لـــوك والقس بركلي وديفيد هيوم، حيث التأكيد علي ضرورة استنتاج المعـــرفة من التجربة، ثم فحص الاستنتاج الناتج عن التجريب. بذلك يصبح واضـــحاً أنه حينما تخضع الأفكار التقليدية لإمتحان التجربة، فإن نقداً شاملاً وعمـــيقاً لابـــد أن يحـــدث، وهو الأمر الذي يعني أن التجريبية أقل التزاماً بالواقع، ومن ثم فهي أكثر إمكانية لنقده بناء علي معطيات محسوسة.

مـــن هذا المنطلق شكلت التجريبية- التى أزدهرت في الفكر الأنجليزي في مجـــال الأخلاق- أحد روافد مذهب المنفعة العامة[٩٧]. ويتضح ذلك من تبني هلفتيوس Helvetius مذهب كوندياك فيما يتعلق بتحول أو انتقال الأحساس. حيث حاول هلفتيوس بناء نظرية تتعلق بنشأة الملكات Faculties من خلال الـــتجربة والتأثير الخارجي. إذ يبرهن أنه حتي حب الذات مكتسب، فنحن لا نشـــعر بالحـــب إذا لم يسبق ذلك شعور باللذة والألم. حيث تثير اللذة والألم إنتباهنا وتشحذه، بل وتحدد أفعالنا[٨٠].

وإلـــي جانب أن الأتجاه التجريبي قد أسهم في إسقاط الألتزام بالواقع ورفض ايـــة قداســـة له، فإنه جعل التجريب أساساً لتفاعل الفاعل مع واقعه المحيط، وذلك لتحديد مصادر اللذة والألم بالنسبة له، ومن ثم يعتبر ذلك أساس تشكيل إتجاهه نحو الواقع. يؤكد ذلك إهتمام بنتام بالمنهج الاستقرائي كأساس لوضع

عام للأخلاق له طبيعته الواقعية، أو هم علم حساب اللذات والمنافع بأمل أن يساعد ذلك علي إستكمال علم الإنسان[٨١].

إلي جانب ذلك شكلت بعض أفكار التنوير روافد أساسية للفكر النفعي إن سلباً أو إيجاباً. علي سبيل المثال رفض المذهب النفعي مبدأ القانون الطبيعي في مقابل التأكيد علي مبدأ المنفعة باعتباره أساساً لقياس دوافع السلوك. إذ تكون الدوافع خيرة إذا قادت إلي الانسجام والمصالح الفردية للآخرين، بينما تكون الدوافع سيئة إذا قادت إلي التناقض وهذه المصالح. وعلي أساس ذلك تعرضت التصورات الثيولوجية أو المتعلقة بالقانون الطبيعي لنقد حاد لكونها صياغات ميتافيزيقية ينبغي أن يحل مبدأ المنفعة محلها[٨٢].

إضافة إلي ذلك نجد أن الأتجاه النفعي يفرض ألتزاماً بحقوق الإنسان والمواطن. ومن بين ذلك أن البشر أحرار ومتساوون من حيث حقوقهم الرئيسية، فلهم حقوق طبيعية غير منسية فيما يتعلق بالثروة والأمان ومقاومة القهر، ولهم حقوق طبيعية في عمل ما لا يضر الآخرين[٨٣]. بل إننا نجد أن النفعية تشن هجوماً علي طبقة النبلاء باعتبار أنها طبقة مستهلكة وليست منتجة كالطبقة الوسطى. ويذهب ألفن جولدنر أنه لكي نفهم علاقة الإنسان بالمجتمع، والفرد بالآخر في إطار المجتمع، فإن ذلك يجب أن يتم بالنظر إلي علاقات السوق، حيث تقدير الإنسان أو السلوك من منظور فائدته، أي بالنظر إلي نتائج السلوك والحاجة المتبادلة إلي ذلك[٨٤].

وتعتبر الطبقة الوسطي الجماعة التي رفعت لواء المذهب النفعي الذي شكل أيديولوجيتها ومذهبها الفكرى في أعقاب الثورة الفرنسية وحتى قيام المجتمع الصناعي. إذ يكشف تحليل البناء الأيديولوجي للمذهب النفعي عن تضمنه لعناصر تؤكد المساواة والحرية وحقوق الإنسان إلي جانب التأكيد علي قيمة إسهامه الاجتماعي دون أعتبار لأصوله الاجتماعية أو ما ينسب إليه. بذلك نجد أن الطبقة الوسطي قد رفعت شعارات أكثر ملائمة لها، غير أنها قد لا تكون ملائمة للطبقات الأخرى. إذ من الواضح أن هذه الطبقة قد شكلت في

كـــل مكان رأس حربة الإصلاح الليبرالي في القرن التاسع عشر، خاصة أن النمو الصناعي والتجاري قد ساعد علي نمو قوتها السياسية[٨٥].

فـــي مواجهـــة ذلـــك أنكرت الطبقات الأخرى وجود الطبقة الوسطى حاملة الشـــعار النفعي. ويتساؤل إبي سايبز Abee Sieyes معبراً عن هذا الموقف قـــائلاً: ما هي هذه الطبقة الثالثة؛ ثم يجيب بأنها لا شئ، وإن كانت تريد أن تصـــبح شيئاً. ومن وجهة النظر الإقطاعية لا وجود للطبقة الوسطي إلا بما تفعـــل، أي الخدمات والوظائف التي تؤديها. غير أنه بمرور الزمن فاخرت هذه الطبقة الوسطي بنفعها، وبدأت تقيس كل الشرائح الاجتماعية بمدى النفع المنسوب لها، أو إفتقارها لذلك. واكتملت الدائرة حينما تبنت بعض الجماعات الأخـــرى شـــعار المنفعة العامة وأسبغت عليه احتراماً. وأصبح النفع مدخلاً لتأسيس الأحترام الاجتماعي[٨٦].

ويمكن القول بأنه قد تم تطوير معيار المنفعة الخاص بالطبقة الوسطي، وذلك مـــن خلال الحوار مع المعايير الاقطاعية والادعاءات الارستقراطية للنظام القديـــم. حيث تتأسس حقوق البشر وتتحدد بخلفياتهم الاجتماعية، سواء كانت الطـــبقة أو الـــبدنة، أي بواسطة كينونتهم وليس بالنظر إلي ما يفعلونه. في مقـــابل ذلك فرضت الطبقة الوسطي الجديدة تقديراً إجتماعياً عالياً لمهارات وطاقات الأفراد التي تسهم في تأسيس الإنجازات الفردية، ومن ثم فقد تضمن معـــيار الطبقة الوسطى التركيز علي المنفعة باعتبار أن المكافآت ينبغي أن تتناســـب مع إسهام الشخص وإنجازه. وأصبح مؤكداً أن نفع البشر ينبغي أن يصـــبح معيار المكانة التي يشغلونها أو السلطة التي توكل إليهم. ولقد ترسخ ذلـــك بحلـــول القـــرن التاسع عشر حينما أكدت قلة من الصفوة العقلية مع فلوبـــرت Flabort حينما حدد عقيدته البرجوازية في أنه (علي الإنسان أن يبني نفسه وعليه أن يكون مفيدا وأن يعمل)[٨٧].

بذلـــك رفعت الطبقة الوسطى الشعار النفعى كأساس لنيل الفرص والمكافآت وأيضـــا كوســـيلة تقضي بها علي سيادة الطبقة الارستقراطية وتؤسس علي أساســـها مشـــروعية سيادة الطبقة الوسطي. بذلك أكدت هذه الشعارات علي

إرتــباط المكافــأة بالمهـــارة أو القـــدرة وليس علي أساس المولد أو الهوية الاجتماعـــية الموروثـــة. وأصبحت شعارات الطبقة الوسطي ضد كل ما هو تقليدي، وأصبحت كل الهوايات الاجتماعية الاقطاعية لا قيمة لها، ولا تصلح لإي إدعاءات صادقة، حيث يوجد الأفراد، المواطنون الذين لهم ذات الحقوق الطبيعية أو الذين يحكمون بذات القيم والمعايير الواحدة(٨٨).

وتعتـــبر الأحـــداث التي وقعت في ثلاث دول أوربية ذات تأثير علي تبلور أفكـــار المذهـــب النفعـــي. وتمـــثل ألمانـــيا أول هذه الأفكار حيث تميزت أيديولوجيـــتها الليبرالية بالطابع الأكاديمي. فقد كانت المشكلة الملحة بالنسبة للعقـــل الألمانـــي في هذه المرحلة تتمثل في مسألة توحيد ألمانيا قومياً. وقد تحقـــق ذلـــك بالطبع خارج المظلة الليبرالية بقيادة بسمارك. وهوهنزولرنز Hohezollerns . ونتيجة لذلك لم تحقق الليبرالية ذات التأثير إلا في البناء التشريعي لألمانيا، وإن إختفي هذا التأثير في إطار البناء السياسي.

وقد انتقلت النفعية من فرنسا إلي إنجلترا من خلال الفيلسوف النفعى هلفثيوس ومؤلفـــة Del'sprit الـــذي ظهـــر في عام ١٩٥٨. حيث اتجهت النفعية في فرنسا لكي تصبح فلسفة إجتماعية لطبقة بذاتها، وهي الطبقة الوسطى. وبرغم تناقضـــها مع الارستقراطية فقد حملت إتجاهاً إرستقراطياً نحو الجماهير(٨٩).

ورغم أنتقال النفعية الفرنسية عن النفعية الإنجليزية إلا أن هناك فارقاً كبيراً بيـــنهما وخاصة فيما يتعلق بمبحث الأخلاق(٩٠). ومن الناحية العملية نجد أن هلفثـــيوس قـــد بـــذل مجهوداً كبيراً لتأسيس برنامج للإصلاح التشريعي عن طـــريق الأســـتفادة مـــن ميكانيزم الدوافع البشرية وتحقيق التطابق التام بين السعادة الخاصة من ناحية والرفاهية العامة من ناحية أخرى. وبإيجاز فإنه قد جعـــل من مبدأ السعادة القصوى وسيلة للإصلاح وأنتقلت منه إلي أتباعه من أمثال بيكارياBeccaria وبنتام Bentham (٩١).

وإذا كانت إنجلترا والمجتمع الإنجليزي قد شكلا المعقل الحقيقي الذي ظهرت فـــي إطـــاره النفعية والأتجاه الليبرالي المعبر عن رؤيتها السياسية، ومن ثم أنتقلت إلي فرنسا من خلال هلفثيوس. فإنها رجعت ثانية إلي إنجلترا علي يد

أحـد أتـباعه، وهـو الفيلسوف جيرمي بنتام. وإن كان هناك إتفاق علي أن إنجلترا قد شكلت المعقل الحقيقي للإتجاه النفعي، فإن ذلك قد كان بسبب ثلاثة عوامـل رئيسية إلي جوانب عوامل فرعية متعددة. ويتمثل أول هذه العوامل فـي أنـه مـنذ أن وضع بيكون في مطلع القرن السابع عشر أسس المنهج التجريبـي تمـيز التفكير الإنجليزي بالطابع العملي[٩٢].ومن ثم فقد أنتشرت التجريبـية علـي يد بنتام وجيمس مل وجون سيتوارت مل، وليسلي ستيفن وكلهـم مـن أعلام المذهب النفعى والتطورى. ويتعلق العامل الثاني بطبيعة النشـاط الاقتصـادى الذي ساد المجتمع الإنجليزي في هذه المرحلة. فنحن نعرف إن انجلترا كانت مهداً للثورة الصناعية، ومن ثم فقد وجدنا أن إنجلترا وحدها خلال القرن التاسع عشر كانت من أكثر بلاد العالم من حيث مستوى التصنيع، بحيث ظهر أسلوب من التفكير يحاول تجاوز الفرضيات الراديكالية وتحقـيق نـوع مـن الأنتقال والتطور السلمي، أولاً عن طريق منح الحرية الكاملة للصناعة، وأيضا عن طريق دعم الطبقة الوسطى والطبقة العاملة ضد مخاطر الصناعة. ومن ثم دعم المجتمع ضد الانشقاقات الاجتماعية، وخاصة فـي حالـة غـياب خطـوط التطابق بين الأوضاع الطبقية وبين الأحزاب السياسـية[٩٣]. ويتمـثل العامل الثالث في أن الليبرالية الإنجليزية قد تأسست بأعتبارها تتركب من عدد من العناصر المتبادلة التى فضلت التعاون لإنجاز أغـراض محددة بدون إصرار علي مسألة الأتفاق الأيديولوجي. ومن أفضل الأمـثلة علـي ذلك ما أشار إليه جراهام والاس Graham Wallace فيما يتعلق بالتحالف الفعال بين المسيحية الإنجيلية والإتجاه الراديكالي الديني لبنتام والراديكاليين الفلاسفة[٩٤]. وهي التحالف التي تأسست لأغراض عملية ذات نفـع للطرفين. إضافة إلي ذلك هناك مجموعة من العوامل التى ظهرت في إطار المجتمع الإنجليزي، ودعمت الموقف النفعي، منها أن إنجلترا كانت بلداً إسـتعمارياً تجاريـاً علي خريطة العالم. ومن ثم فقد كان منطقياً أن يؤسس أيديولوجية تبرر مشروعاته الاستعمارية عبر العالم، يدعم ذلك وجود رصيد

نفعى حيث الإصلاحات الدستورية التى قادت إليها نظريات العقد الاجتماعى في المجتمع الإنجليزي.

٢- مدخل المذهب النفعي لإدراك الواقع: إلي حد كبير أقترب مدخل النفعية فـي إدراكهـا للواقـع من الأتجاه الوضعي قدر إبتعادها عن منهج الأتجاه المثالـي. وإن كانت المنهجية النفعية تعكس في النهاية نفس الطابع الذرائعي أو البراجماتـي الـذي ميز التوجه الأيديولوجي العام لهذا الإتجاه. ويكشف تحليل المدخل المنهجي للمذهب النفعي عن تضمنه لنوعين من المسلمات أو المناهج، حيث تعلقت المجموعة الأولى بالمنهج من حيث كونه منهجاً، بينما أتصـلت المجموعة الثانية من المسلمات بطبيعة الموضوع الذي شكل محور إهتمام المدخل النفعي.

وفيما يتعلق بالمجموعة الاولي من المسلمات، نجد أن المذهب النفعي يقترب كثيراً من المنهجية الوضعية، ربما إلي درجة التطابق. هذا إلي جانب أن هذه المنهجـية تحمل إلي حد كبير تأثير النزعة التجريبية ونموذج العلم الطبيعي في التحليل والبحث، وهي المنهجية التي نعرض لخطوطها العامة فيما يلي.

أ – فـيما يـتعلق بـالموقف من العلم والتفكير العلمي نجد أن الفكر النفعي يرفض التقليل من شأن العلوم الاجتماعية الناشئة وذلك تحت تأثير التطورات العملية التى حدثت في مجالات الفيزياء والكيمياء والهندسة. وهي التطورات الـتى رفعت المكانة الفكرية للمنهج العلمي. وإرتباطاً بتأكيد المذهب النفعي علي أهمية المدخل العلمي أكد علي نظرية الحرية التجارية Laissez- faire حيث شهدت هذه الفترة تأسيس كل من جيومي بنتام، وجيمس مل James-Mill وديفـيد ريكاردو Recardo وجون ماكلوش John MacCullouch المـبادئ الكلاسـيكية للأنسـاق الاقتصادية والطبيعية المنظمة لذاتها، وهي المبادئ التى لعب دور الأيديولوجيا العلمية للرأسمالية الصناعية(٩٥).

ب- إضـافة إلي ذلك ينظر المذهب النفعى إلي الأخلاق- التى تشكل جوهر إهتمام العلم الاجتاعي- بإعتبارها علماً وضعياً وليس معيارياً. حيث لا يهتم بوصـف سـلوك الأفـراد فـي مجموعة بشرية مرتبطة بمكانها وزمانها،

بإصطناع المنهج العلمي. وقد استنكر مل الفلسفة الحدسية العقلية وتطلع إلي إقامـــة فلسفة تجريبية تتخذ طابع العلم وتجرى علي مناهجه وتتوخى النزاهة والموضـــوعية دون تدخـــل مـــن عواطف الباحث. بذلك تعتبر النفعية أكثر المذاهب الأخلاقية إتباعاً لمناهجه وإلتزاماً بمتطلباته.

ج- إلـــي جانـــب ذلك يؤكد الموقف النفعى علي الأدراك الجزئي أو الذري Atomistic في النظرية السوسيولوجية. ويذهب هذا الإتجاه في الإدراك إلي فهم خصائص التفاعل بالمجتمع من خلال إدراك خصائص الوحدات الفردية المكونة(٩٦). إرتباطاً بذلك يركز الإتجاه النفعى علي الجانب التحليلي للسلوك. أعني أن التركيز يتم أساساً علي وحدة السلوك ذاتها. مع إغفال العلاقات بين غايـــات ســـلوك مجموعة من الأفراد داخل مجتمع معين. فالتأكيد هنا يكون عادة علي تنوعها وإفتقادها للتكامل(٩٧).

ذلـــك يعني نفور الإتجاه النفعي من الأهتمام بأي تصور كلي للواقع. ومن ثم فالـــتفاعل لديـــه ينتمي إلي الوحدات التى تنجز مختلف أنماط السلوك وليس العكـــس. الإنســـان رشـــيد لدى هذا الإتجاه. يتجه مباشرة إلي إنجاز غاياته المباشـــرة دون أعتـــبار للآخـــر إلا بمقدار كونه وسيلة تساعده علي إنجاز ســـلوكه. فإذا رأت بعض الإتجاهات النفعية أن هناك كلية نسقية، فهي تراها ناتجة عن تفاعل أنماط السلوك الفردية.

د – ويتمـــيز الإدراك الـــنفعى للواقعـــة الإجتماعـــية بالتأكيد علي قدر من الموضوعية في الموقف النفعي من خلال تأكيده أن العلاقة بين أجزاء النسق تكون عادة ذات دلالة علمية وليست منطقية(٩٨). إضافة إلي ذلك تؤكد النفعية علـــي معـــرفة الإنسان كمدخل لإدراك هوية السلوك أو الواقعة الإجتماعية. فلكـــي نقـــيم نتائج سلوك ما فإن علي الباحث أن يعرفها، ومن أجل السيطرة علي هذه النتائج فإن علي الباحث أن يستخدم العلم والتكنولوجيا لتحقيق ذلك. فـــي إطـــار ذلـــك نجد أن المذهب النفعي يري أن العلم والمعرفة يتشكلان بتصـــورات آدائـــية واضـــحة(٩٩). وإذا كان تركيز المذهب النفعي علي قدر المعـــرفة بأعتبارها معياراً لقدرة الإنسان علي تجديد غايات سلوكه، وأيضاً

بإعتـــبارها إطارا يساعده علي إنتقاء الوسائل الملائمة لإنجاز السلوك. وإذا إتفقنا علي أن المعرفة لها أبعادها الموضوعية، فلا شك أن لها طابعها الذاتي المحض(١٠٠).

هـــــ- ويرى الأتجاه النفعي أن الأستقراء يعتبر المسلك الملائم للكشف عن معطـــيات الواقعة الإجتماعية حسبما يذهب جون ستيوارت مل. حيث ييسر الاســـتقراء الكشف عن القوانين، وهو الأمر الذي أوجب النظر إلي الأخلاق مـــن وجهة نظر طبيعية، وهو الجانب الذي تعتبره الوضعية أخلد جانب في تفكيره(١٠١). وذلك يعني التعبير عن موقف وضعي واضح حيث التأكيد علي ضرورة أن يتخذ إدراك السلوك الطابع العملي، أي بالنظر إلي واقعيته وليس بالـــنظر إلي مقولات منطقية. حيث ييسر ذلك قدر المعرفة العلمية التي تدعم إستقراء الباحث للواقع الذي يهتم به. وهو ما يبعد الباحث عن محاولة إدراك الحقيقة من داخله أو الإدراك الذاتي للسلوك.

وتتصل المجموعة الثانية من المسلمات المتصلة بالواقعة موضع الدراسة أو بالسلوك الذي ينجزه الإنسان الاقتصادي الرشيد. نذكر منها المسلمات التالية:

أ – يعتبر التأكيد علي الفرد والحرية الفردية من أهم المسلمات المنهجية التي نقلها المذهب النفعي عن التنوير. ففي دراسة المذهب النفعي للسلوك الفردي نجـــده يلغي أية كيانات خارج الفرد. حيث أعتبر الفرد مسئولاً عن سلوكه. وقد صاحب ذلك تأكيداً علي حرية الضمير الفردى وليس علي القيم المشتركة لأعضــــاء المجتمع المسيحي. فقد تم التأكيد علي حق الفرد في الإختلاف عن الآخريـــن، وبخاصة في وجه الإتجاه نحو قهره من قبل الإتفاق مع سلطة أو تنظـــيم معين. إستناداً إلي ذلك برز إهتمام عميق بغايات السلوك وشكل ذلك بداية إنطلاق الفكر النفعي(١٠٢).

ب- وتؤكد المسلمة الثانية علي تأكيد المذهب النفعي علي أن مقياس صلاحية السلوك وفعاليته لا يتكون من معايير فوق البشر أو سامية عليهم. ولكنها من داخـــل البشـــر أنفســـهم، لأنهم المقياس الحقيقي لذلك أعني إفتراض المنفعة بالـــنظر إلي البشر، من حيث مصالحهم وسعادتهم. وتقييم سلوكيات البشر أو

أية موضوعات بالنظر إلي نتائجها، وهو الأمر الذي يعني تقييمها بالنظر إلي كيفية الأستفادة منها لتحقيق مصلحة، وليس بالنظر إلي طبيعة أنماط السلوك هذه، أو إلي طبيعة الموضوعات ذاتها: فالأشياء لا تصبح في ذاتها خيرا أو شـراً، ولكـن بالنظر إلي كونها نتاجاً يلقي القبول[١٠٣]. فمعيار الحكم علي السلوك يستند إلي مدى إشباع الحاجات الأساسية للإنسان، وهو الأشباع الذي يحكـم علـيه ذاتياً من وجهة نظر الإنسان ذاته. لأن الأشباع بطبيعته خبرة ذاتية.

د – وتشكل عشوائية الغايات أحد المسلمات العينية الأساسية للمذهب النفعي. فـنظراً لأن هـذا الإتجـاه يرى في المجتمع مجموعة من الأنماط الرشيدة للسـلوك. ورغـم أن تصور السلوك لدى النفعية يتضمن إتجاهه نحو إنجاز غايات معينة، فليس بالنفعية ما يشير إلي علاقات هذه الغايات كل بالأخرى، إذ يتركز الإهتمام أساساً علي العلاقات بين العناصر الداخلية للسلوك الواقعي كوحـدة، وأهمها الوسائل والغايات. ويذهب تالكوت بارسونز إلي إمكانية أن يؤدى هذا التناقض في الإطار النفعي إلي نتائج خطيرة، حيث قد يعني إهمال الاتجـاه النفعي لعلاقات الغايات ببعضها البعض معني واحداً فقط، هو أنها ليسـت علاقـات هامـة علي الأطلاق[١٠٤]، وهو الأمر الذي يرفضه الفهم السوسيولوجي الشائع.

٣- قضـايا التصور الاجتماعي للمذهب النفعي: يحمل التصور الاجتماعي الـذي طوره المذهب النفعي تمجيد التنوير للإنسان من حيث إحترام إرادته وتأكـيد قدرتـه علي التغيير. في مقابل ذلك ركز الإتجاه النفعي علي تجحيم فاعلية المجتمع بحيث تأكدت ملامح هذا التصور من خلال مجموعة الأبعاد التالية:

أ – فـيما يتعلق بنشأة التفاعل يكشف تحليل الموقف النفعي عن إغفاله التام للوجود المجتمعي لحساب الوجود الفردي. إذ يؤكد هربرت سبنسر منذ البداية أن المجـتمع هوية أو ذاتاً تتشكل من الوحدات المنفصلة التى تتميز بترتيب دائـم نسـبياً في إطار منطقة محددة[١٠٥]. بذلك يصبح الأفراد هم الوحدات

الأساسية المشكلة للمجتمع، أو هم المتغير المستقل بالنسبة له. وفيما يتعلق بأساس التفاعل الاجتماعي، يؤكد هلفثيوس أن اللذة والألم تثير إنتباهنا وتشحذه وأيضاً تحدد أفعالنا. وإذا كان بنتام قد أكد أن سلوك وحياة الأفراد تخضع لسيطرة دوافع نفسية، فإن ذلك من شأنه أن ينتج أنماطاً من السلوك لا تكون خيراً إلا إذا حققت ما ينفع الفرد، بذلك توقفت أخلاقية السلوك علي نتائجه وآثاره(١٠٦). بذلك ترى النفعية أن الفرد هو المدخل الوحيد لتأسيس السلوك، لأنه لديه مقاييس الحكم علي فاعلية السلوك وتحقيق غرضه.

بيد أن ذلك يعني أن المجتمع ليس إلا بشراً منفصلين يسعي كل منهم بسلوكه نحو إشباع أنانيته الخاصة. بالنظر إلي ذلك يحاول بنتام علي إستحياء أن يدخل البعد الاجتماعي كأحد مقاييس منفعة السلوك. فهو وإن كان قد أكد أنه من الخطأ أن ترد أفعال الإنسان او بعضها إلي ما أسماه البعض بالغيرية أو الإيثارية، فإن الغيرية ليست إلا أنانية متنكرة(١٠٧)، ومن ثم نجده يؤكد شمول اللذة (وامتدادها للآخرين). بيد أن شدة اللذة تتناقض مع شمولها الآخرين، فاللذة تبدو قوية إذا أقتصر تأثيرها علي صاحبها، ضعيفة متى وزعت علي آخرين. ومن أجل هذا عدل بنتام عن قياس شمول اللذة وأستبعد في آخر أيامه من مذهبه الفول (لأكبر عدد من الناس). وأصبح شعار مذهبه (تحقيق أكبر قدر من السعادة)(١٠٨)، ومن ثم فقد إرتد ثانية إلي البعد الفردى كأساس للسلوك والمنفعة، وعجز بذلك عن صياغة مواءمة بين البعد الفردى والبعد الإجتماعي.

وقد حاول جون ستيوارت مل أن يصور إنساناً ينصف غيره ويعدل بين نفسه والآخرين عند توزيع المنافع. وإتجه بالخير وجهة إجتماعية خالصة. فأقام الصلات بين سعادة الفرد وسعادة المجتمع. وأجب أن يضحي الفرد بسعادة من أجل المجموع. ومن ثم أقر الغيرية وأباح التضحية بشرط أن تكون أداة لخدمة المجموع. وأكد أن في وسع الإنسان أن يعمل علي إسعاد الآخرين. دون أن يكون في ذلك مصلحة له. ذلك ما يفعله البطل الشهيد الذي يضحي براحته في سبيل الآخرين طائعاً مختاراً(١٠٩).

ب- فـــي مقابل ذلك تصر النفعية علي ضرورة أن يكون السلوك الاجتماعي والفردي متحرراً من أية ضغوط خارجية. إذ تري النفعية منذ البداية المجتمع بتكويـــناته الكلية نتاجاً لأفراده المكونين بسلوكياتهم وتفاعلاتهم الفردية[١١٠]. هذا بالإضافة إلي أننا نجد تأكيدا علي كفالة الحرية الفردية وتحريرها من كل قيد لا تتطلبه حماية مصالح الآخرين[١١١]. وهنا يري جون ستيوارت مل أن السـلوك الأجتماعي لا تحكمه أية عوامل خارجة عن ذات الإنسان، فأخلاقية السلوك عند مل تستند إلي مقصد صاحبه ومدى إرادته له[١١٢].

ويؤكـد المذهب النفعي علي حرية السلوك الفردي في مواجهة المجتمع من خـلال ثلاثة أعتبارات. الأول أن النفعية تدرك الواقع إدراكاً جزئياً. ومن ثم تسـتنتج خصائص المجتمع من خصائص وحداته المنعزلة[١١٣]. ويعني ذلك أولويـة الفـرد علـي المجتمع الذي تتخلق خصائصه من خصائص الأفراد المكونيـن له. ويـتعلق الاعتـبار الثاني بالمعرفة التي يمتلكها الفرد لتوجيه سلوكه الاجتماعي. ذلك يعني أن معرفة الإنسان وليست الظروف الاجتماعية هـي المحور الرئيسي لسلوكه[١١٤]. ويشير الاعتبار الثالث إلي مبدأ عشوائية الغايات، ومن ثم إنتفاء علاقاتها ببعضها البعض مما يجعلها لا تشكل وجوداً مفروضاً علي الفرد من الخارج. ذلك يعني أن الموقف النفعي لا ينفي وجود المجتمع بل يراه إطاراً ناتجاً عن تفاعل مجموعة من البشر، ومن ثم فهو لا يفرض ضغوطاً علي سلوك الإنسان الذي ينبغي أن يكون حراً وإرادياً، وفي هـذا الإطـار يلعـب المجتمع دوره كمجرد مجال يتحقق في إطاره السلوك الفردي.

ج- ويعتـبر المذهـب النفعي من الاتجاهات النظرية التي نقلت عن التنوير أهـتمامه بالمعـرفة ودورها في توجيه الإنسان والمجتمع. إذ تدرك النفعية الإنسان بإعتباره يمتلك قدراً من المعرفة العلمية المتعلقة بالواقع الإجتماعي. بحيث تصبح هذا المعرفة الصادقة هي الوسيط الوحيد والملائم لإنجاز سلوكه في إطار الواقع الإجتماعي. وهي تجعل سلوكه معقولاً، وليس مجرد إستجابة لقـوي مفروضـة علـيه[١١٥]. خلاصة القول أن لدي المذهب النفعي إيماناً

مـــتطرفا يعلـــي مـــن شأن المعرفة، وعدم إمتلاكها يعني إحتمالية الخطأ في توجـــيه السلوك. ويحاول النفعيون أن يفسروا سبب إنحراف السلوك مؤكدين أن الســـبب يرجع إلي أن الإنسان إما أنه لم يعرف ببساطة الحقائق الملائمة لســـلوكه، ومـــن ثم كان من الممكن أن يتصرف بأسلوب مختلف لو أنه قد تعـــرف علـــي هـــذه الحقائق. أو أنه أستند في سلوكه إلي أعتبارات أثبتت المعـــرفة الصحيحة خطأها. فهو قد أعتقد أنه قد عرف بينما هو لم يعرف (١١٦)، وذلك يعني أن رصيد المعرفة التي يمتلكها هي أساس عقلانيته، وأن هـــذه العقلانـــية هـــي المتحكم الوحيد في سلوكه. ومن ثم فالمجتمع بالنسبة للإنسان- من وجهة النظر النفعية- ليس سوي وسائل لتشكيل سلوكه.

د- ويرفض المذهب النفعي أي ضبط قد يمارسه المجتمع علي الفرد، يوضح ذلـــك ما يذهب إليه البارون د. هولباخ Holbach D. Baron خلال مرحلة التـــنوير، أن الواجبات لاتشتق من الله ولكن من طبيعة الإنسان. بل إن هناك كثـــيراً من الفلاسفة الذين وافقوا علي تعريف توسانت Touissant للفضيلة علـــي أنهـــا الإخلاص في أداء الألتزامات التي يفرضها العقل، فالإنسان لا يضـــر الآخريـــن ليس لأن ذلك من القواعد اليومية ولكن لأن ذلك ليس من الحصافة في شئ.

ويعنـــي ذلك- كما تذهب النفعية- أنه ليست هناك معايير ترنسندنتالية تفرق البشـــر لأن البشـــر أنفسهم، وطبيعتهم الأساسية هي الأساس (١١٧). في إطار ذلـــك فإنه ليست هناك قيم أخلاقية مفروضة علي السلوك من خارجه. ولكن تتبدى أخلاقية أنماط السلوك بالنظر إلي نتائجها بالنسبة للإنسان الذي عليه أن يـــنجز الســـلوك. فـــإذا أنـــت قيمت البشر والموضوعات بالنظر إلي نتائج ســـلوكياتهم، فـــإن ذلـــك يعني تقييمهم بالنظر إلي مدي فائدتهم لتحقيق غاية معينة، وليس بالنظر إلي هويتهم في ذاتهم.

ويعني ذلك أن الإتجاه النفعي يدين الأشخاص الذين يتمسكون بالفضيلة وينظر إليهم علي انهم متمركزون حول ذواتهم بل وعصابيون Neurolic، وفضلا

عــن ذلــك فإن الشخص غير النافع يكون موضعاً للعقاب، بغض النظر عن مدى تمسكه بالفضائل(١١٨).

ويؤكد ألفن جولدنر أن الإتجاه النفعي لديه ميلاً نحو حالة اللامعيارية، حيث تمــيل الــبرجوازية النفعية إلي التخلي عن الدستور الأخلاقي، لأن المنافسة تفــرض علــيهم إحتقار الوسائل المشروعة أخلاقياً. وبدلاً من ذلك عليهم أن يســتخدموا الوســائل القادرة علي تحقيق النجاح(١١٩). ذلك يعني ضمنياً أن الإتجاه النفعي- لكونه يسمح لكل شخص أن يسعي لتحقيق أهدافه وأن يختار معايير أخلاقية تحكم أفعاله. يؤكد أنه ليست هناك معايير أو قيم مشتركة، كما يــري أن من حق أي شخص أن يسعي لتحقيق مصالحه الخاصة، لأنه كان يعتقد في الإنسجام الأساسي بين مصالح البشر(١٢٠).

رابعاً: النظرية والواقع الاجتماعي، طبيعة العلاقة المتبادلة(•)

تخــتلف الــنظرية الاجتماعــية عن التفكير الاجتماعي ، في أن لها علاقة عضوية قوية بالواقع الاجتماعي. ذلك لأن التفكير الاجتماعي بشأن الواقع قد يقــدم تصــورات مكتملة من الناحية المنطقية عن الواقع غير أنها في غالب الأحــيان لا تأخذ تفاعلاته في الحسبان أو الاعتبار. ويمكن القول بأن مرحلة التفكــير الاجتماعي وهي المرحلة السابقة علي نشأة علم الاجتماع والنظرية الاجتماعية، وهي أيضاً المرحلة التي شهدت تفجر الثورة الفرنسية قد قدمت كثــيراً مــن التصورات النظرية المتعلقة بالمجتمع، سواء المجتمع القائم أو مجــتمع المســتقبل ويدخــل فــي هــذا الإطار التصورات التي قدمها فيكو وكدندرســية وحتي أوخست كونت فيما يتغلق بالمجتمع. غير أنه حينما نشأ علم الاجتماع وأصبحت النظرية الاجتماعية أكثر وحدات العلم محورية. فأنها بــرغم كونها نوع من التفكير المجرد إلا أنها اختلفت عن الفلسفة من ناحية والتفكــير الاجتماعــي من ناحية أخري في أن علاقتها بالواقع دائماً قوية ، فالنظرية الاجتماعية تسعي إلي فهم الواقع للتعرف علي مشكلاته لتقديم حلول

(••) ألقي هذه القضية كمحاضرة علي طلاب النظرية الاجتماعية بجامعة عين شمس،وسوف تعاد كتابتها وتوثيقها في الطبعة القادمة إن شاء الله.

لهـــا، أو لترشيد حركة الواقع بما يحقق أكبر عائد اجتماعي، وتجنيب الواقع كثيرا من الخسائر والتمزقات ومن ثم فمنذ نشأة النظرية الاجتماعية وعلاقتها بالواقع هي الأكثر قوة مقارنة بأنماط التفكير الأخري.

وتظهـر العلاقــة قويــة بين النظرية الاجتماعي وواقع المجتمع، من خلال المنظريــن أنفسهم باعتبارهم بشراً أو مواطنين في المجتمع، يدركون طبيعة مشــكلاته بل ويعانون منها أحياناً غير أنهم في نفس الوقت أصحاب أفكار، ولديهـم أطــرهم وتصوراتهم النظرية التي تساعدتهم في أحيان كثيرة علي رؤية ما لا يراه الآخرون فيما يتعلق بالتفاعلات الواقعية. ونظراً لأن الواقع الاجتماعي غير ثابت أو متغير بصورة مستمرة ومطرده، فإن هذا التغير قد يكــون تدريجــياً تتغير في إطاره بعض عناصر أو جوانب المجتمع بصورة تدريجية غير محسوسة. غير أن هذا التغير قد يكون في أحيان أخري شاملاً وجذريــاً، تتغــير في نطاقه، وفي فترة محدودة ، كل جوانب بناء المجتمع، بحيــث تســلم هــذه التغــيرات الراديكالية في الغالب إلي تخلف شكل جديد للمجــتمع. وعلــي المستوي النظري فأننا نتصور أن كل مجتمع يحتاج إلي مســتوي معيــن من التغير التدريجي أو التلاؤمي، بحيث يتحقق الاستقرار الاجتماعي إذا تحققت له التغيرات التدريجية التي يحتاجها بناؤه.غير أن هذا المجتمع قد يواجه نوعاً من التغير الشامل والجذري في حالتين. الحالة الأولي حيــنما تــتحقق التغيرات التدريجية بمستوي أقل من المستوي الذي يحتاجه المجــتمع، أو أن هــذه التغــيرات التدريجية لا تتحقق علي الإطلاق بسبب ظــروف إجتماعية وسياسية مضادة للتغير. وتتمثل الحالة الثانية في ظهور متغــيرات جديــدة طــرأت علــي بناء المجتمع فغيرت بنيته بصورة شاملة وأساسية.

ذلــك يعنــي أن تاريخ أي مجتمع من المجتمعات ينقسم بصورة دورية إلي مرحلتيــن تتــتابعان دائماً. مرحلة من التغير الاجتماعي الهادي والتدريجي، وربما المحدود للغاية، وفي هذه المرحلة عادة ما يتمكن المجتمع عن طريق التغــيرات التدريجــية -أيا كان مستواها- من حل بعض مشكلاته، غير أن

هــناك مشكلات أخري لا تفلح معها التغيرات التدريجية، ومن ثم تتراكم هذه المشكلات علي فترة طويلة من الزمن، بحيث تشكل ضغطاً بنائياً حتي يتحقق التغــير الشــامل والكلي ،أو أن ضغط هذه المشكلات يظل قائماً وله وطأته وتأثيره علي بناء المجتمع حتي يظهر متغير جديد يضيف ضغوطاً هائلة علي بناء المجتمع، ومن ثم يفرض عليه التغير الاجتماعي الشامل. فأذا حدث هذا التغــير الشامل تأتي فترة تالية يعيش في إطارها المجتمع في إطار حالة من الاستقرار النسبي، ثم تبدأ بعض المشكلات في الظهور التي قد لا تجد الحل الملائم، والتي تتراكم ضغوطها إلي أن يحدث انفجار جديد. ذلك يعني أن أي مجــتمع من المجتمعات يعيش مرحلتين المرحلة المستقرة التي تشهد تغيرات تدريجــية بمســتوي ملائم أو غير ملائم، وفي رحمها تتخلق المشكلات التي تولــد ضــغوطاً من أجل التغير الراديكالي الشامل. ثم تعقبه فترة أو مرحلة الاســتقرار في هذا الإطار فأننا نجد أن الفترة التي يعيشها المجتمع مستقراً هــي عادة الفترة الأطول، وفي إطارها نجد أن المجتمع يستوعب التغيرات إلي نتجت عن التغيرات الشاملة والجذرية التي حدثت في مرحلة سابقة، وفي ذات الوقــت فإنــه خــلال عملــية الاستيعاب والاستقرار هذه تظهر بعض المشــكلات التــي قــد يجد بعضها حلاً بينما البعض الآخر لا يجد حلاً لانه يــتجاوز الإمكانــيات التلاؤمــية للبناء الحالي، ومن ثم تستمر هذه المشاكل والضغوط الناتجة عنها في التراكم، إلي أن تظهر المتغيرات المساعدة فتقود المجتمع إلي انفجار جديد يؤدي إلي تغيير البناء القائم من أساسه.

وعلي التوازي مع هذه الحركة تحدث هذه الحركة تحدث حركة مناظرة علي المســتوي الفكري أو التنظيري حيث يعيش التنظير الاجتماعي مرتبطاً دائماً بمرحلتين. في المرحة الأولي، نجد أن التنظير القائم يتفاعل مع واقع المجتمع الذي يثبت زيف بعض مقولاته أو يضيف إليه مقولات جديدة. وتستمر عملية إثبات زيف المقولات السابقة وإضافة مقولات جديدة إلي أن يصل التنظير أو النظرية إلي حالة تكون فيها عاجزة عن متابعة حركة الواقع وتفاعلاته، ومن ثم ذلك يدفع ذلك إلي قيام نموذج نظري أو نظرية جديدة تستند بالأساس إلي

المقولات التي مازالت صادقة في النظرية القديمة إضافة إلي مقولات جديدة قـام المنظر بتحديدها عن الواقع الجديد والمعاش. خاصة إذا كان الواقع قد وقعت به تغيرات شاملة فرضت إبراز عجز النظرية القديمة عن فهمه. وفي هـذه الحالة تظهر لدينا- استجابة للواقع الذي خضع لتغيرات شاملة - أبنية نظـرية تنتظم فيها المقولات القديمة الصادقة بالإضافة إلي المقولات الجديدة التي جردت عن الواقع الجديد. وهو ما يعني أن فترات الغليانات الاجتماعية والتغيرات الاجتماعية الشاملة، هي الفترة التي تشهد في ذات الوقت تغيرات فـي بناء النظريات الاجتماعية القائمة، تدفعها أحياناً إلي هجر نماذج نظرية قديمـة، وظهور نماذج أو نظريات إجتماعية جديدة قادرة علي فهم وتصوير تفـاعلات البناءات الاجتماعية التي نتجت عن هذه التغيرات . وذلك استناداً إلـي دور المفكرين والمنظرين الاجتماعيين الذين تستنفر التغيرات الشاملة التـي يمـر بهـا المجتمع عقولهم وتشمذ هممهم من أجل فهم هذه التغيرات الشاملة التي وقعت، ومحاولة تقديم بعض الحلول للمشكلات التي فجرت هذه التغيرات أو تخلفت عنها. هذا بالإضافة إلي محاولة تقديم بعض التصورات الـنظرية لترشيد حركة المجتمع في المستقبل بما بجنبه توليد مشكلات جديدة وحـادة وييسر له توليد تغيرات تلاؤمية بمستوي ملائم للتغيرات التي تطرأ علي مكوناته أو للمتغيرات التي تستجد أو تطرأ علي بنائه.

وعلـي هذا النحو يخضع التنظير الاجتماعي لحالتين. الحالة الأولى تأسيس نظـريات إجتماعية جديدة متناظرة مع فترة الغليان الاجتماعي أو التغيرات الاجتماعـية الشـاملة التي مر بها المجتمع. بحيث تسعي هذه النظريات إلي تجديد التفاعلات القائمة في البناء الاجتماعي الجديد. ومن الطبيعي أن تغرز حالـة التغـير الاجتماعي الشامل هذه عدة نظريات لأن كل مفكر أو منظر إجتماعي يدرك هذه التغيرات الاجتماعية وينظر لها من وجهة نظره واستناداً إلـي بناء افتراضاته الكامنة والعواطف المرتبطة بها. ويمكن أن نسمي هذه المـرحلة بمرحلة التغيرات الشاملة في الأبنية النظرية. ثم تأتي حالة تالية أو ثانـية، يكون فيها الواقع الاجتماعي مستقراً نسبياً - بعد أن خضع لحالة من

التغير الاجتماعي الشامل – حيث يعكف الباحثون والعلماء خلال هذه الفترة علـــي اختـــبار مقـــولات وفرضيات الأبنية النظرية القائمة من خلال إجراء الـــبحوث الميدانـــية، ومن ثم تنتهي جهودهم هذه إلي إثبات صدق كثير من مقولات الأبنية النظرية القائمة، كذلك إثبات زيف قضايا أو فرضيات أخري كثيرة. ومن خلال البحوث الاجتماعية تسقط المقولات أو القضايا الزائفة التي لـــم تؤيدها نتائج البحث الاجتماعي الميداني. بينما يتم تعديل قضايا أخري، وهكـــذا تعمـــل فـــترة الاستقرار الاجتماعي هذه دورها في تعريض التنظير الاجتماعي القائم لاختبارات البحوث الاجتماعية الواقعية. وتدريجياً تتأكد قوة بعـــض الـــنظريات بينما يبرز ضعف وتهافت نظريات أخري، يستمر إثبات عجزها برغم محاولات البعض دعم مقولاتها إلا أن يواجه المجتمع تغيرات شاملة وجذرية جديدة تكون هي الفيصل في الحكم علي كفاءة الأبنية النظرية القائمـــة مـــن حيـــث قـــدرة علي فهم هذه التغيرات الجديدة. ولأن التغيرات الاجتماعـــية الواقعية شاملة وحاسمة فأنها تثبت بما لا يدع مجالاً للشك زيف عديـــد مـــن الأبنـــية الـــنظرية القائمة. ومن ثم يبقي علي المقولات القديمة والصـــحيحة فـــيها ، يضـــاف إلـــيها مقولات جديدة جردت عن التفاعلات الاجتماعـــية الواقعـــية والمـــتجددة ، وهكذا تظهر أبنية نظرية جديدة تواكب تفاعلات الواقع الجديدة، وأعتقد أن هذه الحركة سوف تستمد أبداً محكومة من ناحـــية بالامـــتداد الرأس في الزمن إلي المستقبل ومن ناحية أخري بالامتداد الأفقـــي حيث تنوع الجغرافيا والعمران والمجتمعات إلي أن تفضي إلي بناء الـــنظرية الشاملة لعلم الاجتماع. وتطبيقاً للقضايا النظرية التي طرحناها في الصـــفحات السابقة فأننا إذا استعرضنا تاريخ التنظير الاجتماعي في علاقته بـــالواقع الـــذي جـــرد عنه، فأننا سوف نجد علاقة عضوية بين التطورات الواقعـــية التـــي حدثـــت في إطار المجتمع، وبين التطورات التي حدثت في الأبنـــية الـــنظرية المعايشة لهذه التطورات الواقعية. بيد أن هذا لا يمنع من إمكانـــية أن تلعـــب الأفكار النظرية بذاتها دوراً رئيسياً في الدفع إلي تغيير وتطويـــر الواقع الاجتماعي. يؤكد هذه العلاقة استعراض المراحل التاريخية

التـــي شهدت تحولات اجتماعية واقعية شاملة، وفي ذات الوقت برزت فيها نظريات اجتماعية شاملة.

وتعتـــبر المرحلة الثانية التاريخية التي ظهرت فيها نظريات العقد الاجتماعي هـــي البداية الحديثة التي يمكن أن نبرهن من خلال تحليلها علي وجود هذه العلاقـــة بين التنظير والواقع الاجتماعي. وتبدأ التغيرات التي ظهرت خلال هـــذه المـــرحلة في الفترة التي بدأت مع بداية القرن الخامس عشر وانتهت بـــبداية القـــرن السابع عشر. وهي الفترة التي شهدت إكتمال تأسيس الدولة القومية. ونحن إذا نظرنا إلي الواقع الأوربي حينئذ فسوف نجد أن هناك عدة متغـــيرات تشكل هذا الواقع. ويتمثل المتغير الأول في الأوضاع التي كانت عليها الكنيسة الكاثوليكية حينئذ والتي دفعتها من الناحية الفكرية إلي أن تقف أمـــام أية أفكار جديدة، واعتبرت أن التفكير من داخل الكتاب المقدس، حيث التفســـيرات التـــي وضعها القساوسة ، إضافة الفلسفة الأرسطية، هذا التفكير الذي يلقي قبول الكنيسة وموافقتها. وأن أية أفكار غير ذلك تعد خروجاً علي الكنيسة يستحق العقاب. وبالإضافة إلي الجمود الفكري الذي فرضته الكنيسة فقـــد انتشـــرت فـــيها بعض مظاهر الفساد، التي بلغت ذروتها في الظاهرة التاريخـــية الشهيرة والتي عرفت بصكوك الغفران. هذا بالإضافة إلي إدعاء الكنيســـة الوصاية علي الأرض المسيحية، وهي الوصاية التي أباحت لها في أحيان كثيرة التدخل في الشئون السياسية الأمر الذي فرض أن توجد الكنيسة كثيراً كطرف في الصراعات السياسية ، وهو الأمر الذي تجلي في قيام كثير مـــن الحروب الدينية السياسية حينئذ . ولقد بلغ الأمر في بعض الأحيان أن أصبحت الكنيسة مصدراً للشرعية السياسية، أي أنها التي تعطي الحق لتولي أمير أو ملك أمور إمارته أو مملكته.

ويتمـــثل المتغير الثاني في طبيعة واقع المجتمع الأوربي حينئذ ، حيث كانت أوربـــا تنقســـم حينئذ إلي مجموعة من الإقطاعيات التي يحكم كل منها أمير يســـتعين بمجموعة من الفرسان في حكم إمارته التي تضم بالإضافة إلي ذلك شريحة من العبيد أو اقنات الأرض، حيث كان للأمير عليهم حق الملكية في

مقـــابل حمايـــته لهم. وفي هذا الإطار فقد كانت موافقة الكنيسة أساساً لتولي الأمير أو السيد الإقطاعي أمر إمارته أو إقطاعيته . بالإضافة إلي ذلك كانت هـــناك شـــريحة من البشر الأحرار الذين يتجولون بين المقاطعات الأوربية يقومـــون بالـــتجارة بينها، ومن ثم فهم كارهون للحدود بين المقاطعات لأنها تعـــوق حركتهم بينها، وبسبب ما يفرض عليهم من ضرائب كذلك عند هذه الحدود وقد شكل هؤلاء التجار الأحرار التكوين الجنيني للطبقة البرجوازية، التي أصبحت برجوازية تجارية في مرحلتها تجارية في مرحلتها الأولي ، ثم برجوازية صناعية في المرحلة الثانية التي شهدت قيام الثورة الصناعية.

ويتصـــل المتغير الثالث في هذا الصدد بحركة الإصلاح الديني،وهي الحركة التـــي قادها أثنين من القساوسة هما كالفن ومارتن لوثر ، حيث انتقدا تدخل الكنيســـة في السياسة، كما انتقدا حالة الجمود التي فرضتها الكنيسة علي نمو التفكـــير. إضـــافة إلـــي نقد تدخل الكنيسة في السياسة إلي جانب نقد التدرج الكنســـي الـــذي يؤســـس بناءاً متدرجاً من رجال الدين يشغلون المسافة بين المســـيحي العادي والله، ويدعون احتكار المعرفة بتعاليم السيد المسيح عليه الســـلام. ومن ثم فقد خرجوا بالمسيحية عن أصولها الصحيحة. ومن ثم فقد أكد كالفن ولوثر أن ضرورة العلاقة مباشرة بين الإنسان والله بلا وساطة من رجـــال الدين كما أكد علي العودة إلي المسيحية في أصولها الصحيحة التي جاء بها السيد المسيح عليه السلام ، وهي المسيحية التي ترفض التداخل بين الدين والسياسة استلها ما لقول السيد المسيح دع مالقيصر لقيصر ومالله لله ، ولقـــد كانت النتيجة المترتبة علي ذلك ظهور جديد هو مذهب "البروتستنتي" الـــذي أصبح له وجوده الواضح علي خريطة الأرض المسيحية، بل أننا نجد أن عالمـــاً اجتماعـــيا هو ماكس فيبر أسند إلي قيم المذهب البروتستني نشأة الـــنظام الرأســـمالي المعاصر. ولقد ساعد علي نجاح حركة الإصلاح الديني اخـــتراع "يوهان جوتنيرج" للطباعة التي ساعدت علي طبع الانجيل بحيث أصبح في متناول عامة البشر، وألغي احتكار الكنيسة ورجال الدين له.

ويشــير المتغير الرابع في هذا الصدد إلي التطورات الفكرية والسياسية التي حدثت كنتيجة لحركة الإصلاح الديني. فقد أدي انكماش سيطرة الكنسية علي الفكر إلي إطلاق عقال التفكير العلمي من خارج الكنيسة، حيث أدي التحرر الدينـــي إلـــي نوع من التحرر الفكري، وهو التحرر الذي أدي بالإضافة إلي متغيرات أخري كحركة الكشوف الجغرافية مثلاً – إلي اكتمال نشأة. وتبلور العلــوم الطبيعة، وهو التبلور – الذي أكتمل مع نهاية القرن السادس عشر" وقد كان منطقياً أن يحدث نوع من التحرر السياسي المصاحب للتحرر الديني والعلمي، وأن يقود ذلك إلي تخلق ما يمكن أن يسمي بمشكلة الشرعية. حيث ظهــرت هــذه المشــكلة لأنهيار قوة الكنيسة التي كانت تمنح هذه الشرعية، ونتــيجة لانهــيار الشرعية السياسية التي كانت تستند إلي أوامر وفرامانات الكنيســة ظهرت شرعيات كثيرة إدعاها البعض من أجل السيطرة السياسية علــي الإمارات الأوربية. فقد قامت مثلاً شرعية القوة، فمن يمتلك القوة هو من يحكم،وقامت شرعية الحق الطبيعي، وشرعية الحق الإلاهي ، بحيث قاد تعدد الشرعيات وتضاربها المقاطعات والإمارات الأوربية في دخول حروب وصــراعات مع بعضها البعض سماها توماس هوبز بحرب "الكل ضد الكل" وكان ذلك إيذانا بأن المشروع الإقطاعي لم يعد صالحاً للتنظيم السياسي.

ونتــيجة لهــذه الحــروب الشاملة ، بدأ تبلور المجتمع العام ليصبح الوحدة الاجتماعية الأشمل التي ينبغي أن تحل محل المجتمع، ولم يعد البناء السياسي للإمارة أو المقاطعة صالحاً للحكم والضبط بل حل محله الدولة كنظام سياسي قــادر علــي حكــم المجتمع العام والسيطرة عليه. ولقد ساعدت البرجوازية الــتجارية علــي نمــو هــذا المجتمع لأنه يساعد بدرجة أفضل علي تحقيق مصالحها.

ذلــك يعني أن التغيرات التي حدثت في الواقع الأوربي كان من المنطقي أن تكون موضوعاً يطرح قضايا كثيرة للحوار أمام التنظير الاجتماعي. ويمكن القول بأن نظريات العقد الاجتماعي التي طرحت خلال هذه الفترة شكلت من ناحــية الــبداية الحقيقية لتأسيس النظرية الاجتماعية، حيث التنظير للمجتمع

العـام أو للنسـق الاجتماعي الذي يمتلك قدراً نسبياً من الاكتفاء الذاتي، هذا بالإضـافة إلي أنها كانت من ناحية ثانية محاولة لمناقشة الأوضاع الجديدة ، حيث واجهتها قضايا صعبة من الضروري أن تجد حلاً لها كقضية الشرعية، وطبيعة المجتمع العام، وقضية الدولة أو النظام السياسي ، بحيث ناقشت هذه النظريات تفـاعلات الواقـع الاجتماعـي من إطار ثلاثي الأبعاد الإنسان والمجـتمع والنظام السياسي وطبيعة العلاقة المتبادلة بينهما. علي هذا النحو وجدنـا أن الواقع الأوربي الجديد الذي شهد تشكل المجتمع العام ليحل محل الإقطاعـيات الأوربـية المتـناثرة، وشهد كذلك قيام الدولة باعتبارها النظام السياسي القادر علي السيطرة علي هذا المجتمع الكبير . وهو الأمر الذي دفع إلـى قيام تنظير العقد الاجتماعي، الذي أسهم فيه توماس هوبز وجان جاك روبـو وديفيد هيوم والقس بركلس حيث حاول جميعهم تقديم تنظير جديد، لم يكـن له وجـود من قبل بعض مقولاته انتقلت إليه من التنظير القديم السابق علـي هـذه الفترة ، غير أن غالبية مقولاته جردت عن هذا الواقع الجديد . وهكـذا مـثلما خضع الواقع الاجتماعي لتغيرات جذرية وشاملة دفعت إلي ظهـور واقع اجتماعي جديد ، فان التنظير الذي ظهر شكل تغيراً أو اختلافاً جوهـرياً عـن التنظـير السابق عليه، فهو تنظير يتلاءم مع طبيعة الواقع الاجتماعي الجديد.

وتشـكل الثورة الفرنسية الواقعة الثانية التي خضع بسببها الواقع الاجتماعي الأوربي لتغيرات شاملة، إلي جانب أنها شكلت في نفس الوقت نقطة لإنطلاق تنظـير إجتماعـي جديد. وحسبما هو ثابت في المادة التاريخية، فإن عصر التـنوير قد لعب دوراً محورياً في قيام الثورة الفرنسية. وحسبما أشرنا أيضاً فإنـه بعـد تـبلور العلـوم الطبيعية واكتمال نموها بدأ المفكرون والفلاسفة يناقشون أوضاع الإنسان في نطاق المجتمع والدولة.

وإذا كانـت المرجعية الدينية قد بدأت تنسحب خلال هذه الفترة ، فقد برزت محلهـا المرجعية الميتافيزيقية أو الفلسفية . وبرز حوار شامل حول الإيمان بالإنسان وقدراته، وأبرزها امتلاك الإنسان للعقل الذي سوف يلعب دوراً في

تأكـيد الـتقدم الإنساني، وفي السعي من أجل تأسيس المجتمع الملائم للحياة الإنســانية .خـــلال هذه الفترة طرحت أفكار عن الطبيعة الإنسانية، هل هي شريرة أم خيرة. كذلك أفكار تتعلق بالحرية الإنسانية ، باعتبار أن الإنسان قد تحـــرر من طبقات العبودية في المرحلة الإقطاعية. ذلك بالإضافة إلي أفكار تـتعلق بالإخـاء الإنســاني كعواطــف تجمع البشر وتؤكد تعاونهم بدلاً من العواطف التي تفرقهم إلي سادة وعبيد وتؤسس الصراع بينهم إضافة إلي مبدأ المســاواة ، فالبشــر متســاوون بالمولد، ومن المنطقي أن يكونوا متساوون بالمواطنة، بحيث شكلت هذه الأفكار أو الشعارات مرجعية ناقش فكر التنوير بالــنظر إليها واقع المجتمع الأوربي والتفاعلات الكائنة . ولقد كانت فرنسا أكثر المجتمعات الأوربية تعرضاً لضغوط التغير.

ومـــن ثـــم فقد كثفت الأفكار النقدية للتنوير الضغوط علي الواقع الفرنسي ، الأمـــر الذي دفع إلي قيام الثورة الفرنسية التي فجرت الصراعات علي كامل الســاحة الفرنســية. ولقد ساعدت الدماء التي سالت حينما هدأت انفجارات التغيير إلي تخلق واقع فرنسي جديد حيث أطيح بالأرستقراطية وعلي رأسها الملــك، وحيث سألت دماء الطبقة الدنيا التي شارت من أجل الحصول علي الخـــبز وقع مع ذلك لم تحصل عليه. وبقيت الطبقة المتوسطة علي الساحة. وبيــنما الجمـــيع منشـــغل بمصيره إندفعت الطبقة المتوسطة علي غير توقع فحصـــدت كل شيء . فقد صعد جناحها العسكري للسيطرة علي السلطة من خـــلال نابلـــيون بونابـــرت. وإتجاهها الفكري أو المثقف باتجاه الاستمرار بـــالدعوة إلي تحكيم العقل والعلم، فالمجتمع العام أصبح معقداً ، ويحتاج إلي إدارة علمية ، فالعلم هو المسئول عن تحديد حاجة المجتمع إلي الاستقرار أو التغير . ولقد كانت الطبقة المتوسطة تدرك وهي ترفع هذا الشعار، أن الطبقة الدنيا والطبقة العليا تفتقد امتلاك العلم. ومن ثم فقد سيطرت الطبقة المتوسطة بأجنحتها المختلفة علي مقاليد الأمور في أعقاب الثورة الفرنسية وكانت بحق الطبقة التي لم تخسر شيء لكنها حصدت كل شيء.

وفي الحقيقة كانت هذه النتيجة موضوع حوار تأسس بيد الطبقات الاجتماعية فـي أعقـاب نجاح الثورة الفرنسية. ونحن إذا تأملنا هذا الحوار والخلفيات الكامـنة وراءه، لوجدنـا أن الطبقات الثلاث قد شاركت في هذا الحوار من خـلال مفكـريها الذيـن تولوا تأسيس شرعية للادعاءات الطبقية. فالطبقة الأرسـتقراطية خسرت كل شيء، خسرت السلطة والعرش، وكذلك خسرت السيطرة علي المجتمع وربما بعض ثرواتها كذلك . ونتيجة لذلك فقد شككت هـذه الطبقة في شرعية الثورة، فقد ذهب كل من دي بونال ودي ميستر إلي المطالـبة بالعودة من جديد إلي الأوضاع التي كانت سابقة علي قيام الثورة، حيـث المجتمع الزراعي، والتقاليد القوية التي تقنن العلاقات والتفاعلات بين البشـر وحيـث العواطف والمشاعر الدينية قوية تفرض التراحم بين البشر.

ولقـد بلـغ أمر هذه الطبقة أن شكك بعض مفكروها في واقعة الثورة ذاتها، حيـنما يذهـب ادموند قائلاً من الذي منح الثوار شرعية القيام بالثورة ؟ إذا كانـت بعـض أجـيال الحاضـر قد فوضتهم في ذلك، فهل فوضتهم أجيال الماضـي، وهـل فوضـتم أجـيال المسـتقبل؟ وهـو ما يعني أن الطبقة الأرسـتقراطية رغبـت فـي إستعادة مواقعها من خلال تقديم برهنة فكرية متماسكة تساعدها علي تحقيق ذلك والإقناع به.

علـي خلاف ذلك ذهبت الطبقة الدنيا، مؤكدة أنه إذا كان البعض قد ثار من أجل الخبز، فهو لم يحصل علي الخبز الذي ثار من أجله، غير أنه قد تكشفت أمامهم مظاهر فساد كثيرة وحتي يتطهر المجتمع، فأن علي الثورة أن تستمر حتي يتحقق المجتمع المثالي الذي ننشده والذي يحقق العدل والمساواة وإشباع الحـجـات الأساسية للبشر.، وإذا كانت دماء كثيرة قد سالت ، فليس هناك ما يمنع من تدفق دماء جديدة حتي يتأسس هذا المجتمع المثالي، الذي يستحق أن يعيش في إطاره الإنسان.

في هذا الإطار تلفتت الطبقة الوسطي حد لها، فوجدت أنها طبقة ينتمي غالبية مفكـري عصـر التنوير لها، وهم الذين رفعوا شعار التقدم الذي يستند إلي العقـل والعلـم. ومن ثم فهي طبقة ترفض الفوضي المستندة إلي العواطف

الغوغائـــية . ثـــم أن المجتمع تناثرت تقاليده الأرستقراطية، وأصبحت عباءة ضـــيقة علـــية. والمجتمع الذي تأسس في أعقاب الثورة أكبر من أن يحكمه حاكم فرد من خلال حكم مطلق، ثم أن المجتمع الجديد لا يحتاج إلي مزيد من الفـــوض وإلا تـــناثر كل شيء ورجعنا القهقري مرة أخري. المجتمع الجديد يحتاج إلي التقدم حسبما أكد ذلك فكر التنوير، لكنه يحتاج أيضاً إلي أن يكون هـــذا التقدم منظماً ويستند إلي العقل. ومن ثم وجدنا الدعوة التي قادها أبناء الطـــبقة المتوســـطة – ســـان ســـيمون وأوجست كونت – لإنشاء علم جديد للمجتمع، سمي في النهاية بعلم الاجتماع يهتم بمتابعة النظام والتقدم من خلال مباحـــثة الأساســـية الاســـتاتيكا الاجتماعـــية" و" الديناميكا الاجتماعية" أي الاستقرار والتطور الاجتماعي.

وإذا كانت نظريات العقد الاجتماعي تعد تفكيراً في نشأة النظام السياسي في علاقـــته بالمجتمع، فأن الفكر الناتج عن الثورة الفرنسية يعد بحثاً في طبيعة المجـــتمع، وأيضاً في ترتيب عناصره. وإذا كانت الثورة الفرنسية قد أنتجت واقعيـــن إجتماعييـــن جديدين هما النظام الجمهوري باعتباره نظاماً سياسياً جديداً،حيـــث الحكم بلا وراثة، بالإضافة إلي ذلك فقد أبرزت الثورة الفرنسية مسألة الطبقة الاجتماعية، والدور الذي يمكن أن تلعبه في الحياة الإجتماعية. وإذا كان النظام الجمهوري قد شكل تحدياً للنظرية السياسة القائمة حينئذ في الواقـــع الأوربي، لذلك فقد أصبح موضع هجوم من الملكيات المحيطة، فإن مســـألة الطـــبقة الاجتماعـــية كانت من المسائل التي طرحت بقوة علي علم الاجـــتماع، لكـــي تصبح المسألة المحورية لمعظم حوارته بعد ذلك. وهو ما يعنـــي أن الإنجـــازات النظرية التي ترتبت علي الثورة الفرنسية تمثلت في تأسيس علم الاجتماع، واستكشاف مفاهيم وتكوينات إجتماعية جديدة كالنظام الجمهـــوري، أي الحكـــم بـــلا وراثة، حيث الشرعية المتغيرة التي تمنحها الجماهـــير، وأيضـــاً إبراز المسألة الطبقية علي خريطة التفكير الاجتماعي بأقوي ما يكون.

وتعتبر الثورة الصناعية هي الواقعة الثالثة التي أدت إلي تغيرات إجتماعية شاملة وجذرية، بحيث إنتهت الثورة الصناعية إلي تخلق مجتمع جديد يعتمد علي الصناعة بالأساس، ليحل محل المجتمع الزراعي والرعوي السابق عليه. ولقد بدأت مقومات الثورة الصناعية مع ظهور متغيرات جديدة علي واقع المجتمع الأوربي وكانت لها فاعليتها. ويتمثل المتغير الأول في انهيار الإقطاعيات الأوربية، وظهور المجتمع العام الذي تسيطر عليه الدولة. في هذا المجتمع بدأت البرجوازية التجارية التي ضاقت ذرعاً بالمجتمع الإقطاعي تدعو إلي دعم المجتمع العام الجديد. وفي أعقاب اتساع حركة الكشوف الجغرافية بدأت هذه الطبقة تدرك أن هناك واقع إجتماعي أكثر اتساعاً من الواقع الأوربي، ومن الممكن أن يصبح مصدر أرباح كبيرة لتكوين ثروات طائلة، بحيث يتحقق ذلك من خلال قيام بعض عناصر هذه الطبقة بتبني جهود التبادل بين المجتمعات غير الأوربية، الشرقية بالأساس، وبين أوربا عن طريق الحصول علي المادة الخام من هذه المجتمعات، إضافة إلي ما لديها من منتجات في مقابل تصدير المنتجات الأوربية إلي أسواق هذه المجتمعات ، ويمكن القول بأن هذه الطبقة كانت الفاعل الرئيسي وراء حركة الاستعمار التي قامت بها مختلف المجتمعات الأوربية إلي خارج حدودها. فقد أدركت هذه الطبقة ونتيجة هذا الحركة أن الأسواق واسعة، والخامات التي يمكن عادة تصنيعها كثيرة، ومن ثم بدأت الاستثمار في اتجاه بناء الصناعة.
ويتمثل المتغير الثاني في ظهور قوة البخار ، وتحقق البدايات الأولي والناجحة لتحول العلم إلي تكنولوجيا، ومن ثم بدأت الآلة البخارية والطاقة البخارية التي حلت محل الطاقة الحيوية (الإنسانية والحيوانية) . ومع اختراع الآلة البخارية بدأ تأسيس مجتمع جديد، أنتقل من الطاقة البخارية إلي الطاقة الكهربائية بعد ذلك.وأرتبط بظهور قوة البخار وقوع التطورات العلمية الكثيرة التي حدثت، كاختراع الطباعة واختراع البارود، وبدأ وكان هناك وعد أو تحالف جديد بين الصناعة والعلم والتكنولوجيا، وهو التحالف الذي شارك بفاعلية في قيام المجتمع الصناعي الحديث.

ويعتـــبر قـــيام المجتمع الصناعي الجديد ثورة غيرت كل شيء، بحيث يمكن القــول بأن ظهور هذا المجتمع يناظر ظهور المجتمع الذي تخلق عن الثورة الفرنسية، بل يعد استكمالاً له في اتجاه تأسيس مجتمع جديد. ومن ثم كان قيام المجتمع الصناعي نهاية المطاف أو المسيرة التي بدأت مع الثورة الفرنسية. أو أن الثورة الصناعية في إنجلترا تعد استكمالاً للثورة السياسية التي حدثت قــبل ذلك في فرنسا (الثورة الفرنسية، بحيث تخلق لدينا في النهاية مجتمع جديد له طبيعة وخصائص جديدة تفصله عن المجتمع السابق عليه.

فقــد أصــبح المجــتمع الجديــد يستند في قاعدته الاقتصادية إلي الصناعة بالأســاس، والصـــناعة من طبيعتها أن تؤكد ثقة الإنسان بذاته وإرادته، فهو الذي يصنع الأشياء ويخلقها. ومن ثم فهو علي عكس المجتمع الزراعي الذي يعــتمد فيه الإنسان بقدر كبير علي الطبيعة. منذ أن يصنع البذرة في التربة، تبدأ دورة نباتية لا يتدخل فيها بل يقوم برعايتها فقط. لذلك ازدهرت المشاعر والعواطــف الدينية، وكان للدين مكانته في المجتمعات الزراعية، علي حين خبت جذوته في المجتمعات الصناعية. وإلي جانب أن الدين كان له دور في المجــتمعات الصناعية. فأن العائلة ضعفت كذلك. ففي المجتمعات الزراعية تلعــب العائلـــة دوراً كبيراً في حياة الإنسان. العائلة في النظام الحرفي هي الأســاس، والورشة الحرفية ملحقة بمسكن العائلة، كانت العزوة للعائلة هي المرجعـــية لتحديد المكانة التي يشغلها الشخص، وكانت العائلة الممتدة الأكثر ضبطاً وقدرة علي التنشئة الاجتماعية السليمة.

وحيــنما ظهــر المجتمع الصناعي كان أول شيء نتج عن ظهوره هو فصل الأســرة عــن العمل. لم تعد الورش الحرفية المتفرقة والملحقة بالمنازل هي الــنمط الســائد. بل نشأ نظام المصنع الكبير، الذي قد يبتعد عشرات الكيلو مــترات عــن مسكن الأسرة. وبذلك تم فصل العامل عن أسرته، في حياته العائلــية المرجعــية هــي الأســرة وفي حياة المصنع المرجعية هي لوائح المصــنع. لم يكتف النظام الصناعي بذلك، بل إتسع التباين في بناء الأسرة، فــبعد أن كــان الجميع يعملون عملاً متجانساً يتمثل في العمل الزراعي أو

العمل الحرفي، اصبح الأبناء يعملون في الزراعة، بينما آخرون في الورشة الحرفية الصغيرة، بينما البعض الثالث ملحق بالنظام الصناعي، ولكل منهم منظومته القيمية التي توجه سلوكياته، ومن ثم دب التباين حتي في قيم المجتمع، وثقافته. بالإضافة إلي ذلك، فقد خرجت المرأة إلي العمل للحصول علي أجر اقتصادي يزيد من دخل الأسرة، وخرج الأطفال الصغار إلي العمل كذلك، كلهم بأجور زهيدة حتي يحققوا جميعهم دخلاً ملائماً للأسرة يكفي إشباع حاجاتها الأساسية بالكاد، ولا يكاد يصمد أمام موجات التضخم . وارتفاع الأسعار. ونتيجة لذلك انهيار التدرج الذي ساد الأسرة الأبوية، وحدثت إستقلالات إقتصادية عديدة قادت في أحيان كثيرة إلي إنهيار الأسر وتفككها. بحيث تلا ذلك إرتفاع معدلات الطلاق وكذلك ارتفاع معدلات انحراف الأحداث والجريمة.

ولقد برزت المسألة الطبقية بوجه قبيح علي المسرح فقد عمل الرأسماليون بدأ وبلا هوادة للحصول علي أرباح أعلي، ومن ثم فقد عملوا علي تخفيض الأجور مرات عديدة، حتي يستمدوا من عوائده القدرة علي المنافسة بالسلع في الأسواق وقد أدي ذلك إلي زيادة أرباح الطبقة الرأسمالية وتحقيق التراكم الرأسمالي المملوك لها. غير أنه يعمق في نفس الوقت عن بؤس الطبقة العاملة، التي تعرضت لعذابات كثيرة سببتها التخفيضات المتتابعة للأجور، والظروف السيئة التي تعمل في نطاقها الطبقة العاملة وأبرزها أمد ساعات العمل اليومية، ذلك بالإضافة إلي البطالة وعدم انتظام أيام العمل. الأمر الذي ساعد علي خلق ظروف مواتيه لتفجر الصراعات الاجتماعية. ولقد كان منطقياً أن يتجه المجتمع – استمرارا لهذا التفاعل الاجتماعي المرضي أو المنحرف نحو حالة من الاستقطاب الاجتماعي الذي تختفي في إطاره الطبقة المتوسطة – الذي يهدد بانفجار صراع إجتماعي حاد وشامل.

ولقد كان منطقياً أن تؤدي هذه التغيرات إلي ظهور تنظير اجتماعي يحاول تأمل هذه الأوضاع. حيث يحاول هذا التنظير تأمل الواقع الاجتماعي القائم، وتشخيص المشكلات الكائنة فيه، ومحاولة الوصول إلي حلول لهذه المشكلات

، أو إلـــي بـــناء مجـــتمع صوري مثالي تنتقي فيه المشكلات والصراعات والصـــراعات وصنوق البؤس والعذاب الإنساني. ويمكن القول بأن نظريات المرحلة الكلاسيكية بكاملها شكلت محاولة لتأمل الأوضاع القائمة في المجتمع الصـــناعي وتحديـــداً أســـباب مشكلاته. فقد حاولت الماركسية التأكيد علي اغـــترابات الطـــبقة العاملة، وسلبها بغير وجه حق لفائض قيمة عملها، وهو الغائض الذي شكل أساسي التراكم الرأسمالي الذي إمتلكته الطبقة الرأسمالية، ووجـــدت الحـــل فـــي تأسيس المجتمع الشيوعي، كمجتمع إنساني تختفي فه الملكـــية الخاصـــة لـــرأس المال وتسود الملكية الجماعية. واستناداً إلي ذلك يختفي التمايز الطبقي والاغتراب وتحل المساواة والاخوة الإنسانية، وتتحقق الوفـــرة المادية حتي يتمكن كل شخص في المجتمع أن يأخذ بحسب حاجته. فـــي المقـــابل نجد أن عالم الاجتماع فيبر يقدم برهنة تضفي الشرعية علي عملـــية التراكم الرأسمالي إلي تحققت للرأسمالية بل وعملية الاستغلال مؤكداً أن هـــذا التراكم ليس وليد فائض القيمة المسلوب من الطبقة العاملة علي ما يذهـــب كـــارل ماركس، ولكنه تحقق نتيجة للمثابرة والعمل الدؤوب، ونتيجة أيضـــاً لتبنـــي القيم البروتستنتية المتطهرة، وأن الطبقة العاملة لم تتحول إلي الطبقة الرأسمالية لأن عناصرها تنقصهم القيم التي تدعم النمو الرأسمالي.

علي خلاف ذلك نجد أن إميل دوركيم ينظر للمجتمع الصناعي، بأنه يشغل قيمة تطور نظام تقسيم العمل الإجتماعي، وان هذا المجتمع ظهر نتيجة للـــتحول مـــن مجـــتمع التضامن الآلي إلي مجتمع التضامن العضوي، وأن مرحلة التحول قد تعاني من حالة من الفوضي أو حالة الأنومي، وهذا الحالة التـــي قـــد تهدد بصداقات اجتماعية واقية، الأمر الذي دفع إميل دوركيم إلي تأسيس مجموعة من الآليات التي تيسر تحقيق الاستقرار الاجتماعي كالقانون والدولـــة والجماعـــة المهنـــية، ثم يوصي إميل دوركيم أصحاب الأعمال أن يخففوا من غلوائهم، وأن يخفف العمال من حقدهم كذلك، وليجمع الفريقان في إطـــار إجتماعـــي متماســـك تؤكـــده الجماعـــات المهنية ويرسخ الاستقرار الاجتماعـــي. بيـــنما رأي فلفريدو باريتو تقسيماً أخر للمجتمع حيث الصفوة

والجماهير، والصفوة لها أجنحة كثيرة اقتصادية واجتماعية وثقافية، وأن هذه الصفوة تنقسم إلي فئتين الثعالب المجددون وأصحاب الأعمال المؤسسون للمشروعات. الأسود الذين يحافظون علي إنجازات المجتمع وتقاليده التي تحققت في عهد الثعالب، والجماهير بعيده عما دورة الصفوة، التي تنتقي من الجماهير ما يدعم دماءها وقوتها.

وترتبط دورة الصفوة بدورة التغير الاجتماعي في المجتمع. وهكذا وجدنا أن نظريات المرحلة الكلاسيكية جميعها تقريباً تحاول أن تتأمل الواقع الصناعي وتحاول تشخيص مشكلاته بحثاً عن الحلول لمواجهته هذه المشكلات . وهكذا تتأكد الفرضية التي أشرنا إليها، والتي تذهب إلي وجود علاقة بين التغيرات الاجتماعية الشاملة والجذرية وبين ظهور أبنية نظرية شاملة أيضاً، وكلية تحاول تأمل التفاعلات الاجتماعية التي نتجت عن هذه التغيرات الشاملة والجذرية. ويعد ظهور المجتمع التكنولوجي مرحلة جديدة في هذا التطور التاريخي، وإذا كانت نظريات المرحلة الكلاسيكية قد لعبت دوراً في فهم المجتمع الصناعي في مرحلة الأولي، فلقد طرأت تطورات كثيرة علي المجتمع الصناعي جعلته يتحول إلي مجتمع جديد يختلف عن المجتمع الصناعي الأول، الذي قامت نظريات المرحلة الكلاسيكية لفهمه، فقد انتشرت التكنولوجيا بكثافة في هذا المجتمع حتي بدأت تحل تدريجياً محل البشر، بل تطورت التكنولوجيا ذاتها حتي أصبحت متحكمه في الوجود والمصير الإنساني بل ومسيطرة عليه، ظهرت تكنولوجيا العمل فألقت بظلال الشك علي مفهوم فائض القيمة وظهرت تكنولوجيا المعلومات فساعدت علي مضاعفة كم المعرفة التي تمتلكها الإنسانية في السنوات الأخيرة قدر ما امتلكته الإنسانية في جملة تاريخها وبرزت التكنولوجيا المنزلية فزادت من مساحة الفراغ لدي أعضاء الأسرة، وظهرت تكنولوجيا الإنتاج فساعدت علي تحقق إنتاج الجملة، المدخل لتحقيق دولة الرفاهية، وبدأت الإنسانية تواجه مشكلات وأزمات جديدة. وبدأ المجتمع الصناعي في مرحلة الأخيرة يخضع لتحولات شاملة وجذرية ومتتابعة تنتقل به إلي المجتمع التكنولوجي الحديث

فـــي هذا المجتمع التكنولوجي الحديث فقدت البروليتاريا دورها التاريخي في تأسيس المجتمع الشيوعي، ولم يعد فائض القيمة مولداً لاغتراب البروليتاريا وتأكلت كثير من القدرات العقلية والعضلية الإنسانية لأن التكنولوجيا الحديثة أصـــبحت تقدم بذات الوظائف نيابة عن الإنسان . وإذا كان التفاعل الإنساني هـــو فعـــل واستجابة أو رد للفعل، فإن الأنسان المعاصر أصبح عاجزاً عن تقديـــم استجابة لفعل التكنولوجيا سوي التكيف مع فعلها. أصبح علي الأنسان المعاصـــر أن يوسع قدرته علي التكيف مع المتطلبات التكنولوجية ويعمقها، حتـــي يعـــبر حدود التكيف إلي التكيف الفائض، حيث يتخلق إنسان المجتمع التكنولوجي غير القادر علي الفعل، ولكنه القادر فقط علي الخضوع والتكيف، إنه الإنسان ذو البعد الواحد، في هذا المجتمع أصبح النظام باطشاً ومسيطراً ، وتلاشـــي الدور التاريخي للبروليتاريا، وأتسع الاغتراب الاقتصادي ليتحول إلي اغتراب ثقافي شامل. ومع كل هذه التغيرات الشاملة والجذرية والمتتابعة سقطت قدرة النظريات الكلاسيكية علي المتابعة والفهم، وبرزت الحاجة إلي تنظير جديد.

ولقد دفعت هذه التغيرات الدافعية الشاملة إلي بروز اتجاهات نظرية عديدة تحاول أن تتعامل مع الواقع الاجتماعي الجديد، وتسعي إلي أن تشخص أوضاعه وتجد حلاً لمشكلاته. ويعتبر تيار النقد الاجتماعي بفضائله المختلفة رد فعل أو استجابة لمثل هذه التفاعلات الواقعية.

ونحـــن إذا تأملنا تيار النقد الاجتماعي لوجدناه يضم عدة فصائل كل مـــنها يعالج جانب معين من جوانب الواقع الجديد. وإذا كان النقد الإجتماعي الـــذي أنطلـــق من معهد البحث الاجتماعي الكائن في مدينة " فرانكفورت أم ميـــن " هـــو الذي يشكل المجري الرئيسي للنقد الاجتماعي، فأننا نجده يؤدي مهمته علي جبهتين، الجبهة الأولي علي الصعيد النظري، حيث إعادة النظر فـــي بعض المقولات الماركسية لتطويرها لتظل الماركسية محتفظة بروحها الـــثورية، وتفلت من حصار أن تتحول إلي نظرية محافظة. ومن ثم فإنه من الضـــروري إعـــادة الـــنظر في عدة مقولات ماركسية لملاءمتها مع الواقع

الجديد. كمقولة الدور التاريخي للبروليتاريا، وفائض القيمة، والإنهيار الحتمي للــنظام الرأســمالي، ونمــط الاغتراب السائد في المجتمع، وحالة الفرد في علاقــته بالنظام، وإمكانية استخدام مناهج وأدوات البحث الاجتماعي المتبعة فــي العلــوم الإنســانية الفــردية، إلي جانب الجدل، هذا مع إجراء البحث والدراسات التي تساعد علي منع ظهور الشخصية الغاشية من جديد.

وعلــي الجــبهة الثانــية حــاول هذا التيار النقدي البحث عن قوي إجتماعــية بديلة تحل محل البرولتياريا، لتقوم بالدور التاريخي الذي كان من المفترض أن تقوم به البروليتايا . ولقد عثر علي ضالته في الشباب والزنوج والفقــراء وكــل القوي الخارجية علي النظام، في قوي منفصلة عن النظام وليست مندمجة فيه، ولا تشاركه المصالح.

ويتمــثل التــيار الثاني للنقد الاجتماعي في الفكر النقدي الذي قدمه الفيلســوف الفرنســي الجزائري المولد فرانز فانون. ويعد هذا التيار النقدي انعكاسا للصراع الذاتي خلال الخمسينات والستينيات بين القوي الاستعمارية وقوي التحرير الوطني التي تسعي إلي تحرير مجتمعاتها. حيث يحافظ فرانز فــانون علي روح العنف السامي أو الإنساني الذي قالت به بعض المقولات الماركســية ، العــنف الــذي يظهر النفس لأنه يسعي لتحقيق أهداف إنسانية ســامية. وفي مؤلفاته العديدة وأبرزها المعذبون في الأرض و سوسيولوجية ثورة " يطالب ترانز فانون المعذبين والمقهورين بأن يتحركوا لنيل حرياتهم من قاهريهم ولد كان السبيل إلي ذلك سبيل العنف.

ويعتــبر التنظــير الذي قدمه عالم الاجتماع س. رايت ميلز في نقد المجتمع الأمريكي أحد فصائل النقد الاجتماعي التي برزت خلال هذه الفترة غــير أنهــا اقتصــرت فــي توجيه نقدها إلي الواقع الأمريكي الذي تجاوز بالــتطورات التي حدثت فيه تدفقات الماركسية وسائر النظريات الكلاسيكية. وقــد لمــس س. رايت ميلز في نقده تأثير المشكلات العامة التي يعاني منها المجــتمع الأمريكــي علي المواطن العادي ، تحدث أيضاً عن صفوة القوة، وعــن المركــب الصــناعي العسكري، حيث حاول من خلال نقده تشخيص

أوضـــاع الواقـــع الأمريكي، وجذور المشكلات التي بدأت تظهر فيه، بروح نقدية ويسار به واضحة.

ويمكن القول بان التنظير الذي قدمه تالكوت بارسونز. والذي تحور حـــول نظريـــته فـــي الفعل الاجتماعي إنما هي انعكاس لواقع أزمة الكساد العظـــيم التي حدثت مع نهاية الثلاثينات، محاولة لإعادة فهم الواقع الأمريكي ولو من منظور خارج إطار النقدي الاجتماعي. كما أننا يمكننا أيضاً أن ننظر إلـــي الإســـهامات التـــي قدمهـــا روبـــرت ل. ميرتون كاستمرار للمنظور البارســـونزي، حيـــث ركـــز نقده بالأساس علي التناقض الذي بدأ المجتمع التكنولوجـــي (الأمريكي) يشهده. وردود الفعل المحتملة لهذا التناقض وهي ردود الفعـــل الأغراقية الأربعة للخروج علي النظام القهري والمتناقض .هذا بالإضافة إلي تطويرات نظرية أخري عديدة كالمنهجية الشعبية لجار فنكل ، وعلم اجتماع المسرح لإرفنج جوفمان.

وتعـــد الـــتطورات الحديـــثة التـــي بدأت تطرأ علي النظام العالمي والتغـــيرات التي طرأت علي المجتمعات الكائنة فيه وعلي العلاقات الدولية الكائـــنة بين هذه المجتمعات ظروفاً مواتية لظهور فكر إجتماعي جديد. فقد حدثـــت في الظروف الأخيرة مجموعة من الظروف العالمية فرضت ظهور نظام عالمي جديد.

فقـــد أنهـــار الاتجار السوفيتي كقوة عالمية موازية للولايات المتحدة تحـــافظ علي توازن النظام العالمي في مواجهة الولايات المتحدة علي خلفية القـــوي الرأسمالية الضريبية باعتبارها القوة العظمي التي تسعي إلي ترتيب أوضـــاع العالم بما يحقق مصالحها. وسقطت غالبية تجارب التنمية في العالم الثالـــث، فقد تبددت الموارد القومية في محاولة الحفاظ علي الاستقلال أو من خلال وقائع الفساد ونتيجة لذلك أتجه هذا العالم إلي الاستدانة، فلما عجز عن ســـداد القـــروض لم يكن أمامه من سبيل إلا طلب المساعدات. وعلي صعيد العـــالم المتقدم، وبخاصة الولايات المتحدة وقعت ثورة المعلومات وتطورت تكنولوجـــيا الأعلام، بحيث ضاعفت من حجم المعرفة التي تمتلكها الولايات

المتحدة الأمريكية، حيث أصبحت المعرفة قوة تحتكرها الولايات المتحدة التي تمكنت من بلوغ حالة دولة الرفاهية.

ونظـرت الولايات المتحدة علي الصعيد العالمي فلم تجد قوة موازية لهـا. ورأت الفرصـة مواتية لتحقيق أمان أبدي لها عن طريقة تحول العالم بأجمعـه إلي قوة مواتية لنمو النموذج الأمريكي. وبدأت عولمة النمط الأمر الأمريكي من خلال عدة طرق. ويتمثل الأول في محاولة خلق تجانس ثقافي عالمـي وفـق نمط الثقافة الأمريكية، وهو ما يعني اختراق الثقافية القومية والعمـل علـي تفتيتها وانهيارها وإسقاطها. وعلي غرار التعددية الأمريكية بـدأت الولايـات المتحدة تفرض هذه التعددية علي العالم، بحيث دفعت من ناحية إلي سقوط الثقافات القديمة واضعاف المؤسسات المرتبطة بها كالدولة، ومـن ناحـية أخري إبراز الثقافات المحلية والتجمعات العرقية علي حساب الـتجمعات القدمية، وبالتالي دفع الكيانات الصغيرة إلي تبني النمط الأمريكي اجتماعيا وثقافياً، فقد أصبح بإمكانية أي النمط الأمريكي استيعابها بعد النشر ذم الـذي يصـيبها. ولقد استخدمت القوة الأمريكية آليات كثيرة لتحقيق هذه الأهداف، منها الأعلام وتكنولوجيا المعلومات، ومنها آلية الشركات المتعدية الجنسـية، وسلاح القروض والمساعدات، ثم القوة العسكرية المباشرة إذا لم تفلح الآليات السابقة.

وأمـام هـذه التغـيرات الشاملة فقد كان منطقياً أن يتحرك التنظير السوسـيولوجي لكي يتابع التغيرات التي حدثت علي الصعيد العالمي، وعلي صعيد المجتمعات المحلية .

فقـد أصـبحت فكرة النسقية التي كانت مؤسسة علي قالب المجتمع القومي حائرة الآن بين النسقية علي الصعيد العالمي، والنسقية الفرعية علي الصـعيد المحلـي. كذلـك عملت التعددية علي الصعيد الأمريكي، ومحاولة التفكيك التي تقوم الولايات المتحدة علي الصعيد العالمي، علي إبراز المفرد، وألقت بظلال الشك علي مقولة التكرار والاطراد والقانون العلمي الذي يحكم الظواهـر أو الوقائع الاجتماعية المطردة في تجانسها، وأصبحت الحاجة إلي

إدراك كل مفردة علي حدة علي الطريقة الأمثل لفهمها، ومن ثم برر الإدراك الذاتي والفهم والبحث عن المعني، علي الإدراك الموضوعي من خلال المؤشرات الخارجية للشيء. وهو ما يعني أنه طالما أن الواقع قد خضع لتغيرات شاملة وجذرية فإن النظرية الاجتماعية تعيش بدورها حالة مراجعة لمقولاتها الآن لإعادة ترتيب البيت النظري واستكماله بما يساعد علي فهم الواقع الاجتماعي الجديد.

ذلك يعني أننا فيما يتعلق بعلاقة التطور النظري بالتطور الاجتماعي والمجتمعي، نجد أنفسنا في مواجهة ثلاثة حالة رئيسية.

الحالة الأولي حيث تحدث تغيرات إجتماعية شاملة وجذرية في بعض الفترات التاريخية بسبب متغيرات عديدة. ومن الطبيعي أن تؤدي هذه التغيرات إلي تغيرات مناظرة في الأبنية النظرية المعايشة للواقع الذي تغير من خلال إلغاء بعض مقولاتها القديمة التي لم تعد ملائمة أو أصبحت مهجورة ، وتطوير بعض المقولات الجديدة، أو تعديل بعض المقولات القائمة، بما يساعد علي توفير منهم متكامل لهذا الواقع الجديد، ومن ثم التطورات النظرية تقع عادة مناظرة للتطورات أو التغيرات الواقعية.

وفي الحالة الثانية، حيث يكون المجتمع الواقعي مستقر نسبياً، وتحدث فيه بعض التغيرات التدريجية التلاؤمية اليومية فإن الجهود العلمية والنظرية خلال هذه المرحلة تسعي إلي اختبار المقولاتي النظرية التي نتجت عن مرحلة التغير السابقة من خلال الدراسات الواقعية المتتابعة. ويكون من نتيجة ذلك تأكيد هدف بعض القضايا وإلقاء الشك علي قضايا أخري أو زيفها، وهكذا تخضع النظرية أو النموذج النظري خلال هذه الفترة لحالة نمو حولي متناقص، حيث تتجه بعض المقولات إلي الخروج من النسق النظري لإثبات زيفها وعدم ملاءمتها، علي حين يتأكد في المقابل صدق قضايا أخري بينما تضاف قضايا أخري جديدة ثم اكتشافها من خلال البحوث الاجتماعية الواقعية، بحيث تتراكم كل هذه التعديلات في اتجاه السلب أو الإيجاب، حتي تحدث تغيرات إجتماعية واقعية شاملة تدفع النظريات والنماذج النظرية

القائمة إلي إسقاط القضايا الزائفة وتدعيم القضايا الصحيحة إلي جانب تطوير قضـــايا جديـــدة يستكمل بها النموذج النظري بناءه ليصبح قادراً علي إدراك تفاعلات الواقع الجديد.

وتـــتكامل الحالـــة الثالثة مع الحالتين السابقتين. وإذا كانت الحالتين الســـابقتين تؤكدان علي النمو الرأس والتطوري في التنظير الاجتماعي، فإن الحالة الثالثة تشير إلي أن النظرية أو النموذج النظري لا تقود تطوراً مستقلاً فقط، حيث تتفاعل قضايا الحالتين مع الواقع، لتصل إلي قضايا جديدة تتجاوز القضـــايا السابقة. ولكننا نجد أن النظرية أو النموذج النظري يقود بالإضافة إلي ذلك تفاعلاً بينه وبين النظريات المعاصرة له، من خلال هذا التفاعل فإن الـــنموذج الـــنظري ، قـــد يتجلي عن بعض مقولاته،خاصة إذا دعم البحث الواقعـــي ذلك، وقد يعدل في مقولاته أو قضاياه، وقد يستحدث قضايا جديدة يستكمل بها لقاءه أدائه وبنائه النظري.

ومن المفترض أن يعود هذا التفاعل المتعدد الأبعاد إلي ما يمكن أن يأمله علم الاجتماع ، حيث الوصول إلي النظرية العامة والشاملة التي يمكن أن يتحقق وجودها إذا أتجه الواقع الإنساني إلي التجانس. أما بفعل العولمة أو بفعـــل الـــتفاعل بين المجتمعات والشعوب والثقافات الذي أصبح متاحاً بفعل ثـــورة الاتصال والمواصلات أو بفعل منجزات التحديث، وأيضاً إذا تفاعلت النظريات أو النماذج النظرية واتجهت نتيجة لهذا التفاعل إلي الالتقاء باتجاه تأسيس النظرية الشاملة،وأيضاً إذا أمكن تطوير وتنويع منهج وأدوات البحث الاجتماعـــي بمـــا يساعد علي جمع المعطيات التي تساعد في إدراك الأوجه المتباينة للحقيقة الاجتماعية.

المراجـــع

1- **Mackenzei, Norman,** A Guide to Social Siences, (ed) Weidenfeld and Nicolson, 1968, pp. 185- 186.

2- **Zeitin, Irving,** 1969, p. 42.

٣- **زكي نجيب محمود**، نحو فلسفة علمية، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الأولى، ١٩٥٩، ص ٣٤٧.

٤- **زكريا إبراهيم**، ١٩٧٠ ، ص ١٣٩.

٥- **زكي نجيب محمود**، مرجع سابق، ص ٣٤٣.

٦- **زكريا إبراهيم**، مرجع سابق، ص ١٦٣.

٧- **هربرت ماركيوز**، العقل والثورة، هيجل ونشأة النظرية الإجتماعية، ترجمة فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠، ص ٨٩.

٨- **نفس المرجع**، ص ١٢٦.

٩- **زكي نجيب محمود**، مرجع سابق، ٣٤٣.

١٠- **زكريا إبراهيم**، مرجع سابق ص ص ١٦٦ – ١٦٧

11- **Norman Mackenzei,** Op, Cit, p. 20.

١٢- **زكي نجيب محمود**، مرجع سابق، ص ٣٤٦.

13- **Martindaele, D,** the Nature and types of Social Theory, London, Routledge & Kegan Paul, 1961, P. 55.

١٤- **زكي نجيب محمود**، مرجع سابق، ص ٣٤٣ – ٣٤٤.

١٥- **حسن شحاته سعفان**، ١٩٥٩، ص ص ٣٤٩ – ٣٥٠.

١٦- **هربرت ماركيوز**، مرجع سابق، ص ١٣٦.

17- **Harris, Marvin,** the Rise of Anthropological Theory, London, Routledge & Kegan Paul, 1968, p. 70.

١٨- **زكريا إبراهيم**، مرجع سابق، ص ١٦٣.

19- **Irving Zeitlin,** Op, Cit, p. 50.

٢٠- **هربرت ماركيوز**، مرجع سابق، ص ٣٤.

٢١- **نفس المرجع**، ص ص ٢٥٠ – ٢٥١.

٢٢- **نفس المرجع**، ص ٢٢٦.

٢٣- **زكريا إبراهيم**، مرجع سابقن ص ص ١٦١ – ١٦٢.

٢٤- **نفس المرجع**، ص ١٦٩.

٢٥- **جـــورج بوليـــتزر، موريس كافين**، أصول الفلسفة الماركسية، ترجمة شعبان بركات ج (١، ٢) منشأة المكتبة العصرية ص ٥٧.

٢٦- **زكريا إبراهيم**، مرجع سابق، ص ص ١٦٥ – ١٦٦

٢٧- **جورج بوليتزر**، مرجع سابق، ص ٩٢.

٢٨- **هربت ماركيوز**، مرجع سابق، ص ص ١٤٩ – ١٥٠.

٢٩- **نفس المرجع**، ص ١٤٩.

٣٠- **جورج بوليتزر**، مرجع سابق، ص ص ١٢٩ – ١٣٠

٣١- **هربرت ماكيوز**، مرجع سابق، ص ١٥٦.

٣٢- **زكريا إبراهيم**، مرجع سابق، ص ص ١٦٥.

٣٣- **جورج بوليترز**، مرجع سابق، ص ١٣٧.

34- **Don Martindale,** Op, Cit, p. 55.

٣٥- **حسن شحاته سعفان**، مرجع سابق، ص ١٩٧.

٣٦- **نفس المرجع**، ص ٢٠٠.

٣٧- **نفس المرجع**، ص ٢١١.

٣٨- **نفس المرجع**، ص ٢٠٢ - ٢٠٣.

٣٩- **نفس المرجع**، ص ١٩٧.

٤٠- **نفس المرجع**، ص ١٩٨.

٤١- **هربرت ماكينوز**، مرجع سابق، ص ٢٤٩.

٤٢- **حسن شحاته سعفان**، مرجع سابق، ص ١٩٨.

٤٣- **محمد عارف عثمان**، مرجع سابق، ص ٣٩٧.

44- **Irving Zeitlin,** Op. Cit. p. 111.

45- **Don Martindale,** Op. Cit, p. 58

46- **Ibid**, p. 58.

٤٧- **زكي نجيب محمود**، مرجع سابق، ص ٣٢

48- **Don Martindale,** op, cit, p. 58.

٤٩- **هربر ماركيوز**، مرجع سابق، ٢١١

٥٠- نيقولا تمياشيف، مرجع سابق، ص ٢٣.

51- Gouldner, Alvin, The Coming Crisis of Western Sociology, Heinman, London, 1971, p.

٥٢- نيقولا تيماشيف، مرجع سابق، ص ١٠٣.

٥٣- زكي نجيب محمود، مرجع سابق، ص ٤٥.

٥٤- نيقولا تيماشيف، مرجع سابق، ص ٢٠.

٥٥- نيقولا تيماشيف، مرجع سابق، ص ٥٥.

٥٦- زكي نجيب محمود، مرجع سابق، ص ٤٦.

٥٧- نفس المرجع، ص ص ٤٧، ٤٨.

٥٨- نيقولا تيماشيف، مرجع سابق، ص ٤١ - ٤٢.

٥٩- نفس المرجع، ص ص ٣٢.

٦٠- زكي نجيب محمود، مرجع سابق، ص ٤٩.

61- Marvin Harris, op, cit, p. 62.

62- Ibid, p. 63.

٦٣- نيقولا تيماشيف، مرجع سابق، ص ٣٥.

٦٤- هربرت ماركيوز، مرجع سابقن ص ٣٤.

65- Irving Zeitin, op, cit, p. 77.

٦٦- نيقولا تيماشيف، مرجع سابق، ص ٣٤.

٦٧- هربرت ماركيوز، مرجع سابق، ص ٣٨.

٦٨- نفس المرجع، ص ٣٩.

٦٩- نفس المرجع، ص ٣٣٩.

70- Alvin Gouldner, op cit, p. 103.

٧١- هربرت ماركيوز، مرجع سابق، ص ٣٤٣.

72- G. H. Sabine: Op. Cit. P. 476.

73- Don Martindale: Op. Cit. P. 59.

74- G. H. Sabine: Op. Cit. P. 569.

٧٥- توفيق الطويل، الفلسفة الخلقية، مرجع سابق، ص ٢٩٢.

76- G. H. Sabine: Op. Cit. P. 569.

77- Ibid, P. 568.

٧٨- توفيق الطويل، الفلسفة الخلقية، مرجع سابق، ص ص ٢٨٧- ٢٨٨.

٧٩- هربرت ماركيوز، مرجع سابق، ص ٣٣٣.

٨٠- توفيق الطويل، الفلسفة الخلقية، مرجع سابق، ص ٢٨٧.

81- Don Martindale: Op. Cit. P. 59.

82- Don Martindale: Op. Cit. P. 59.

83- Alvin Gouldner: The Coming crisis of sociological theory, Op. Cit. P. 70.

84- Ibid, P. 54.

85- G. H. Sabine, Op. Cit. P. 562.

86- Alvin Gouldner: Op. Cit. P. 62.

87- Ibid, P. 63.

88- Ibid, PP. 63 – 64

89- G. H. Sabine, Op. Cit. P. 564.

90- Ibid, P. 475.

91- Ibid, P. 476.

٩٢- توفيق الطويل، مرجع سابق، ص ١٤٠.

93- G. H Sabine, Op. Cit. P. 564.

94- A. Gouldner: Op. Cit. P. 55.

95- M. Harris: Op. Cit. P. 54.

96- Don Martindale: Op . Cit. P. 52.

97- Ibid, P. 59.

98- G. H Sabine, Op. Cit. P. 567.

99- A. Gouldner: Op. Cit. P. 59.

100- T. Parsons: Op. Cit. P. 66.

١٠١- توفيق الطويل، المشكلة الخلقية، ص ٢٩٣.

102- Don Martindalel: Op. Cit. P. 53 – 54.

103- Ibid, PP. 63 – 65.

104- A. Gouldner: Op. Cit. P. 66.

105- T. Parsons: Op. Cit. P 59.

106- Don Martindale: Op. Cit. P. 66 – 67.

١٠٧- توفيق الطويل، المشكلة الخلقيةن ص ٢٩١.

١٠٨- المرجع السابق، ص ٢٩١.

١٠٩- نفس المرجع، ص ٢٩٢.

١١٠- نفس المرجع، ص ص ٢٩٤ – ٢٩٥

111- Don Martindale: Op. Cit. P. 67.

١١٢- توفيق الطويل، المشكلة الخلقية، ص ٢٨٩.

١١٣- المرجع السابقن ص ٢٩٩.

114- T. Parsons: Op. Cit. P. 52.

115- Ibid, P. 58.

116- Ibid, P. 61.

117- Ibid, PP. 65- 67.

118- A. Gouldner: Op . Cit. P. 66.

119- Ibid, P. 67.

120- Ibid, PP. 67- 68.

الفصل الرابع
الافتراضات القاعدية للنظرية الاجتماعية
أنماط ونطاق فاعليتها

تمهيد

يختلف التنظير السوسيولوجي عن التفكير أو التنظير الاجتماعي، حيث يرتبط الثاني بفترة ما قبل نشأة علم الاجتماع، بإعتبار أن المجتمع وتكوينه وآليات تفاعله شكلت بؤرة اهتمام كثير من المفكرين، الذين وان انتموا إلي تخصصات عديدة، إلا أنهم قدموا مجموعة من التأملات التي تتصل بطبيعة المجتمع، نشأته، المتغيرات الأساسية الضابطة لإيقاعه وحركاته. إضافة إلي تحديد الأطوار أو المراحل التي قطعها المجتمع في تطوره حتي الآن ، ثم ما هي الأطوار أو المراحل التي من المحتمل أن يعبرها في المستقبل ويمكن القول بأن التفكير الاجتماعي تميز بالطابع الموسوعي، أي التفكير الشامل الذي يتأمل كل الجوانب ومكونات المجتمع دفعة واحدة ومن ثم فهو لم يكن تفكير متخصصا ومن ناحية ثانية كان التفكير الاجتماعي ذو طبيعة تأملية حيث كان تفكيرا افتراضيا لم يثبت البحث العلمي صدقه. بالاضافة إلي ذلك فقد كانت له طبيعته الاطلاقية غير النسبية ومن ثم فقد فشل التفكير الاجتماعي في أن يشكل معرفة متراكمة بقدر ما شكل تصورات مختلفة أو متباينة عن المجتمع.

علي خلاف ذلك نجد أن التنظير الاجتماعي قد بدأ بعد ظهور علم الاجتماع ذاته. حيث بدأ بعض المهتمين بشئون المجتمع، تطوير بعض الفرضيات المتعلقة بطبيعة المجتمع، في ديناميته وإستقراره، مع التأكيد علي إمكانية إختبار هذه الفرضيات للوصول من خلالها إلي حقائق علمية يمكن أن تشكل مادة لمجموعة من القوانين التي تزيد من سيطرة الانسان علي المجتمع. واذا كان التنظير الاجتماعي يشهد علي وجود نظريات أو انساق نظرية متابينة إلا أن هذا التباين يؤدي عادة الي تأسس إحتماليات التكامل بين الجوانب الصادقة للمعرفة ومن ناحية أخري تحقيق التراكم، وهو التراكم

الذي يتطلب كشرط ضروري إختبار فرضيات المعرفة للكشف عن مدي صدقها في فهم الواقع الاجتماعي. ومن هنا لا نتوقع أن تشكل المعرفة الاجتماعية أو التنظير الاجتماعي بدايات جديدة، بقدر كونه محاولة دائمة لاختبار فاعلية متغيرات جديدة لم يتم إختبارها من قبل .

وتشكل النظريات الاجتماعية جوهر التنظير الاجتماعي لكونها تشكل الوحدة أو المكون الرئيسي للعلم. وتكتسب النظرية، أولويتها من حيث كونها هي التي تشكل الطبيعة الأساسية لعلم من العلوم. وإذا كان هناك من يقسم النظرية الاجتماعية إلي كلاسيكية وحديثة ومعاصرة فإننا نعتقد أن النظرية الاجتماعية بمجموعها هي نظرية معاصرة. ذلك لأن النظرية الاجتماعية عمرها قصير للغاية فهي قد بدأت مع البدايات الأولي للقرن التاسع عشر وحتي الأن (١) حيث نجد أن كافة النماذج النظرية التي، طرحت، ما هي إلا محاولات للبحث عن نظرية اجتماعية شاملة. ومن ثم فإن كل القضايا والمفاهيم والأفكار خاضعة للفحص بغض النظر عن الفترة أو السياق التي ظهرت فيه . هذا بالإضافة إلي أننا نجد أن غالبية الأفكار التي طرحت في المرحلة الكلاسيكية يعاد إنتاجها في كل مرحلة، قد تظهرت ذات الافكار بطبيعة جديدة، غير أننا لا نستطيع فهمها دون التعرف علي بداياتها القديمة .

هذا إلي جانب أنه بغض النظر عن طبيعة تحديدنا لطبيعة النظرية الاجتماعية (الكلاسيكية، وسيطة أو حديثة، ومعاصرة) فإن كل نظرية تعتبر كلاسيكية إذا كانت سابقة علي العصر ومعاصرة في عصرها، وتصبح معاصرة لذات الظروف التي انتجتها .

علي هذا النحو فنحن ندرك النظرية الاجتماعية بإعتبارها إمتداداً لخبرة الحياة اليومية. فلا شك أننا نواجه في حياتنا اليومية عديدا من الظواهر التي ندرك بعضها بينما قد يتطلب الآخر الحاجة إلي الفهم. ويعني الفهم تحديد الطبيعة الأساسية للشيء، ثم ما هي العوامل أو الأسباب التي دفعت إلي ظهوره أو الاهتمام به أو حددت طبيعته؟ ثم ما هي النتائج المحتملة للتفاعلات الحادثة في الشيء. فمثلا إذا أتي صديق لنا سلوكاً لا يتسق كلية مع سلوكه النمطي

أو المتوقع فإنه من المحتمل أن نسأل أنفسنا عن السبب أو الاسباب التي جعلته يفعل ذلك ؟ ومن ثم سوف نحاول من خلال التأمل أو الاستطلاع العقلي أن نصل إلي مجموعة من التفسيرات المحتملة لهذا السلوك . حيث يمكن أن نفسر هذا السلوك غير النمطي أو المتوقع بالضغط العاطفي أو المشاعري الذي تعرض له الشخص، أو لموقف غير عادي تعرض له، أو لطبيعة الحالة السيكولوجية أو البيلوجية التي يمر بها الشخص ، أو لأننا منذ البداية لم نكن نعرف هذا الشخص ومن ثم لم نتعرف علي سلوكه النمطي .

فإذا قمنا بتحديد مجموعة من الأسباب المحتملة لسلوك الصديق غير النمطي فإننا قد نبدأ في تفحص كل عامل أو سبب للنظر في مدي مسئوليته عن هذا السلوك غير المعتاد، إلي أن نستقر حول عامل أو سبب بعينه ثم نبدأ في تطوير معرفتنا بهذا العامل في إتجاه الحصول علي تفاصيل أكثر. علي هذا يصبح العامل أو المتغير الذي وافقنا عليه هو البداية السببية أو المسئول سببيا عن هذا السلوك وعلي هذا النحو نجد أن الممارسة العلمية لتأسيس نظرية إجتماعية لفهم التفاعل في المجتمع لا تختلف كثيرا عن خبرتنا الحية بالحياة اليومية.

غير أننا ونحن نؤسس النظرية الاجتماعية فإننا نراعي أن تكون أكثر ترتيبا من خبرة الحياة اليومية، وأكثر شمولا . بحيث يمكننا بواسطتها أن تفسر تفاعلات غير تلك التي تتصل بها من خلال الخبرة المباشرة، هذا بالإضافة إلي أن تأسيس النظرية يفترض أن يكون موجها ببعض القواعد المحددة والمتفق عليها. إضافة إلي أن بناء النظرية يتم عادة بوعي ذاتي واضح (٢) . وعند هذا المستوي فنحن ننظر إلي أن تعريف النظرية باعتبارها نسقا شاملا من الافكار التي تتناول الموضوعات ذات الأهمية الجوهرية في الحياة الاجتماعية (٣) . يعتبر إمتداد لفهمنا للنظرية بإعتبارها امتداد أو إستمرارا لخبرة الحياة اليومية. وفي نفس الوقت فإن مثل هذا التعريف يشكل في حد ذاته مقدمة للتعريف المتخصص للنظرية الاجتماعية باعتبارها مجموعة من القضايا المتساندة، تلك التي تساعدنا علي تفسير التفاعلات

الحادثة بالحياة اليومية والتنبؤ بمسارها (٤). بذلك يتوازي الانتقال من هدا التعريف العام إلي التعريف المتخصص، مع الانتقال من الفهم والتفسير المتحقق من خلال خبرة الحياة اليومية إلي الفهم والتفسير المتخصص من خلال النظرية الاجتماعية بإعتبارها خبرة علمية مقننة مستندة إلي المعرفة الصادقة.

أولا: إفتراضات التنظير الاجتماعي

إستنادا إلي دور النظرية السوسيولوجية في فهم وتفسير تفاعلات الحياة اليومية المتخمة بكم هائل من الحقائق الجزئية، أو التي تدرك علي الاقل إدراكا جزيئا. فإننا نكون أمام مكونين أحدهما نظري والآخر واقعي. وبرغم وجود اختلاف بين كلمة " نظرية " وكلمة "حقيقة " فليس هناك تناقض بينهما فمن خلال البحث الواقعي تتم محاولة تأسيس الحقائق المتعلقة بالموقف والكشف عن طبيعة انتظامها. ويحدث التنظير حينما نحاول تحديد الأسباب التي جعلت الحقائق علي ما هي عليه الآن وفي هذا الاطار يعتبر البحث والتنظير عمليات متداخلة، تدعم كل منها الأخرى معرفيا. وإذا كانت كلمات "حقيقة" "نظرية " تشير إلي ظواهر مختلفة كلية، غير أنها تتكامل لتحقيق الفهم الشامل والعميق لأية ظواهر أو معطيات واقعية.

إذ يعتبر " حقيقة" أن يعيش كثير من البشر في الأماكن التي نسميها الآن " بالمدن " غير إننا إذا أردنا أن ننظر بشأن هذه الحقيقة وأن نفسرها، فإن ذلك يفترض علينا تحديد الأسباب السيكولوجية والاقتصادية والسياسية والثقافية التي تدفع البشر إلي تفضيل الحياة بالمدن (٥) . ثم نحاول التمييز بين هذه الأسباب لتحديد أكثرها فاعلية في دفع البشر للسكني في المدن أو في تحديد الأوزان النسبية لمجموعة الأسباب التي دفعت البشر للسكن في المدن. وفي هذا الاطار قد نعتقد ان متغيرا معينا هو الذي يلعب دورا رئيسيا في هذا الصدد كأن نقول أن البشر ينتقلون إلي المدينة لأن الوظائف والأعمال متيسرة بها، ويصبح هذا الاعتقاد أو الافتراض احتماليا وان كان منطقيا إلي أن تؤكده الحقائق. فإذا حدث أن تفحصنا الواقع ـ إنتقال البشر إلي المدينة ـ

فإننا قد نتثبت من صحة هذا الافتراض. وقد يظهر ما يناقض هذا التفسير ويشير إلي فاعلية متغير آخر. حيث نجد مثلا أن البشر ينتقلون إلي المدن دون أن يكون بها وظائف متيسرة .هنا نجد أن الحقائق تلعب دورا أساسيا، في إثبات زيف الافتراض النظري أو النظرية . وفي هذا الاطار هناك تعادل موضوعي بين نسبية الحقيقة واحتمالية تغيرها وبين إستحالة ان تكون النظرية صحيحة بصورة مطلقة.

من الحقائق الثابتة أيضا فيما يتعلق بالنظرية الاجتماعية. أن النظرية من حيث كونها بناء تتكون من مجموعة القضايا التي تنسق فيما بينها اتساقا منطقيا لتشكل تصورا للواقع الاجتماعي[٦].علي هذا النحو يشكل بناء النظرية الذي ندركه قمة جبل الثلج العائم. ذلك لأن هناك مجموعة من المكونات النظرية التي تشكل جوانب خافية من بنية النظرية. قد لا نري منها سوي النسق النظري الذي نعمل وفق قضاياه، إن وصفا أو تحليلا أو تفسير بيد أننا إذا تأملنا الأمر فسوف نجد أن هذا النسق يستند علي كم هائل من الافتراضات التي تتغلغل في قضايا النسق النظري، وتتشبع بها قضاياه. هذه الافتراضات تضم انواعا عديدة تختلف من حيث درجة شمولها وعمق فاعليتها.

فهناك الافتراضات العامة، التي تؤكد أن هناك عالما اجتماعيا – خارجنا، وإن هذا العالم جزء من الكون المحيط بنا وان كانت له خصوصيته وانتظامه في إطار انتظام هذا الكون وان هذا العالم قابل للإدراك.قد ندركه ذاتيا أو ندركه موضوعيا وأن حواسنا الخمسة هي وسائلنا في هذا الإدراك إلي غير ذلك من الافتراضات العامة التي تشكل علاقتنا بعالمنا المحيط وأسلوب ادراكنا له .

وتعتبر الافتراضات الكامنة هي النمط الثاني من الافتراضات التي تستند إليها بنية النظرية الاجتماعية. وتتطور هذه الافتراضات من خلال خبرة الإنسان في حياته الخاصة وحياة الجماعة التي ينتمي إليها والطبقة الاجتماعية التي تشكل إطاره الاجتماعي. بحيث نجد أن الافتراضات الكامنة Back ground

هي التي تحدد طبيعة نظرة الانسان إلي عالمه المحيط، ما هو شكل هذا العالم، هو ثابت أم متغير ما هي المتغيرات التي تلعب دورا رئيسا في تشكيل تفاعل هذا العالم. ما هي طبيعة هذا العالم قاعدته الأساسية الدينامية والتغير، أم أنه عالم ثابت ومستقر بالأساس بحيث نجد أن هذه الافتراضات الكامنة هي التي تحدد وجهه نظرنا في المجتمع وطبيعة التفاعلات السائدة فيه، إضافة إلي أنها تفرض علينا اختيار البنية النظرية التي تتسق ووجهة نظرنا أو بالأصح وفروضنا الكامنة.

وتعتبر إفتراضات المجال Domain Assumption هي الخط الثالث الذي تعتمد عليها بنية النظرية. ويقصد بها مجموعة الافتراضات المرتبطة بالمجال الاجتماعي الذي نعمل فيه، كالافتراضات المتعلقة بالتصور الطبقي للمجتمع، وكذلك لعلاقات الطبقات الاجتماعية ببعضها البعض، كذلك الافتراضات المتعلقة بالجماعات الاجتماعية المختلفة الموجودة في المجتمع كالافتراضات والتصورات المتعلقة بالزنوج في مجتمع كمجتمع الولايات المتحدة الأمريكية أو المتعلقة بالبيض في القارة الأفريقية. حيث يعني إختيار أي من الافتراضات المتعلقة بالمجال الذي نعمل فيه، أن هذا الاختيار يقربنا من النسق النظري الأكثر تطابقا مع وجهة نظرنا أو إختيارنا .

ذلك يعني أن النسق النظري أو النظرية هي المتغير التابع لكل هذه المتغيرات المستقلة، الافتراضات بمستوياتها المختلفة. وإذا سلمنا بهذه الحقيقة فإنه يترتب علي ذلك مسألتين. الأولي انه من الصعب علي الباحث أن يغير نظريته بإعتبار أن الافتراضات الفاعلة (العامة، الكامنة وافتراضات المجال) مازالت ثابتة لم تتغير، الامر الذي يجعل من الصعب إنجاز إختيار جديد يتناقض مع افتراضاته القاعدية وإلا كان هناك تناقص بين تصوراته وقناعاته الكامنة في اللاواعي وبين ممارسته النظرية. والثانية ضحالة المحاولات التي تبذل للتوحيد أو لصياغة تكامل بين النظريات المتناقضة كتلك التي بذلها فغن دينبرج Vangen Berg أو دي ميرات N j Demerath والتي استهدفت التوفيق او المصالحة بين الماركسية والنظرية الوظيفية لأن ذلك يعد من باب

المصالحة أو التوفيق بين المتغيرات التابعة. بينما الافتراضات القاعدية لكل نظرية من النظريات ما زالت ثابتة كما هي وتتناقض مع نظيرتها[٧].

ذلك يعني ضرورة أن نهتم ونحن نحاول تأمل بناء النسق النظري بمجموعة الافتراضات القاعدية علينا إختيار نظريا بعينه .وبذلك تجعلنا أميل لتبني هذا النسق النظري أو ذاك بإعتباره الاطار المرجعى الذي يوجه جهودنا العلمية في نطاق عمليات الوصف والتحليل والتفسير .

وتتصل الحقيقة الثانية بطبيعة صياغة النظرية ذاتها. حيث تكون النظرية كما اشرنا من مجموعة من " العبارات " التي تسمي " قضايا" فإذا لاقت هذه القضايا تسليما وقبولا واسعا وإذا دعمتها نتائج البحوث الواقعية فإن هذه القضايا تتحول لتصبح " قوانين علمية " ومع ذلك فإننا نؤكد أن النظرية تتشكل بالاساس من الافتراضات أو التعريفات المتعلقة بالمفاهيم وبالمثل من مجموعات من القضايا التي قد تصل درجة التصديق ببعضها إلي مستوي القوانين، حتي أنه يطلق عليها " قوانين" غير أنه من المؤكد في هذا الصدد أنه ليس صحيحا أن نقول أن النظرية والقوانين هما شيئا واحدا أو هما نفسي الشيء [٨] .

وإذا قلنا أن النظرية تصاغ علي هيئة بناء يتكون من مجموعة من القضايا ، فإن النظريات تصاغ ـــ كما هي الحال في علم الطبيعة ـــ في بعض العلوم عادة علي هيئة معادلات رياضية بل إننا نجد أن علم الرياضيات ذاته ليس أكثر من نسق عالي التجريد يتكون من الرموز العامة أعني اللغة ولكن في أكثر مستوياتها تجريدا. وبرغم أنه يمكن صياغة النظريات بأي لغة، إلا

---

[*] من الدعوات الساذجة التي طرحت علي الجماعة العلمية في علم الاجتماع دعوي سلة المفاهيم والتي تشير الي امكانية ان يستخدم الباحث مفاهيم أو قضايا تنتمي لنظريات مختلفة لفهم أي من ظواهر الواقع الاجتماعي مثل هذه الدعوة تشير الي فهم ديناميات الابنية النظرية وتلعب دورا أساسيا في تشويه عقول طلابنا .

أنه كلما كانت اللغة اكثر تحديدا كلما كان ذلك افضل بالنسبة لأغراض بناء النظرية أو إختيار قضاياها(٩) .

وإرتباطا بذلك فإنه إذا كان إختيار النظريات يتضمن في الغالب الاستفادة من الارتباطات، أو التحليلات الإحصائية الاخري. حيث نجد أن هذه الإجراءات والتكنيكات تساعد علي اكتشاف الحقائق إذ يخبرنا معامل الارتباط علي سبيل المثال إلي مدي يرتبط متغيرين أو اكثر ببعضهما البعض أعني أن الارتباط يوضح لنا إلي إي مدي يحدث شيء حينما يحدث أو لا يحدث اخر (١٠) .ونجد هنا ان الارتباط يوضح " الحقيقة " التي هي طبيعة العلاقة بين المتغيرين، بيد أن توضيح الحقيقة لا يعد تفسيرا لها. فهذه العلاقة وأن اكتشفت بواسطة التحليل الإحصائي، إلا أن تفسير وجودها أي إبراز سبب أو علة وجودها تصبح مهمة العقل الإنساني المزود بنسق نظري يساعده علي الإدراك العلمي السليم فهو – أي العقل الانساني – وليست المعادلات الاحصائية – الذي عليه ان يجيب بتحديد المتغيرات المسئولة عن وجود هذه العلاقة. أو عن وجودها بالنحو الذي هي عليه.

وترتبط الحقيقة الثالثة بمستوي التجريد الملائم لصياغة النظرية الاجتماعية حيث يحدد مستوي التجريد مستوي شمول النظرية ومدي إقترابها او علاقتها بالواقع. ومنشأ ذلك ان العالم الذي نعيش يتكون من فئات يسودها في الغالب تنوع لا نهائي فهناك " الاسرة " كإحدى الفئات، غير ان كل عائلة أو اسرة تختلف بالتأكيد عن الأخري. وهناك " الكتاب " كإحدي الفئات الموجودة في هذا العالم . لكن ليس هناك كتاب يشبه اخر ومن ثم فلكي نحصل علي معني من هذا الكم الهائل من المدخلات المحسوسة، والتي يتعرض لها البشر بصورة يومية فإننا نجدهم يجردون بعض العناصر المشتركة بين عدد من الحالات الواقعية التي تقع في إطار فئة محددة بحيث يمكنهم التأكيد بعد ذلك علي أن حالات معينة تعتبر جزءا من فئات

الموضوعات(*) وعلي هذا النحو تعتبر الكلمات والمفاهيم مجرد تجريدات غير أن هذه الكلمات تختلف عن بعضها البعض من حيث مستوي التجريد. بحيث يمكننا صياغة تباين مستويات التجريد علي هيئة متصل علي أحد أطرافه توجد مثل كلمة "كتاب" ، وهي كلمة تستحضر صورة واقعية واضحة تماما للعقل ومن ثم فإذا اغلقت عينيك، فإن بإمكانك أن تتصور أو تستحضر او تري "كتابا" بينما علي الطرف الاخر من المتصبل نجد الكلمات العالية التجريد والتي تشير إلي كم هائل من الظواهر الواقعية التي قد تختلف من جوانب كثيرة والتي قد تشترك في عنصر واحد أو عنصرين فقط ولذلك فإنك لا تستطيع بسهولة أن تغلـــق عينيك وتتصور أو تري "الديمقراطية" أو "المكانة الاجتماعية" او "النسق الاجتماعي" .

وفي هذا الإطار ينبغي أن ندرك أن المصطلحات المستخدمة في أي علم من العلوم تختلف عن بعضها البعض علي هذا المتصل من التجريد. و لذلك يعتبر مفهوم " الجريمة " علي سبيل المثال أكثر واقعية من مفهوم "الانحراف" الذي قد يضم كل الجرائم، ولكنه قد يضم أشكال أخري من إنتهاك المعايير أو القواعد. وعلي هذا النحو تعتبر الجريمة مصطلحا أكثر تجـــريدا من مصطلـــح "الاغتصاب "RAPE أو السطو BURGLARY

(*) تعتـــبر كلمـــة"كتاب" تجريد يلفت الانتباه إلي الشيء الذي له وجوده الفيزيقي،الذي له غـــلاف وبين دفتي الغلاف توجد حزمة من الأوراق المرتبطة ببعضها البعض حيث تحـــتوي كـــل ورقة علي رموز، صور، وتوضيحات ، وما إلي ذلك ونحن في العادة نـــتجاهل الاخـــتلافات المتعلقة بالحجم أو اللون أو عدد الصفحات أو أسلوب الطباعة وغـــير ذلـــك مـــن الجوانب التي نسقطها في حالة الصياغة التصورية للكلمة العامة "كتاب" وكذلك نطلق كلمة العائلة علي مجموعة الأفراد الذين يرتبطون بعلاقة قرابته من الدرجة الأولي ويعيشون في نفس المكان معيشة واحدة ونتجاهل هذه العائلة عائلة نوويـــة أو ممتدة أو متصلة وغير ذلك من الجوانب التي تجعل العائلة الواقعية تختلف عن بعضها البعض.

بإعتبار أن الأخيرة مصطلحات تشير إلي أفعال أو وقائع محددة يمكن تصورها بصورة أكثر تحديدا من مصطلح الجريمة .

فإذا افترضنا أن الظواهر الواقعية هي الأقرب من طرف المتصل الأقل تجريدا بينما التنظير أو التجريد هو الأقرب من طرف المتصل الأعلى تجريدا، فإن العملية العلمية سوف تتضمن حركة إلي الأمام والي الخلف علي متصل التجريد فحينما يشارك الباحث في جمع المعطيات من الواقع فإن هذا الباحث يمارس جهده العلمي حاليا علي مستوي واقعي نسبيا او عند الطرف الأقل تجريدا من المتصل أما عندما يحاول تفسير نتائج بحثه لهذه المعطيات فإننا نجده يتحرك إلى منتصف المتصل وفي حاله التنظير – أي التعامل مع المفاهيم المجردة – فإنه يعمل وفق مستويات اعلي من التجريد . ذلك يعني ان النظرية والبحث يغذي كل منهما الآخر معرفيا. وفي هذا الاطار لابد وان نؤكد علي تماسك التنظير عند أي مستوي من مستويات التجريد حيث تتصل المفاهيم والمصطلحات التي عند مستوي معين من التجريد، بنفس التماسك الذي تكون عليه الظواهر والمعطيات الواقعية (١١) .

وترتبط الحقيقة الخامسة بالحقيقة السابقة، حيث تتابين مستويات التنظير بتباين مستويات التجريد فعلي الطرف الأكثر تجريدا من المتصل السابق نجد الأنساق النظرية في علم الاجتماع، حيث يتكون النسق النظري من المصطلحات الأكثر عمومية وتجريدا حتي أن الباحثون يجدوا من الصعب بل من المستحيل أحيانا تأسيس علاقة أو صلة بين النظري من ناحية والعالم الواقعي من ناحية أخري، وعلي سبيل المثال تستخدم بعض النظريات الاجتماعية في المدرسة البنائية الوظيفية لغة أكثر تجريدا، ونتيجة لذلك تفشل بعض نظريات هذه المدرسة في أداء وظائفها الرئيسية من حيث تفسير المعطيات المتعلقة بالحقيقة الواقعية(•)

(•) رغم أن البارسونزية تعتبر من النظريات الاكثر شمولا وتجريدا إلا أنها ليست منقطعة الصلة عن الواقع الاجتماعي إذ يمكن إشتقاق بعض القضايا أو الفرضيات الخاصة من فرضياتها أو قضاياها العامة لكي تساعدنا في تحليل واقع إجتماعي بعينه وتفسير التفاعل بين عناصره ومن الطبيعي أن يؤدي فحص وإختيار هذه الفروض أو =

وتعتبر النظرية البارسونزية تجسيدا لذلك واستجابة لهذا الموقف فقد طالب بعض علماء الاجتماع بالقناعة بمستويات من التجريد اقل نظرية وعمومية من المستوي السابق. مستوي من التجريد يقع عند منتصف المتصل او ادني من ذلك فقد طالب مثلا عالم الاجتماع روبرت ميرتون Robert K M ertn بأهمية تطوير النظريات المتوسطة المدي. حيث طالب ميرتون علماء الاجتماع أن يكونوا أكثر تواضعا في أهدافهم حينما يطورون نظرياتهم فبدلا من محاولة تطوير نظريات عامة، ومن ثم اكثر تجريدا لتفسير الأداء الوظيفي للأبنية الكلية للمجتمعات، نجده قد اقترح إمكانية تطوير مجموعة من النظريات الأقل عمومية لتفسر العناصر او المكونات الأصغر في الواقع الاجتماعي (١٢) .

وعلي ذلك يطلب مدخل ميرتون من علماء الاجتماع أن يركزوا جهودهم علي تطوير نظريات للانحراف والتدرج الاجتماعي وعلاقات الاقلية بالأغلبية ، والتغير السكاني، وغير ذلك من النظريات الأقل تجريدا ولكنها النظريات الأكثر اقترابا من الواقع الاجتماعي والأكثر قوة من حيث الارتباط به. ومن ثم الأكثر قابلية للفحص والاختبار (١٣) .ويؤكد ميرتون أنه بعد تطوير مجموعة من هذه النظريات الاقل تجريدا فإننا ينبغي أن نتحرك بها الي مستوي أعلي من التجديد ومن ثم تطوير نظريات أكثر عمومية واكثر شمولا واستناد إلى أن علم الاجتماع يسير في نفس الطريق الذي سارت فيه العلوم فإننا نجد أن روبرت ميرتون يطالب علم الاجتماع – علي أساس من المماثلة – أن يطور نظرية نيوتونية في الميكانيكا أولاً قبل أن يحاول تطوير نظرية أنيشتين عن النسبية .

= القضايا الفرعية إلي إلقاء الضوء علي مدي الثقة في الفرضيات أو القضايا العامة للنظرية. ذلك لأن منشأ بناء النظرية العامة لتالكوت بارسونز يستند بالأساس الي القضايا او الفرضيات النظرية التي ثبت صدقها علميا في علوم النفس والانثروبولوجيا وعلم الاجتماع .

ولا تقتصر مجموعة الحقائق السابقة علي النظرية الاجتماعية من حيث كونها نسقا نظريا يتألف من مجموعة من القضايا. ولكنها تتسع لتشمل نظرية اخري شبيهة بالنظرية الي حد كبير، او اكثر اقترابا منها. فإضافة الي مجموعة الفروض العامة أو الفروض الكامنة أو افتراضات المجال وهي التكوينات النظرية التي تفرض طابعا أو لونا معينا علي أي من النظريات الاجتماعية التي يضمها علم الاجتماع الآن. نجد أن هناك أبنية نظرية متماسكة وتؤدي دور النظرية تقريبا ويمكن وضعها كذلك علي نقطة معينة من متصل الواقعية والتنظير أو الأدنى تجريدا والأعلى تجريدا. من هذه الأبنية النظرية النموذج Model النظري الذي يجسد الواقع أو هو بالأصح "ماكيت " مصغر له، نلجأ إلي بنائه حينما نفتقد وجود النظرية القادرة علي التعامل مع الواقع ومن هنا يؤكد بعض العلماء أن هذا النموذج يمكن أن يصلح قنطرة للعبور الي بناء النظرية علي خلاف ذلك نجد النموذج الموجه Paradigm الذي يقع علي عكس النموذج المجسد للواقع وعلي نقيضه، علي الطرف الأكثر تجريدا من المتصل حيث يتكون هذا النموذج من مجموعة الفرضيات أو القضايا المشتقة من نظرية قائمة واكثر تجريدا، أو هي مجموعة من القضايا أو الافتراضات القائمة بغض النظر عن تضمنها داخل بنية نظرية متماسكة ، وهي علي هذا النحو التي تشكل وجهه نظر محددة الي السياق المحيط وما يحدث به من تفاعلات وسوف نعرض فيما يلي لبعض من هذه الأشكال النظرية (١٤).

ثانيا: الافتراضات العامةGreneral Assumption

تحدد مجموعة الافتراضات العامة طبيعة نظرة الباحث وأسلوب عمله في هذا النطاق من المعرفة واستناد إلى ذلك نجد أن مجموعة الافتراضات العامة وان كانت موضع اتفاق في نطاق الجماعة العلمية إلا أنها تكون معروفة الي حد ما بالنسبة للثقافة العامة، ومن ثم فهي مقبولة ومسلم بها من وجهة نظرها وقد يحدث ان تتباين الافتراضات المتعلقة بنمط معين من المعرفة عن الافتراضات العامة التي تنظم العمل في نطاق معرفة أخري

فمثلا نجد أن الافتراضات التي نعمل وفقا لها في نطاق المعرفة العلمية. والتي تعتبر في حد ذاتها جزءا لا يتجزأ من الحياة اليومية للبشر قد تتناقض ظاهريا مع بعض الافتراضات التي تتضمنها المعرفة الدينية أو الفلسفية ومع ذلك فنحن نوافق علي كليهما ونسلم به. وعلي سبيل المثال فنحن نفترض ان هناك واقع "موجود خارجنا" وأننا يمكننا التعرف عليه في كل لحظة بإستخدام حواسنا، أو في كل لحظة نأتي فعلا معينا ندرك مقدما أسبابه ونتائجه وفي هذا الاطار فنحن نفترض عالما تحكمه السببية في كل لحظة نحاول أن تفسر أي ظاهرة لأنفسنا أو للآخرين بدون الإشارة إلى سببية قائمة ولا ندركها وبرغم أننا نعتقد بوجودها وندرك فاعليتها . فحينما نعمل في إطار السببية العلمية، لا نشير الي الله، أو أي كائن لا يمكن التحقق من وجوده مباشرة او ندركه بحواسنا كما ندرك الموضوعات فتلك سببية دينية ندركها من خلال الإيمان العميق. بإيجاز نحن حينما نتصرف لإدراك السببية في مجال العلم فإننا نتصرف علي أساس من الافتراضات العامة التي سوف نعرض لها .

بالإضافة إلى ذلك فإننا نجد ان الافتراضات العامة لأي نوع من أنواع المعرفة تحدد في العادة أسلوب العمل في إطار هذا النوع من المعرفة فمن خلال تحديدها لطبيعة الظواهر الكائنة في مجال المعرفة، اعني تحديد طبيعة المادة التي نتعامل بها فإنها تحدد انسب أساليب التعامل مع هذه المادة تحدد هذه الافتراضات حدود قدرات الباحث علي المعرفة، فمثلا تؤكد المعرفة العلمية علي الإدراك المباشر للشيء من خلال مؤشراته الخارجية التي ندركها. علي حين أن المعرفة الأدبية أو الفنية تؤكد علي قدرة الإنسان علي التواصل أو التأثر الذاتي بالموضوع الذي يشكل إطار إهتمامه في هذا الاطار تتضمن المعرفة العلمية وهي مجال الاهتمام الأساسي في هذا المؤلف توفر مجموعة معينة من الافتراضات العامة والشاملة التي تتعلق بالواقع وما هو مدخلنا لمعرفة هذا الواقع. وفي الغالب تلقي مثل هذه الافتراضات قبولا واسعا بين الجماعات العلمية المختلفة بغض النظر عن التخصص العلمي.

من هذه الافتراضات مثلا. أن يسلم الباحثون في أي علم من العلوم بوجود واقع في "الخارج " وان الحياة ليست وهما موجودا داخل العقول الذاتية للبشر. حيث لا يفترض العلم وجود هذا الواقع خارج عقول الأفراد فقط، ولكنه يفترض أيضا إمكانية معرفة هذا الواقع وهو ما يعني إفتراض مجموعة من البشر القادرين علي فهم ومعرفة هذا الواقع كذلك قادرين علي تحديد طبيعته بدقة متناهية . بحيث يترتب علي ذلك إن كل من العلوم يسعي الي فهم جانب معين من جوانب الواقع (١٥). وانه إذا بدت هذه المعارف في مرحلة معينة ذات طبيعة جزئية، فإنها بتطورها وتراكمها سوف تلتقي مع المعارف التي توفرت عن العلوم الأخري بحيث أننا بإمكاننا ان نتصور احتماليا إمكانية تكامل المعرفة العلمية في المستقبل، بحيث يدعم بعضها البعض، وتشكل معرفة شاملة تتوازي مع كلية الحقيقة الواقعية في أساسها.

وما دمنا قد افترضنا بأن الواقع موجود "خارج عنا" فإن هناك افتراض أخر لابد وان يتكامل معه. وهو إننا نستطيع معرفة هذا الواقع من خلال الاستخدام المباشر لحواسنا (١٦) . وفي هذا الاطار نجد أن وسائل المعارف الأخرى ليست مقبولة في إطار المعرفة العلمية فمثلا ترفض المعرفة العلمية الاستبطان الذاتي كوسيلة من وسائل اكتساب المعرفة او الحصول عليها برغم أن هذه المناهج يمكن أن تكون مقبولة لاكتساب المعرفة في أنماط أخرى من المعارف وعلي هذا النحو نجد أن المعرفة العلمية تحدد الوسائل التي يمكن ان نكتسب من خلالها المعرفة بشرط أن تكون هذه الوسائل ملائمة لاعمال حواسنا، تأكيدا لذلك فإننا نجد أن مناهج وطرق البحث في العلوم المختلفة هي من النوع الذي يمكن الاستفادة به باستخدام حواسنا وإعمال عقولنا كالملاحظة القابلة للمقارنة وتحليل المضمون حيث نجدها جميعها إجراءات منهجية تلعب حواسنا دورا أساسيا لأنجازها .

ويرتبط بذلك افتراض ثالث يؤكد علي إننا إذا كنا نرغب في الحصول علي المعرفة العلمية المتعلقة بشيء ما فإننا ينبغي أن نفترض أساسا أن الظواهر موضع الاهتمام أو التي نطلب المعرفة بشأنها قابلة

للملاحظة والقياس. بغض النظر عن كون الملاحظة بدائية أو ان هذا القياس غير مكتمل ومن الطبيعي ان تكون هذه الوسائل المختلفة طوع حواسنا الخمس وهي "السمع" و"الرؤية" و"التذوق" و"الشم" و"الإحساس"[٢٠] .ومن الطبيعي ان يفترض ذلك وجود بعض الجوانب في الظاهرة قابلة للملاحظة والقياس وهي الجوانب التي تعبر عن وجودها الخارجي غير أننا في بعض الأحيان قد لا نجد الظاهرة موضع الاهتمام موجودة بذاتها في الخارج. فمثلا ظاهرة الطلاق لا توجد في مكان معين وزمان بعينه بحيث نستطيع لمس أو ملاحظة حدود وجودها كوجود "مظاهرة أو إضراب" مثلا. في هذه الحالة فإننا نستطيع التعرف علي وجود هذه الظاهرة ــ الطلاق ــ من خلال مؤشراتها، أي من خلال عدد حالات الطلاق التي تقع سنويا، مع توزيع هذا العدد بالنظر الي متغيرات عديدة كالمكان، وعمر الزوجين، عدد الأولاد، وغير ذلك من المتغيرات التي تساعدنا علي تلمس حدود الوجود الخارجي للظاهرة وعلي ذلك يمكننا القول بأن الظواهر الموجودة بالخارج، يمكن أن يكون وجودها وجودا مباشر، ومن الممكن ان يكون وجودها غير مباشر ومن ثم ندركها من خلال مؤشراتها المختلفة .ونظرا لأن المعرفة العلمية تسعي إلى الوصول الي التعميمات التي يمكن إذا تعمقت درجة الثقة بها ان تتحول إلى قوانين. بحيث تستخدم هذه التعميمات أو القوانين في السيطرة علي العالم الخارجي وضبط ايقاعه وتفاعلاته. فإن ذلك يتطلب منا أن نؤكد افتراض اخر يذهب الي التأكد بأن ثمة نظام في هذا الكون وأن هذا النظام يمكن فهمه وإدراكه بواسطة البشر فإذا تصورنا العالم بإعتباره مجموعة من الحوادث أو الظواهر التي تتميز بتفردها والتي تقع بعشوائية كاملة، أعني دون ان يحكمها نظام أو نمط او إطراد فإنه سوف يصبح من الصعب الوصول الي تعميم يمكن أن يحكم أو يجرد هذه الحوادث أو الظواهر المتناثرة، وبدون التعميمات التي تشكل قاعدة لقيام النظريات والقوانين لن يكون هناك علم.

وبعبارة أخري نجد أن كل العلوم تسعي إلى الوصول إلى التعميمات التي تصور التفاعلات الخاصة بالظواهر المتكررة الوقوع وهو ما يعني أن هذا السعي يفترض بصورة مسبقة أننا في عالم أساسه الانتظام وليست العشوائية وعلي سبيل المثال علينا أن نتخيل ما يمكن الوصول إليه إذا حاولنا أن نفهم الجريمة، بإعتبار أن علينا ان نتخيل ما يمكن الوصول إليه حاولنا ان نفهم الجريمة، بإعتبار أن كل حادثة أو فعل إجرامي منفرد بذاته تماما، سواء في أسباب حدوثه أو كيفية حدوثه أو طبيعة نماذج البشر الذين يميلون لإرتكاب هذا السلوك، وكيف يعاملهم الآخرون، وغير ذلك من الجوانب أو التساؤلات. التي تتطلب لمعالجتها معالجة علمية ضرورة أن يتكرر وجودها في الحوادث أو الأفعال الإجرامية التي نتعرض لها بالبحث والتحليل بحيث يمكننا وجودها في النهاية أن نصل إلي التعميم الذي يذهب إلي أنه من المحتمل أنه إذا توفرت أسباب أو متغيرات معينة أن يقع أو يحدث فعلا إجراميا بعينه ويحدث أيضا بأسلوب محدد.

ويتعلق بافتراض أدراك العالم بإعتبار انه يتكون من مجموعة من التفاعلات أو الحوادث او الظواهر المنتظمة، إفتراض أخر تؤكد عليه مختلف العلوم . وهو الافتراض المتعلق بالسببية. وهو ما يعني أنه إذا كان العالم الذي نعيش يتكون من مجموعة من المكونات أو العناصر، فإنه من الطبيعي أن تكون هناك علاقات بين هذه المكونات أو العناصر. وما دام العالم منظما ومطردا في تفاعلاته علي نحو ما اتضح لنا في الافتراض السابق فإنه من الطبيعي أن نستنتج وجود علاقات سببية بين هذه المكونات أو العناصر من هنا يصبح من الضروري علي العلماء أن يفترضوا وجود السببية أو الارتباط المنطقي بين العمليات أو العمليات أو الحوادث القابلة للإدراك وبين حوادث أو ظاهرات أخري. حيث يمكن أن يؤدي فعل عنصر أو مكون إلى تأسيس فعل عنصر أو عناصر أخري. بحيث يصبح الفعل الأول سببا أما الثاني فيعتبر نتيجة لهذا السبب أو الأسباب .

وقد تطور إدراك العلم لافتراض السببية فبعد أن كانت هناك السببية البسيطة أو الأحادية والتي يؤدي في إطارها فعل عنصر معين إلي حدوث نتيجة محددة في عنصر أخر. ظهرت أنماط كثيرة من السببية، مثل السببية الوظيفية التي تدرك انه وان كان عنصر معين يؤثر في عنصر أخر إلا أن هذا العنصر الآخير قد يؤثر بدوره في العنصر الأول وهنا نجد أن عناصر أو مكونات البناء الإجماعي تتبدل عادة التأثير والتأثر، وهو اصطلح علي تسميته بالسببية الجماعية، بمعني أن تفاعل مجموعة من العوامل من الممكن أن يؤدي إلي نتيجة معينة. ولم يعد في إطار هذه السببية ما يسمي بالمتغير المستقل أو المسبب، والمتغير التابع الذي حدثت في نطاقه النتيجة، بل إننا نجد أن جملة العناصر أو المتغيرات التي تشكل بناءا معينا تتبادل المواقع من حيث التأثير أو التأثر، أو من حيث موقعها ومكانها في مجري أو حدوث التفاعل الاجتماعي[١٨] . هذا بالإضافة إلى نمط السببية التطورية المتصاعدة والتي تتبادل فيها مجموعة من العناصر التي تشكل بناء المجتمع التأثير والتأثر، ولكنها من خلال عملية التفاعل هذه ترتقي دائما إلي أوضاع جديدة غير الوضع التي بدأت منه التفاعل . فكل دائرة من التأثير والتأثر تضيف قيمة جديدة مضافة إلي التفاعل تجعله يختلف عن التفاعل الذي كان سائدا من قبل .

ويرتبط بافتراض التأكيد علي العلاقات السببية افتراض أخر يؤكد ويتعلق باعتقاد أو افتراضه إنتقاء "الإرادة الحرة" وذلك لأننا إذا اعتقدنا بالإرادة الحرة للإنسان فإن ذلك سوف يعني أن السلوك الإنساني سوف لا يكون محكوما بآية سببية غير خاصته الميتافيزيقة التي لا يمكن إدراكها بواسطة حواسنا بصورة مباشرة أو غير مباشرة. ذلك يعني أن مفهوم "الإرادة الحرة" ينكر مفهوم "السببية " فيما يتعلق بالسلوك الإنساني ومن ثم فإن القول "بالإرادة الحرة "يتناقض أيضا مع الافتراض الذي يؤكد علي انتظام العالم وعدم عشوائيته ولا يعني أن نقول بانتقاء "الإرادة الحرة" أننا ننكر ان لدي البشر اختيارات وبدائل فيما يتعلق بكل شيء يفعلونه [١٩].

غير ان العلوم الإنسانية تفترض أن هذه البدائل محدودة ومنمطة وان الاختيارات التي تتحقق منظمة "وغير عشوائية" وتسببها ظواهر "ويمكن التعرف عليها". فهي ظواهر تتعلق بالموقف أو السياق أو الشخص القائم بالاختيار وفي هذا الاطار فإنه يمكن تعديل هذا الافتراض بحيث يتضمن أن السلوك الإنساني ليس محتما بصورة مسبقة، بالمعني الكامل والمحدد لكلمة "محدد قبلا" ولا هو ناتج عن "الإرادة الحرة" وحدها. وهو ما يعني أن البشر مثل كل الظواهر الموجودة في هذا العالم، يتصرفون بصورة تتضمن حدا أدني من الحتمية، وهو ما يعني أن ما يحدث يمكن علي الأقل إخضاعه للتفسير السببي الذي يحاول تحديد العوامل التي تهييء لحدوث النشاط او الفعل موضع الاهتمام [٢٠] . غير أننا نعتقد أن مساحة إرادة الكائن البشري في إنجاز فعل يعبر عن إختياره الحر، هي مساحة واسعة لاعتبارين. الاعتبار الأول أن السببية الذي ينظم العلاقات بين المتغيرات المختلفة لم يتم اكتشافه بصورة كاملة ومن الواضح أنه كلما انتقلنا من نمط معين من السببية إلي أخر أكثر تقدما كلما اتسعت المساحة التي يتعرض فيه العنصر لتأثير أكثر من متغير، وهو الأمر الذي يعني إحتمالية أن تلغي بعض المتغيرات سببية المتغيرات الأخرى الأمر يعني ضعف إجمالي تأثير المتغيرات السببية علي الإنسان. وهو يعني أتساع مساحة الحرية الإنسانية في الاختيار، فإذا قلنا أن سلوك الإنسان يخضع لفاعلية المتغيرات الاقتصادية والدينية والعائلية فإنه إذا تناقض تأثير هذه المتغيرات مع بعضها البعض فإن ذلك يعني أن مساحة الحرية والاختيار سوف تكون أوسع أمام الإنسان مما لو خضع لتأثير متغير واحد لا يؤثر شيء علي تأثيره السببي. أو مما لو خضع لتأثير جملة من المتغيرات التي يدعم تأثير بعضها تأثير البعض الأخر من هنا فإنه يمكن القول أنه كلما تحرك الإدراك الإنساني من التأكد علي السببية البسيطة أو الأحادية إلى السببية المتعددة أو الجماعية كلما اتسعت مساحة الاختيار الإنساني ولعبت الإرادة الحرة للإنسان دورا أساسيا في إنجاز السلوك. بالإضافة إلى ذلك فإننا نعتقد أنه كلما قطع المجتمع شوطا علي طريق التقدم

كلما تزايد اكتشاف عدد المتغيرات المؤثرة في السلوك، كلما انتقل السلوك الإنساني كذلك من حاله لتأثير المجتمع خضوعا كاملا إلي حلة تتسع فيها مساحة حرية الاختيار أو أعمال الإرادة الحرة ويتمثل الاعتبار الثاني في انه حتى إذا وافقنا علي الفهم السببي الضيق والأحادي والذي بمقتضاه حيث تؤثر المتغيرات الأخرى علي الإنسان فتتعرض عليه سلوكا معينا ، يعد نتيجة للتأثير الذي فرض عليه أو تأثر به ، فإن الذات الإنسانية تعد بتكوينها السيكولوجي والاجتماعي متغيرا يشارك الي جانب بعض المتغيرات الأخرى في تسبب السلوك.

وفي هذا الاطار يمكننا الوصول إلى نتيجتين الأولى أن تأثير الذات الإنسانية كمتغير قد يتجاوز تأثير المتغيرات الأخرى في تحتيم السلوك ومن ثم يصبح السلوك في هذه الحالة هو بالأساس نتيجة للتكوين الذاتي للإنسان أو هو تعبيرا عن هذه الذات المحددة بما يتجاوز تأثير أي متغير والثانية أنه كلما قطعت المجتمعات شوطا علي طريق التقدم كلما انعكس ذلك علي تطور الشخصية الإنسانية ذاتها. بحيث نجد أن الشخصية تنتقل من حالة التجانس الذي تميزت به في إطار المجتمعات البدائية أو الأولية إلى حالة من الميل الي التفرد والتعددية حيث نجد ان تفرد الذوات الفردية يكون اكثر عمقا في المجتمعات المتقدمة الأمر الذي يجعل الفعل أو السلوك الذي تؤديه الشخصية معبرا عن الذات الفردية بالاساس إضافة إلى تأثير بعض المتغيرات الأخرى في السياق الاجتماعي. حتي أننا نجد أن هناك بعض الباحثين الذين يحاولون فهم السلوك البشري ليس من خلال الاطرادات التي يخضع لها علي نحو ما يؤكد أصحاب الاتجاه الوضعي، ولكن من حيث مدي اعتبار الفعل أو السلوك الإنساني معبرا عن ذات إنسانية متفردة وينبغي فهمه ذاتيا منفردا .

غير أننا قبل أن نترك هذه القضية نريد التأكد علي ان الإفتراضات الاساسية او العامة للعلم ليست ثابتة أبدا، ولكنها قد تتغير من عصر إلى أخر فإذا نظرنا مثلا إلى الفترة التي نشأت فيها العلوم الطبيعية ومن ثم العلوم السلوكية والاجتماعية فإننا سوف نجد ان الافتراضات الوضعية أو العلمية

هي التي حكمت أداء العلم الاجتماعي بيد أننا نجد أنه ابتداء من منتصف القرن العشرين ظهرت مجموعة من التيارات الفكرية في نطاق علم الاجتماع والتي تري إمكانية تحقيق الفهم الاجتماعي والحصول علي المعرفة الاجتماعية المتعلقة بالمجتمع وفق إفتراضات أخري غير الافتراضات العامة المحددة لطبيعة العلم حاليا .

ثالثا : الافتراضات الكامنة Background Assumption

تحتوي أي نظرية من النظريات الاجتماعية علي نوعين من الافتراضات حيث تشير المجموعة الأولي من الافتراضات إلى تلك الافتراضات المصاغة بصورة صريحة، والتي يمكن تسميتها بصورة صريحة " بالمسلمات " غير أنه بالإضافة إلي ذلك تحتوي النظرية الاجتماعية علي مجموعة من الافتراضات غير المحددة ومن ثم غير المسلم بها، ويمكن تسميتها بالافتراضات الكامنة، وذلك لأنها تشكل الإطار أو الخلفية التي تنبثق عنها المجموعة الأولي من الافتراضات، أي المسلمات وتنطبع في الغالب بطابعها هذا إلي بالإضافة إلى انه لا يمكن صياغة الافتراضات الكامنة بصورة صريحة وذلك لكونها تبقي دائما في خلفية انتباه المنظر، أو بالأصح في لا وعية من هنا فإذا كانت المجموعة الأولي من الافتراضات الأولى أو المسلمات تشغل محور انتباه المنظر ووعيه، فإن الافتراضات الكامنة تظل غير محددة المعالم في اللاوعي غير أن هناك علاقة عضوية بين نوعي الافتراضات، وإن كانت الافتراضات الكامنة لها الأولوية في تشكيل الافتراضات الصريحة أو مسلمات النظرية وبينما نجد أن المسلمات النظرية تشكل الانتباه المركز بالنسبة للمنظر، نجد أن الافتراضات الكامنة تشكل جزءا مما يسميه ميشيل بولاني Micael Plonayi "الانتباه الثانوي للمنظر " [٢١] وفي الغالب توجد الافتراضات الكامنة متضمنة في المسلمات النظرية للمنظر فهي تؤدي دورها من خلالها أو إلى جوارها، ومن ثم يقال أن الافتراضات الكامنة تشكل " الرفيق الصامت " للمسلمات النظرية الصريحة وفي هذا الاطار يمكن أن تلعب الافتراضات الكامنة أدوار عديدة.

فهي قد تلعب دورها باعتبارها تقدم أسس الانتقاء، أي الاهتمام والتركيز علي موضوعات معينة دون أخرى. حيث نجد ان النظريات المختلفة قد تختلف من حيث طبيعة الجوانب التي تركز عليها في بناء المجتمع، أو الموضوعات، أو الظواهر التي ينبغي أن نتعرض لها بالبحث أو الدراسة فتأكيد ماركس علي دراسة المتغيرات الاقتصادية وفائض القيمة كأساس لنمو النظام الرأسمالي، يتناقض وتأكيد ماكس فيبر علي المتغير الديني والقيم البرتستنتية كأساس لنمو الرأسمالية المعاصرة، يرجع بالأساس إلى تباين الافتراضات الكامنة عند كل منهما بحيث جعلته يركز علي مكونات أو عناصر معينة في بناء المجتمع دون أخري .

بالإضافة إلى ذلك تؤثر الافتراضات الكامنة علي تماسك مسلمات النظرية من حيث كونها تشكل الرابطة الخفية التي تربط هذه المسلمات ببعضها البعض وإذا كان شرطا من شروط النظرية أن لا تتناقض قضاياها مع بعضها البعض فإن ذلك يرجع إلى أن تصور وجود هذا التناقض غير ممكن لأن كل المسلمات تنطلق من خلفية واحدة أو من إطار واحد يجعلها تشترك في اتجاه واحد، وتتكامل لكي تشكل وجهة نظر واحدة. بالإضافة إلى ذلك فإننا نجد أن الافتراضات الكامنة تؤثر منذ البداية وحتى النهاية علي صياغة النظرية من حيث تحديد القضايا التي تشكل بناء النظرية، ثم أسلوب تجريد هذه القضايا حتى تصبح صالحة لتشكل بنية النظرية، ثم اختبار هذه لقضايا حتى تصبح علي درجة عالية من الثقة في هذه النظرية، وأيضا طبيعة العلاقة بين النظرية والواقع أو المجتمع. إلى جانب ذلك تحدد الافتراضات الكامنة طبيعة اداء الباحثين الذين توجههم النظرية خلال المراحل المختلفة للاستعانة (عمليات الوصف والتحليل والتفسير) وما هي المتغيرات التي يوليها الباحثون أهمية وأولوية علي متغيرات أخري.

كذلك تؤثر الافتراضات الكامنة علي الدور الاجتماعي حيث تؤثر علي استجابة هؤلاء الذين يتفاعلون أو يتواصلون من خلالها إذ ترفض النظريات في الغالب أو يوافق عليها إستنادا الي الافتراضات النظرية الكامنة

بها، أو المتضمنة فيها[٢٢] .إذ نجد علي سبيل المثال أن يقبل النظرية هؤلاء الذين يعتقدون في فرضياتها الكامنة، بغض النظر عن تفاعلهم مع بعضهم البعض بشان ذلك لكونهم يجدونها مقبولة وتعكس قدرا كبيرا من ذواتهم وقناعاتهم. وذلك يرجع الي ان النظريات الاجتماعية والقضايا والمفاهيم المشكلة لها تحتوي إضافة الي الايحاءات المحددة للنظريات، علي شحنة من المعاني الفائضة والمشتقة في جانب منها من الافتراضات الكامنة ومن شأن هذه المعاني أن تعكس الافتراضات الكامنة التي تنسق مع افتراضات الذين يسمعون بهذه النظرية كما أنها، أي هذه المعاني، قد تولد نوعا من النفور من النظرية عند هؤلاء الذين تتناقض إفتراضاتهم الكامنة للنظرية. وفي هذا الاطار تتابين الافتراضات الكامنة بين الذين يناصرون النظرية الماركسية مع هؤلاء الذين يناصرون البنائية الوظيفية، وحيث يرفض كل فريق النظرية الأخرى لن معانيها تتناقض مع المعاني التي تعكسها إفتراضاتهم الكامنة .

واستناد إلى ذلك فإن الالتزام بنظرية معينة يعتبر عملية معقدة للغاية أكثر مما هو مفترض بحسب قواعد المنهج العلمي. حيث يؤكد الأخير علي أن الالتزام بنظرية معينة أو التخلي عنها يكون في العادة بالنظر إلى اعتبارات فكرية رشيدة حيث تذهب هذه الاعتبارات إلى أن رفض النظرية أو قبولها يتم بالاستناد الي الفحص المتعمد والتقدير الرشيد للمنطق الصوري للنظرية وكذلك الأدلة التي تؤيدها فإذا اقتنع علماء الاجتماع بوجهة النظر هذه فإن ذلك يعني استعدادهم لتفسير سلوكهم بأسلوب يختلف جذريا مع الأسلوب الذي يفسرون به سلوك الآخرين، أي بالتأكيد علي اتباع البشر لسلوكيات معينة أو موافقتهم علي أشياء محددة بالمجتمع بالنظر إلى القواعد الاجتماعية التي تنظم، ذلك بغض النظر عن الأبعاد الداخلية أو الذاتية. إضافة الي ان يشهد علي استعدادنا لتفسير سلوكنا كما لو كان يتشح بالتكيف التلقائي مع أخلاقيات البحث العلمي[٢٣] . بغض النظر عن قيمتنا وذواتنا وخبراتنا التي بداخلنا والتي حصلنا عليها نتيجة لتفاعل اجتماعي طويل له بعده الزماني والتاريخي .

ارتباطا بذلك يتمثل احد أسباب الاقتناع بالنظرية في مدي تطابق أو تناسب هذه الأسباب مع الافتراضات الكامنة التي يعتقد فيها المنظر. وفي هذا الإطار فإننا نشعر ان النظرية مقنعة بديهيا حينما نستخدمها بإعتبارها شيئا معروفا او نشتبه في أننا نعرفه قبل ذلك وتصبح النظرية ملائمة لانها تؤكد افتراضا يعتقد فيه من يقتنع بالنظرية.غير انه افتراض غير واضح بالنسبة له لكنه بالتحديد افتراضا كامنا. وفي نطاق ذلك نجد ان النظرية المقنعة أو المفهوم المقنع بديهيا هي تلك النظرية التي تجعل المنظر "حساسا " كما يذهب بلومر Herbert Blumer ولكنها لا تجعله حساسا لشيء موجود في العالم الخارجي فقط، ولكن أيضا لشيء مازال غامض حتي الآن في عالمه الداخلي، ويمكن القول بأن قدرا كبيرا مما يعتبر الآن نظرية اجتماعية معروف لهذه الاعتبارات او الأسباب [٢٤]. وفي الغالب تكون الافتراضات الكامنة من أحجام مختلفة وكذلك هي تتحكم في مجالات من مساحات مختلفة واستنادا الي ذلك نجد ان بالامكان ترتيب الافتراضات الكامنة علي شكل مخروطي مقلوب، يركز علي قمته المدببه، حيث نجد في اعلي هذا الشكل الافتراضات الكامنة عند المحيط الاكثر اتساعا . فليس هناك مجال محدد تنطبق عليه او تناسبه الافتراضات وأنما هي تناسب كل المجالات وفي العادة تتكون هذه الافتراضات من المعتقدات العامة للغاية والتي ترتبط بالعالم الذي نعيش فيه والتي يمكن ان تنطبق من حيث المبدأ علي أي موضوع بدون تحديد،فهي كما يسميها ستيفان بيبرStephan Pepper إفتراضات عالمية ولكونها إفتراضات مبدئية او قبلية عن العالم وكل شيء بداخله، فإنه تؤدي دورها باعتبارها أكثر التوجهات عمومية، فهي التوجهات التي تجعل الخبرات غير المألوفة ذات معني لكونها تقدم تفسيرا او تبريرا لها [٢٥] . بالإضافة الي ذلك فهي تقدم الحدود المرجعية التي تتحدد بواسطتها الافتراضات الاقل عمومية ومن ثم تتأثر بواسطتها وهي الافتراضات التي تقع اسفل الشكل المخروطي فكأن الافتراضات الأعلي هي التي تطبع بطابعها ورؤيتها افتراضات النطاق الأقل .

وفيما يتعلق بطبيعتها الأساسية تتكون هذه الافتراضات العالمية من اكثر المعتقدات أولوية وانتشار وتتعلق بما هو واقعي علي سبيل المثال تتضمن الميل إلى الاعتقاد بأن العالم والأشياء المتضمنة فيه هو عالم واحد ومتعدد في ذات الوقت الي جانب ذلك فهي تتضمن الاستعداد للاعتقاد بان العالم في "الحقيقة " علي درجة عالية من التماسك والتكامل (بغض النظر عن كونه عالما واحدا أو متعدد) أو الاعتقاد المعتاد الذي يشير إلى أنه متناثر وضعيف الارتباط ببعضه البعض وإذا ان نسمي الأشياء بأسمائها الصحيحة تسمي الفروض العالمية أي التي تتصل بالعالم في كليته وليست قاصرة علي أحد اجزائه في بعض الأحيان بالافتراضات الميتافيزيقية (٢٦) .

وهناك تساؤلين رئيسين يمكن طرحهما فيما يتعلق بدور الافتراضات الكامنة بالنسبة للعلم الاجتماعي أو في إطاره، سواء كانت هذه الفروض ذات طبيعة عالمية شاملة أو تقتصر علي مجال بعينه ويدور السؤال الأول حول مدي أهمية أو ضرورة أن يستند العلم الاجتماعي ـ لأسباب منطقية ـ بدرجة لا مفر منها الي بعض من هذه الافتراضات، حيث يعتبر السؤال الذي يتعلق بمدي حاجة النظريات الاجتماعية ـ بصورة لا يمكن تجنبها ـ الي الاستناد منطقيا الي بعض الافتراضات الكامنة، سؤال يشكل قضية هامة بالنسبة للمناطقة أو فلاسفة العلم، فهو من الموضوعات التي تعالج ضمن اهتمام فلسفة العلم أو علم اجتماع المعرفة. ويتعلق السؤال الثاني وهو الذي اهتم به الان، بمدي إستعداد العلماء الاجتماعيون إلي إلزام أنفسهم ببعض الافتراضات الكامنة فيما يتعلق بالإنسان والمجتمع، وهي الافتراضات التي لها تأثير ونتائج وذات دلالة بالنسبة لنظرياتهم. وهم في الحقيقة يلتزمون بمثل هذه الافتراضات وفي هذا الاطار يمكن القول بأن اداء علماء الاجتماع يتأثر مثلما يتأثر اداء الآخرين بمجموعة من المعتقدات النظرية الفرعية، و هو ما نقصده بالافتراضات الكامنة أعني المعتقدات المتعلقة بكل أعضاء المجالات المختلفة التي تتشكل تشكلا رمزيا. ذلك يعني ان علماء الاجتماع

يستخدمون الافتراضات الكامنة وهم كذلك يتأثرون بها بحيث يمكن اعتبار ذلك موضوعا امبيريقيا يمكن لعلماء الاجتماع دراسته وإثبات صدقه (٢٧).

وتتميز الطبيعة الأساسية للإفتراضات الكامنة بأنها لم تختار أصلا لأسباب Instrumental أي بالأسلوب الذي قد يختار به الباحث للدالة الإحصائية او يحدد مجموعة من الأسئلة التي يقصد بها جمع معطيات معينة إذ لا تختار هذه الافتراضات ولكنها تفرض نفسها من داخلنا علي إختياراتنا وممارساتنا النظرية. فهي مستوعبة Internalized بداخلنا قبل عمر الادراك العقلي بوقت طويل، فهي تعتبر أدوات إدراكية محملة بشحنة عاطفية تطورت مبكرا من خلال عملية التنشئة الاجتماعي في ثقافة معينة وترسخت بعمق في بنائنا الاخلاقي ومن ثم قابلة للتغير إرتباطا بالتغيرات التي تطرأ علي الشكل أو الطابع الاجتماعي العام. ومن ثم فهي تختلف إرتباطا بالتغيرات التي تطرا علي ممارسات وخبرات التنشئة الاجتماعيـــة، ومن ثم فهي قابلة للاختلاف بإختلاف العمر وجماعات الرفـــاق(٢٨)

وفي محاولة التعرف علي الروافد والمصادر الرئيسية للافتراضات الكامنة فإننا سوف نجد أن لدينا مصادر عديدة، تصدر عنه بعض من هذه الافتراضات أو التصورات غير أننا نجدنا في النهاية أمام مجموعة من الافتراضات الكامنة، التي تبلورات في داخل اللاوعي الإنساني نتيجة لتفاعل هذه المصادر جميعها. وهي في وجودها وفاعليتها مثل رجود الرواسب عن باريتو. فهي قوي عاطفية توجه الاختيارات النظرية للإنسان من الداخل. وفي العادة نجد أن الافتراضات الكامنة تغطي الجوانب المختلفة للمجتمع أو العالم الذي نعيش فيه أننا إذا تبنينا مجموعة من الأفكار فيما يتعلق بجانب معين من جوانب الحياة، فسوف نجد ان هذا التبني كان إلى حد إلى كبير تحت تأثير الافتراضات الأساسية الكامنة في عمق الذات البشرية ومن الطبيعي أنه إذا حدث تغير في طبيعة مصادر هذه الافتراضات الكامنة، فإن

هذه الافتراضات سوف تتغير أيضا، وكذلك سوف تتغير الاختيارات النظرية التي أستندت إلي هذه الافتراضات الكامنة [*]

ونستطيع فيما يلي أن نحدد المصادر الأساسية التي يستوعب من خلالها الفرد إفتراضاته الكامنة:

١ـ ويشكل التراث الثقافي والاجتماعي للمجتمع أحد المصادر الرئيسة للافتراضات الكامنة. ومن الطبيعي ان يضم هذا التراث بداخله الدين والأخلاق الاجتماعية التي تراكمت عبر التاريخ الطويل للمجتمع . وكذلك الخبرات التي مر بها المجتمع، والتي تبلورت من خلال التفاعلات الاجتماعية الكائنة به ، أو التي تسود العلاقة بينه وبين المجتمعات الأخرى بحيث هذا الأرث الثقافي خبرة او تجربة تاريخية تحدد نظرة المجتمع، و من ثم أعضاءه المكونين له، إلى كل عناصر أو مكونات المحيط. فهي تحدد نظرة المجتمع الي الكون، منشأة ومنتهاه ، والي العالم الآخر وطبيعة القوي المختلفة التي تنتمي اليه وتلعب دورا فاعلا في إطاره ثم مكانه المجتمع تكون في هذا الكون الشامل، ومكانه الإنسان في المجتمع والكون ومدي خضوعه للمجتمع وقوانينه أم مدي قدرته علي تأسيس التفاعل الاجتماعي وضبط إيقاعه . حيث نجد أن هناك كثير من الافتراضات الكامنة التي تنتمي بالأساس إلى هذا التراث، والتي تشكل توجهات الإنسان الي الآخر، أي اخر، والتي تحدد طبيعة الاختيارات النظرية التي يؤسسها الباحثون في هذا المجتمع. فمثلا لا نستطيع ان ننكر تأثير التراث الأوربي، الخبرة الأوربية والدين المسيحي وعصور

(*)علي سبيل المثال ظل عالم الاجتماع فلفريدو وهو في بداية حياته ولفترة طويلة بعد ذلك أثناء ان كان يعيش مصاعب اقتصادية وحياتيه عديدة يمتدح النظم الاشتراكية ويدافع عن الأغلبية الفقيرة غير انه بعد وفاة احد أعماله الأثرياء وورث عنه ثروة كبيرة بدأ بتحور حياة ناعمة في قرية "سيلليني" بإيطاليا غير انه بتغير حياته علي هذا النحو نجده اصدر مؤلفا ينتقد فيه بحده النظم الاشتراكية من الطبيعي ان تؤثر الافتراضات الكامنة والتي تنتج عن تفاعل السياق مع الخبرة الشخصية علي الاختيارات النظرية للباحث .

الانحطاط والتنوير علي تحديد طبية النماذج النظرية التي ظهرت في أوربا . كذلك لا نستطيع ان ننكر تأثير المسالة اليهودية علي تحديد موقف ماركس من الدين، ولا نستطيع ان ننكر تأثير "المحارق" في اوشفيتزا علي اختيارات الباحثين اليهود لفكر النقد الاجتماعي وقيامهم بالمزواجة بين الماركسية من ناحية والفكر السوسيولوجي البرجوازي من ناحية أخري (*)

٢- ويشكل السياق الاجتماعي المصدر الثاني – في اعتقادنا – للافتراضات الكامنة ونقصد بالسياق الاجتماعي مجموعة الأطر الاجتماعية التي يعيش في إطارها الفرد، وحيث يتفاعل من خلالها مع الآخرين، ويتأثر بالتفاعل الحادث بها، بل ، ويستدعها بصورة متجددة ومتتابعة خلال مراحل حياته المختلفة ويعتبر المجتمع بكامله سياقا اجتماعيا شاملا يطبع الفرد بطابعه. بحيث نجد نظرة الفرد الي ما حوله تتشكل بما يحدث من تفاعلات في السياق وبما يضم من عناصره ، إذ يستوعب الفرد أو مجموعة الأفراد من خلال عمليات التنشئة الاجتماعية المستمرة والمتتابعة المضمون الثقافي والاجتماعي للمجتمع. وبذلك تعبر توجهاته عن روح المجتمع بصورة عامة، وإذ كان الباحثون في العلم والعلم الاجتماعي هم أعضاء في المجتمع قبل أن يكونوا أعضاء في الجماعة العلمية، فإنه من الطبيعي أن تتشكل لديهم بعض الافتراضات الكامنة التي تنتقل إليهم عادة مما يحدث في السياق الاجتماعي ومن ثم تشكل وجه نظرهم في الاختيارات النظرية .

* بطبيعة الحال يطرح ذلك للمناقشة والحوار الدعوي التي يؤكدها البعض حول اعتبار العلم الاجتماعي الأوربي علما عالمياً أو جزء من الثقافة العالمية التي ينبغي أن تأخذ بها كل المجتمعات. مع أن هناك كثير من النظريات او القضايا او الفرضية التي قد لا تتسق مع الافتراضات الكامنة في تراثنا، الأمر الذي يثير معضلة "إبستمولوجية" تحتاج إلي التأمل والبحث الجاد .

تأكيدا لذلك فإنه نظرا لتعرض البلاد المتخلفة لعمليات استغلال تاريخي ومعاصر، فإننا نجد الباحثون في العلم الاجتماعي أميل ما يكون لتبني الأطر النظرية التي تدافع عن واقعهم وتفضح عملية الاستغلال. إذ نجد أن النسبة الغالبة لديهم اختيارات ماركسية او ماركسية محدثة، أو إختيارات تقع في إطار نظرية التبعية أو النقد الاجتماعي، لكنهم يكونون في الغالب أبعد ما يكون عن اختيار الفرضيات النظرية التي تبرر عملية الاستغلال البرجوازي .

ويرتبط بالسياق الاجتماعي السياق الطبقي، وهو سياق فرعي من هذا السياق العام، قد تقترب الطبقات المكونة للبناء الطبقي لتعكس الروح العامة للمجتمع وقد تتباعد عن بعضها، حتى بعض هذه الطبقات تعيش في حالة من العزلة عن مجتمعها متقدمة عليه أو حتي متخلفة عنه . في الحالة الأولي نجد بعض برجوازيات العالم الثالث تتعدد نوعية حياه أقرب إلى نوعية حياة البرجوازيات العالمية من حياة مجتمعاتها، وفي الحالة الثانية نجد بعض الطبقات الاجتماعية الدنيا والمهشمة اجتماعيا في المجتمعات المتقدمة اقرب إلى تبني شعارات واتجاهات فقراء العالم الثالث . السياق الطبقي يزود الفرد ببعض الافتراضات الكامنة التي تحدد وجهة نظره في أحداث وقضايا عالمه المحيط وإذا كان الفرد عضوا في الجماعة علمية فإنها تحدد اختباراته النظرية كذلك ويرتبط بالسياق الطبقي او يتناظر معه انتماء الفرد لسياقات اجتماعية أخرى مضافة او بديلة كانتماء الفرد الي جماعات معينة، كالجماعات القبلية أو العائلية. إذا كانت من القوة ــ كما هي الحال في المجتمعات التي ما زالت تعيش في المرحلة الانقسامية ــ فإنها من الطبيعي أن تؤثر علي وجهة نظر الفرد، ومن ثم علي الاختيارات النظرية لهذا الفرد، إذا كان باحثا علميا كذلك انتماء الفرد لجماعة الأغلبية أو الأقلية في المجتمع. إذ من الطبيعي أن تزود هذه السياقات المباشرة اعضاءها ببعض

الافتراضات الكامنة *والتي قد تحدد اختياراتهم النظرية بعد ذلك ويدخل في هذا الاطار الجماعة الدينية التي ينتمي اليها ، أو الجماعة العرقية التي ينحدر من أسلافها، إذ تشبه السياقات الاجتماعية العديدة مجموعة من الدوائر المتداخلة، والتي تشع محيطاتها جميعها تأثيرا علي مركز هذه الدوائر حيث الفرد. ومن شأن هذه التاثيرات أن تشكله من الداخل، أو تزوده بشحنة عاطفية مصحوبة بمجموعة من الافتراضات الكامنة والمؤثرة علي سلوكياته الاجتماعية، واختياراته الفكرية او النظرية .

٣ ــ وتشكل الخبرات الحياتية للإنسان المصدر الثالث للافتراضات التي يحملها الفرد بداخله، ذلك لأن الإنسان يشارك في التفاعل الاجتماعي وتتشكل به. ومن خلال هذا التفاعل تتشكل لديه وجهة نظر فيما يتعلق بالتفاعل أو العمليات القاعدية في المجتمع. هل التعاون الذي يشكل العملية الرئيسية التي تصبغ بلونها التفاعل والعلاقات الاجتماعية السائدة بين أفراد المجتمع، أم أن الصراع هو العملية الرئيسية التي تشكل قاعدة المجتمع، هل البشر خيرون بطبيعتهم، أم ان حالة الشر هي حالة استثنائية طارئة لا تشكل عنصرا أصيلا في الإنسان هل البشر شريرون بطبيعتهم، ومن ثم فهم يحتاجون الي قدر هائل من القواعد والقوانين والقيود التي تنظم سلوكياتهم حتي يستطيعون التعايش مع بعضهم البعض. حيث نجد أن هذه القناعات أو المعتقدات تتسرب الي داخل الإنسان ــ عن غير وعي وتستقر في منطقة اللاشعور أو اللاوعي ــ لتشكل افتراضات كامنة

(*) في حوار بين اثنين من الباحثين، أحدهما ينتمي الي جماعة الاغلبية، بينما ينتمي الثاني الي جماعة الأقلية أكد الأول أن معايير المجمع هي في الغالب معايير الثقافة الغالبة بحكم ان الذين يعملون وفقا لها هم الاغلبية العددية لمجتمع علي ذلك رد الباحث الثاني بأنه في حالة وجود ثقافة أقلية أرقي من ثقافة الاغلبية، فإن من شأن معايير ثقافة = = الأقلية أن تفرض نفسها باعتبارها المنطقة للتفاعل الاجتماعي، بحكم أنها المعايير الأرقي والأولي لكونها تؤدي وظيفتها بكفاءة أعلي، وبتكلفة اقتصادية أقل ولا شك ان اختلاف خطابهما يعكس افتراضات كامنة تسللت الي كل منهما من خلال سياقه الاجتماعي المباشر .

تشكل وجهة نظر البشر في الحياة ، بل واختياراتهم النظرية إن كانوا أعضاء في الجماعة العلمية للعلم الاجتماعي .

٤ ــ بالاضافة الي ذلك فإن هناك مجموعة من المتغيرات التي يمكن أن تؤسس سياقات فرعية تعتبر بدورها مصدرا لعديد من الافتراضات الكامنة من هذه المتغيرات متغير النوع، حيث ينقسم البشر إلى ذكور أو إناث، فإذا كان المجتمع تقليديا ويميز بين الذكور والإناث وتتحيز الثقافة والقيم لنوع علي حساب أخر، وكذلك تتميز الممارسات الاجتماعية نحو كل منهما. فإنه من المنطقي أن يكون لجماعة النوع، كسياق اجتماعي ــ المرأة مثلا في المجتمع التقليدي ــ مجموعة من الافتراضات الكامنة التي تشكل وجهة نظرها، حتي في اختياراتها النظرية إن كانت عضوا في الجماعة العلمية كذلك التباين الريفي الحضري، حيث يؤدي ذلك إلى أن ينشأ الفرد في سياق يختلف عن الآخر، ومن المتوقع أن يزوده سياقه ببعض العواطف أو الافتراضات الكامنة التي تشكل أساسا لاختياراتهم الاجتماعية والثقافية والفكرية، ويصبح لهذا التباين تأثيره الواضح كلما كان الانفصال أو التباين واضح بين الريف والمدينة ، كما هي الحال في بعض مجتمعات العالم الثالث بيد إننا ونحن نعرض لتأثير السياقات الاجتماعية المختلفة، والمتغيرات المرتبطة بها، علي تأسيس بعض الافتراضات الكامنة في بناء شخصية الباحث أو المنظر والتي تجعله يميل الي الارتباط ببعض القناعات النظرية أو النظريات المحددة ، فإنه تحضرنا في هذا الاطار أربعة حقائق رئيسية.

أ ــ وتتمثل الحقيقة الأولي في أنه إذا تعددت السياقات الاجتماعية التي يتعرض لتأثيرها الفرد، فإن الافتراضات الكامنة في بنائه تكون في العادة نتاجا للتفاعل بين الأطر او السياقات المختلفة التي يتعرض لتأثيرها الفرد وفي هذا الإطار نواجه باحتمالات عديدة الأول ، أن تكون هذه السياقات متسقة ومتوافقة مع بعضها البعض، الأمر الذي يدعم الافتراضات الكامنة التي يزود بها الفرد نتيجة لارتباطه بهذه السياقات والثاني، أن يتغلب أحد

السياقات الأخرى من حيث درجة تأثيره علي الفرد او من حيث مدي ارتباط الفرد به الأمر الذي يجعل الافتراضات الكامنة التي يستوعبها الفرد بداخله ترتبط بصورة اساسية بهذا السياق . والثالث أن تتناقض هذه السياقات من حيث مضامينها مع البعض فيضعف في النهاية تأثيرها علي الفرد، ومن ثم فقد يحصل الفرد في هذه الحالة علي إفتراضاته الكامنة من أقواها، أو من مصادر أخري ربما من خارج هذه السياقات جميعها .

ب ــ أنه من الطبيعي أن تكون الافتراضات الكامنة في شخصية الإنسان متسقة الي حد كبير مع مضامين سياقاته وخبراته الحياتية الي حد كبير حيث تصبح خبرات الحياة والسياقات التي تولدت فيها هذه الخبرات هي المتغيرات المستقلة التي من الممكن أن تصدر عنها افتراضات معينة كامنة في شخصية الفرد بحيث تلعب هذه الافتراضات الأخيرة دورها من حيث كونها تشغل مكانه المتغيرات الوسيطة التي تؤدي الي المتغيرات المستقلة علي المتغيرات التابعة، وحيث تتمثل الأخيرة في القناعات أو الاختيارات النظرية للفرد، أو الباحث إذا كان عضوا في الجماعة العلمية. الأصل أو القاعدة الأساسية أن يكون الأمر علي هذا النحو . وأن ما يخالف ذلك يعتبر حالة استثنائية، أو خروج علي القاعدة .

ج ـ وتتمثل الحقيقة الثالثة في وضع مضاد تقريبا الوضع الذي تصوره الحقيقة السابقة . حيث من المحتمل في بعض الاحيان ان ينفصل الفرد عن خبراته أو سياقاته السابقة، ومن ثم عن الافتراضات الكامنة التي تزود بها من خلال معايشة هذه السياقات. ومن الطبيعي أن يكون ذلك دافعا للارتباط بسياقات أو أطر اجتماعية جديدة ، يرتبط بها الفرد ويأخذ عنها بدون وعي افتراضات كامنة جديدة ويحدث ذلك في العادة حينما تحدث قطيعة بين الإنسان وسياقاته الاجتماعية، أو بالأصح بينه وبين سياقاته المحورية. قد يحدث بسبب الحرمانات التي واجهها الفرد وعدم إشباع حاجاته في ظل هذه السياقات، أو بسبب بعض الخبرات المؤلمة

التي واجهها أثناء حياته بهذه السياقات بحيث يعتبر ذلك أساسا للتنكر لهذه السياقات والانفصال عنها مثال علي ذلك، انفصال بعض أبناء الفقراء الذين تعلموا عن أوضاعهم الطبقية ومن ثم تنمية او تطوير ارتباطات طبقية مضادة . وقد يساعدهم علي ذلك الارتباط بطبقات جديدة الامر الذي يجعلهم عرضة لتبني الافتراضات الكامنة من السياقات الجديدة . أو هجر أبناء العالم الثالث لمجتمعاتهم .والحياة بمجتمعات غريبة عنها، وتعرضهم بالتالي لتبني افتراضات كامنة جديدة مرتبطة بهذه السياقات الجديدة، كذلك اتجاه أبناء الآباء المتدينين إلى تبني مواقف دينية ملحدة .

د ـــ أنه قد يحدث في بعض الأحيان أن تكون السياقات الاجتماعية التي ينشأ في نطاقها الفرد ضعيفة ومن ثم فإن الافتراضات التي يمكن ان يستوعبها الفرد تصبح ضعيفة كذلك، أو هي ضعيفة من حيث درجة تجذرها في شخصية الفرد. الأمر الذي يؤسس لدي نمط الشخصية القدرة علي الارتباط بهذه السياقات وتأسيس ارتباطات جديدة مع سياقات جديدة، من الممكن أن ينفصل عنها بدورها في مراحل تالية. ونتيجة لذلك تصبح الخبرات الحياتية للشخص هي مصدر افتراضاته الكامنة بذاته، في مثل هذا الوضع نجد ان الشخصية هي الوحدة المستقلة بذاتها ، او يصبح من السهل عليها تغيير اختيارها النظرية، مع تغيير افتراضاتها الكامنة. وفي هذه الحالة نجد أن هذه الافتراضات لم تعد كامنة، ولكن يدرسها الفرد ويحاول ان يؤسس اختيارات نظرية أو اعتقادية تنسق مع هذه الافتراضات ، وتساعده في النهاية علي تحقيق مصالحه. وفي هذه الحالة الأخيرة لا يعمل الفرد او الباحث لصالح تطوير النسق النظري الذي وقع عليه اختياره، بقدر ما يعمل علي الاستفادة من النسق النظري في تحقيق مصالحه وإضافة إلى فهمنا لمجموعة الحقائق السابقة والمتصلة بطبيعة العلاقة بين الافتراضات الكامنة وبين السياقات الاجتماعية للفرد، أو بين هذه الافتراضات والاختيارات النظرية أو المعتقدات النظرية للباحث، فإنه لكي نفهم علم الاجتماع الاكاديمي، فإن علينا ان نفهم الافتراضات الكامنة

فيه، سواء كانت افتراضات ذات طبيعة عالمية شاملة أو افتراضات تتعلق ببعض المجالات فقط . حيث يمكن استنتاج هذه الافتراضات من خلال النظريات الاجتماعية القائمة التي تعمل استناد إليها وعلي النحو تعتبر النظريات الاجتماعية جزءا – وليس كل المعطيات التي نستطيع بواسطتها إدراك الافتراضات الكامنة للمنظر. حيث تعتبر النظريات مجرد جزء من المعطيات لان كل المنظرين يخلفون وراءهم آثارا كثيرة وبارزة غير منشوراتهم الرسمية فهم الي جانب التنظير يكتبون الرسائل (الخطابات)، ولهم مناقشاتهم، ويلقون محاضرات غير رسمية ، ويتبنون مواقف سياسية. بإيجاز، فهم لا يكتبون المقالات المتخصصة فقط بل يعيشون من خلال كل الأساليب التي قد يعيش من خلالها الآخرون، وليس غريبا ان نجري معهم المقابلات حتي يمكن التعرف علي بعض المعطيات التي تساعدنا في التعرف علي افتراضاتهم الكامنة .

استناد الي كل ما سبق تقدم الافتراضات الكامنة " رأس المال " العقلي الموروث الذي وهب به المنظر منذ وقت طويل قبل أن يصبح منظرا. والذي يستثمره أخيرا في أدائه لمختلف أدواره العلمية . بحيث يدمج هذه الافتراضات بتدريبه المهني، ونظرا لان الافتراضات ذات طبيعة نظرية ثانوية، أو خافية اللاوعي، فإننا نجدها تمنح النظريات القائمة إدعاءاتها، وقوتها ومداها إلي جانب انها تحدد مواضع اهتمامها، وتركيزها وكذلك تؤسس نطاق حركتها وذلك بهدف التطوير الفني Technical لها. ومع ذلك فقد تتجه الافتراضات الكامنة عند مواضع معينة لكي تلعب دورها في نطاق ظروف جديدة ، غير ملائمة علميا واجتماعيا مع هذه الافتراضات ومن ثم تؤسس تنافرا او تناقضا مؤثرا للمنظر بحيث ان الافتراضات الكامنة تشكل، حينئذ الحدود التي تمنع او تعوق التطور الأبعد للنظرية. وحينما يحدث ذلك ، فإننا لا نكون في حاجة فقط الي تصحيح فني صغير، ولكننا نكون بالأخرى علي وشك حدوث تحول عقلي جذري واساسي. ومرة ثانية قد يظهر جيل جديد وافتراضات جديدة افتراضات لا تعكسها بصورة ملائمة النظريات

المستندة الي الافتراضات القديمة، والتي يشعر جيل الشباب بخطئها وعبثيتها. حينئذ يمكن القول بأن النظرية، وربما النظام العقلي الذي يستند إليها علي شفا أزمة(٢٩) .

رابعاً : افتراضات المجال Domain Assumption

الي حد كبير تعتبر افتراضات المجال حالات خاصة من الافتراضات الكامنة (التي أشرنا إليها في الصفحات السابقة)، أو هي الافتراضات الكامنة، ولكن تلك التي يتحدد تطبيقها بالإنسان والمجتمع. بذلك تصبح الافتراضات الكامنة هي افتراضات المجال حينما تطبق علي أعضاء مجال واحد بعينه. ومن ثم يطلق عليها أحيانا ميتافيزيقا المجال (٣٠) . وعلي سبيل المثال يمكن أن تتضمن افتراضات المجال فيما يتعلق بالإنسان والمجتمع ، الميل إلى الاعتقاد بان البشر عقلانين أو غير عقلانين بطبيعتهم ، أو أن المجتمع مستقر أو غير مستقر في قاعدته الأساسية، وانه يمكن التنبؤ بسلوك الانسان والمجتمع، أو ان إنسانية الإنسان الحقيقة تكمن في مشاعره وعواطفه. ذلك يعني أن افتراضات المجال تعتبر موضوعا يتحدد في النهاية من خلال تحديد ما يعتقده البشر، بما فيهم علماء الاجتماع، فيما يتعلق بمجال بعينه وفي العادة تكون افتراضات المجال أقل انطباعية وميتا فيزيقية من الافتراضات الكامنة المتعلقة بالعالم . برغم أن كليهما افتراضات كامنة وتضم افتراضات المجال تلك التي ترتبط بأعضاء مجال بعينه وتتشكل تلك الافتراضات في جانب منها افتراضات المفكر المتعلقة بهذا المجال من العالم، وهي بدورها تشكل نظرياته التي كتبها بصورة متعمدة . وفي هذا الإطار يمكن اعتبار افتراضات المجال أحد جوانب الثقافة الاشمل والأكثر اتصالا بمسلمات النظرية . هذا إلى جانب ان هذه الافتراضات تشكل أيضا أحد الروابط الهامة التي تربط بين إنجاز المنظر وبين المجتمع الأكبر (٣١) .

ويسمي الفن جولدنر الافتراضات ذات العلاقة نسبيا بموضوع البحث الذي تهتم به النظرية " بافتراضات المجال " وهو يؤكد أن هذه الأفتراضات توجد بصورة شائعة في النظرية الاجتماعية ولكنه في الغالب ليست معلنة أو

موجودة بصورة صريحة . وهي تنشأ وتعمل بنفس الطريقة التي تعمل بها التحيزات أو المعتقدات النمطية في علم الاجتماع (٣٢) . ويذهب جولدنر لتوضيح بعض افتراضات المجال فيذكر بعض نماذجها علي النحو التالي .

١) أن هناك استعداد للاعتقاد بوجود بعض الخصائص التي تظهر عند أو بين أعضاء مجال معين .
٢) هذا الافتراض السابق الذي يكتسبه الباحث يعتقد فيه قبل أن تكون له خبرة بأي شيء يشبه العينة الممثلة لأعضاء المجال.
٣) أن هذه الافتراضات تستند إلى المشاعر والعواطف القوية المتعلقة بأعضاء المجال.
٤) أن هذه الافتراضات المستندة إلى العواطف أو المشاعر هي التي تشكل تفاعلاته وعلاقاته مع أعضاء المجال.
٥) أن هذه الافتراضات لا يمكن أن تتغير او تهتز بصورة كاملة، حتى ولو ابرز التفاعل مع أعضاء المجال خبرات تناقص مع هذه الافتراضات (٣٣) .

ويري الفن جولدنر وهو الباحث الذي أكد علي دور هذه الافتراضات في فهم الأطر النظرية، ان التغيرات الأساسية والشاملة في الأنساق النظرية لا تنتج بسبب اكتشاف تكيفات جديدة للبحث. كذلك لا تنتج بسبب الأساليب الجديدة لإدراك المعطيات الموجودة منذ وقت طويل *

---

* من الممكن ان يؤدي اكتشاف معطيات جديدة ، او تقديم تفسيرات جديدة لذات المعطيات القائمة الي التعديلات محدودة في بناء النظريات القائمة ، مثلما أدي الاكتشاف الذي قدمه روبرت ميرتون فيما يتعلق بالوظائف الكامنة للسلوك او الظاهرة الاجتماعية الي تحقيق تطوير في النظرية او التفسيرات الوظيفية وكذلك من الممكن ان نجد ذلك الوصول الي تكنيكات جديدة الكشف عن المعطيات لم تكن تدرك من قبل غير ان هذه الاكتشاف لا تغير بناء النظرية كلية، ولكن يتغير بناء النظرية حينما افتراضات كامنة جديدة (عامة او خاصة بمجال بعينه) حيث يجعل هذه الافتراضات الجديدة النظريات القائمة قديمة ومن ثم تحل محلها نظريات جديدة .

ولكن تقع التغيرات الأكثر شمولا وراديكالية في الأنساق النظرية أو الأطر التصورية بسبب تغير الافتراضات الأساسية التي تقع في خلفيه هذه الاطر او الأنساق النظرية ، سواء كانت افتراضات عامة وشاملة او عالمية او افتراضات تتعلق بالمجال أي بمجال اجتماعي بعينه . ذلك لان التغير في الافتراضات سوف يعني تغيرا في الأسلوب الذي ننظر من خلاله الي العالم لكونه سوف يحدد ما هو حقيقي وله قيمة وما هو غير ذلك [٣٤] وهو ما يعني ان النظريات القائمة تصبح نظريات قديمة ومهجورة إذا ظهرت افتراضات جديدة تناقص او تلغي الافتراضات القديمة التي تستند اليها النظريات القديمة، الامر الذي يشكل دعوة او يهيىء الظروف، لحدوث تحولات نظرية جديدة. ويؤكد جولدنر ان جانبا كبيرا من النظريات المتماسكة الصياغة في علم الاجتماع تستند الي الافتراضات الكامنة التي لدي المنظر فيما يتعلق بالمجال او المجالات التي تهتم بها النظرية . ذلك يعني التأكيد علي أن النظريات الاجتماعية المتماسكة الصياغة تنتج في جانب منها عن الافتراضات الكامنة للمنظر والخاصة بالمجال الذي تعالجه أو تتناوله النظرية. بل إننا نجد ان النظرية تتطور بتطور هذه الافتراضات، أي من خلال التأثر بها والتفاعل معها. الامر الذي يفرض في بعض الاحيان ـ لاعتبارات الصدق والاتساق ـ ضرورة التزام المنظر بالطرح الصريح لافتراضاته المتعلقة بالمجال الذي يتناوله.

ويحدد المجال الاجتماعي باعتباره مجالا حقيقيا أو واقعيا له تأثيره ونتائجه بالنسبة لصياغة النظرية ويتمثل جوهر الافتراضات المتعلقة بالمجال في كونها مترابطة منطقيا من الناحية العقلية . وهو ما يعني انها قد تأخذ شكل النظرية ليست لأنها تستند الي التدليل والبرهنة أو لامكانية البرهنة عليها ، ولكن لكونها تلعب دورا أساسيا لدفع المنظر الي التركيز علي مواضيع معينة ، غير أننا إذا حاولنا تحديد افتراضات المجال بالنسبة لأحد الأشخاص، فإن هناك احتمالية كبيرة ان يخفي افتراضاته ، لمجرد أنه يريد ان يبدو معقولا من خلال طرح مقولات نظريته بصورة واضحة ومتسقة،

بغض النظر عن افتراضات المجال التي لم يصرح بها . ذلك لأن الشخص لا يريد أن يسلم بامتلاكه لافتراض لا يستطيع ان يقدم منطقاً سليما بشأنه وفي هذا الإطار قد يوجد ميل كبير لتزيين الشخص لافتراضاته الخاصة بالمجال . إذا أعلن عنها أو إخفائها من خلال برهنة معقولة وفي هذا الإطار فإننا نجد ان قطاعا كبيرا من علماء الاجتماع ينظرون الي افتراضاتهم الخاصة بالمجال كما لو كانت حقائق إمبيريقيا .

وفي هذا الإطار هناك مسألتين ينبغي إدراكهما بصورة واضحة، وتتمثل الأولى في ضرورة ان يسلم المنظر بأن ما يشكل جوهر اهتماما ليس فقط ما يوجد في العالم أمامنا ، ولكن ما يوجد بداخلنا كذلك إذ ينبغي ان يمتلك المنظر القدرة علي ان يستمع لصوت ذاته وليس لأصوات الآخرين فقط بينما تفرض المسألة الثانية ضرورة ان يمتلك المنظر شجاعة الإعلان او التصريح بمعتقداته ، أو علي الأقل الشجاعة الكافية للتسليم بمسئوليته عن معتقداته ، سواء منحها العقل مشروعية أم لا فإذا لم يستطيع المنظر تحرير افتراضاته الخاصة بالمجال من النطاق المعتم للوعي الثانوي، وأن يدفع بها إلى النطاق الأوضح لبؤرة الوعي ، حيث يمكن الاعتقاد الثابت فيها من خلال البحث والدراسة فإنها لن تتعرض لمحكمة العقل أو تخضع لاختبارات البرهنة وفي هذا الإطار يؤكد جولدنر إن المنظر الذي يفتقد الشجاعة والبصيرة النافذة للتصريح بافتراضاته يكون شخصا قد اختار المهنة الخطأ [٣٥] .

وبذلك يعتبر من المهم لكي نحدد افتراضات المنظر الخاصة بالمجال أن نمتلك البصيرة النافذة لإدراك ما يعتقد فيه الشخص ، وكذلك الشجاعة لإبراز ما ندركه . ولما كانت الشجاعة والبصيرة النافذة موارد أخلاقية نادرة فأن الامر المهم في قراءة تشخيص منظر لافتراضاته الخاصة بالمجال ، أن نكون علي وعي مستمر في أنه من المحتمل عند نقطة معينة ، فإن الخداع قد يدفعنا للسير في الطريق الخطأ .

ويذهب جولدز إلي أننا نبدأ في عملية تعلم افتراضاتنا الخاصة بالمجال مثل تعلم افتراضاتنا الكامنة ذات الطبيعة الشاملة أو العالمية – منذ بداية تعلمنا لمبادئ لغتنا، وتستمر هذه العملية بعد ذلك مدي الحياة. وذلك لأن اللغة تقدم لنا المقولات Categories التي بواسطتها تتشكل المجالات التي تشير إليها افتراضات المجال. وأثناء تعلمنا للمقولات والمجالات التي تحددها. فأننا نكتسب عدداً متنوعاً من الافتراضات والمعتقدات المتعلقة بأعضاء المجال، وفي الحقيقة تنتج كل المقولات المحددة للمجال، وكذلك تؤدي دورها بنفس الأسلوب الذي تنتج به الأفكار النمطية Stereotypes أو تؤدي دورها. وعلي هذا النحو، فأثناء تعلم الأطفال البيض لمقولة الزنجي، فأنهم يتعلمون أيضاً بعض من الافتراضات الكامنة – التحيزات – المتعلقة بالزنوج، كمجال يضم مجموعة من البشر الذين لهم خصائص محددة، كافتراض أنهم، علي سبيل المثال" كسالي وأنانيون " بالإضافة إلي ذلك فنحن نتعلم كذلك بعض الافتراضات المعيارية Normative الكامنة المتعلقة بهذا المجال أيضاً. أعني المعتقدات المتعلقة بقيمهم الأخلاقية، وجوانب الخير أو الشر فيهم ومن الطبيعي أن تتداخل الافتراضات الوجودية والمعيارية بدرجة قوية حتي أنه يصبح من الصعب الفصل بينهما، إلا إذا كان الفصل تحليلياً. وبأسلوب مماثل فنحن نتعلم المقولات اللغوية مثل مقولات " الإنسان" و " المجتمع" و " الجماعة" و " الصديق " و" الأب " و " الفقير" و " المرأة " وفي العادة يصاحب كل مقولة من هذه المقولات الافتراضات الكامنة المتعلقة بالأفراد الذين يندرجون تحت هذه المقولة، وكذلك الاستعداد لنسبة خصائص معينة لكل أعضاء المجال الذي يشكل بواسطة هذه المقولة أو تلك. كأن نقول أن الأصدقاء مخلصون أو أنهم مخادعون، أو أن الإنسان ضعيف أو أنه حيوان قوي. أو أن المجتمع متماسك ومستقر أم أنه غير مستقر. أو أن الفقراء يستحقون المساعدة أو لا يستحقون[٣٦].

ويعتبر التعرف علي افتراضات المجال الخاصة بنظرية معينة أو مجموعة من النظريات مسألة هامة لتحقيق الفهم الكامل للنسق النظري. وذلك

لأنهــا تعكــس فـــي الغالــب التوجهات والقيم الاجتماعية والسياسية الكامنة وراءهــا. وذلــك لأن الــنظريات قد تتشبع بصورة غير واضحة بمضامين سياســية بعــيدة تمامــاً عــن معانيها ومتضمناتها العلمية، حيث يتجلي ذلك بوضــوح إذا نحــن قد تفحصنا الحوار العدائي الدائم بين منظري الصراع والاتفــاق، حيــث ســمي الأول " بالراديكاليين" بينما سمي الفريق الثاني " بالمحافظيــن " وفي محاولة لفهم هذه المنظورات حدد لا نسكي الافتراضات الأساسية التي يختلفون عليها وهي كما يلي:

١) لا يثق المحافظون في الطبيعة الأساسية للإنسان. ومن ثم فقد أكدوا علي الحاجة إلي النظم الاجتماعية المقيدة.. بينما لا يثق الراديكاليون في هذه النظم الاجتماعية المقيدة،ومن ثم فقد تبنوا وجهة نظر متفائلة فيما يتعلق بطبيعة الإنسان " تأكيداً لذلك " إذ نحن تأملنا الخلاف بين توماس هوبز وبين جان جاك روسو فيما يتعلق بالطبيعة الأساسية للإنسان.أو الخلاف بيــن مــاركس ودوركــيم فــيما يتعلق بهذه الطبيعة . حيث أثرت هذه الافتراضــات الكامــنة علي الأنساق النظرية التي قدمها كل مفكر من هؤلاء المفكرين(٣٧).

٢) ينظر المحافظون تقليدياً إلي المجتمع باعتباره نسقاً اجتماعياً له حاجاته العديــدة الخاصة به، والتي ينبغي أن تشبع إذا رغبنا في إشباع حاجات ورغــبات الأعضــاء المكونين، بينما يميل الراديكليون إلي النظر إلي المجــتمع بدرجــة أكثر باعتباره الأطار الذي يقع في داخله صراعات عديــدة ... ويرتبط بذلك تأكيد المحافظين علي القوانين التلقائية للنسق، فالنسق هو الذي يحدد الحاجة إلي كل من عمليات الاستقرار أو الصراع أو التغــير، التي يميل إلي أي منها النسق نتيجة لظروف تسيطر عليه، بينما يعتقد الراديكاليون علي خلاف ذلك في الإرادة الإنسانية، أي قدرة الإنسان علي تغيير واقعة ومن ثم إمكانية فرض الاستقرار عليه.

٣) يؤكــد الراديكاليون عموماً علي القهر باعتباره العامل الرئيسي لتثبيت حــق الثروة الخاصة والحفاظ عليها... والنظم الأخري التي تؤدي إلي

ظهور الامتيازات والحقوق غير المتساوية، بينما أكد المحافظون.. علي أن الفـــرد يلعـــب دوراً محدوداً فقط وأن عدم المساواة تظهر باعتبارها نتيجة ضرورية للاختلافات الداخلية.. وارتباطاً بذلك يؤكد الراديكاليون علـــي أن حالـــة عدم المساواة أو التباين هي حالة طارئة علي المجتمع البشـــري، فالمجتمع الإنساني انطلق من حالة المشاعية الأولي التي كان البشر متساوون في إطارها في كل شيء. وأن علي البشر أن يناضلون كي ينفوا حالة عدم المساواة هذه، ويعيدوا إلي الإنسانية عصر الإنسانية والمساواة في الحقوق والواجبات. علي خلاف والواجبات. علي خلاف ذلـــك ينســـب المحافظون صنوف التباين وعدم المساواة بين البشر إلي التبايـــن فـــي القدرات والاستعدادات الطبيعية، فالتباينات الاجتماعية لها أصلها وأساسها في الطبيعة الفطرية للبشر.

٤) يختلف ممثلوا التيارين فيما يتعلق بالدرجة التي تولد عندها عدم المساواة الصـــراع فـــي المجـــتمع. فبينما ينظر الراديكاليون إلي تفجر الصراع باعتباره النتيجة الحتمية لعدم المساواة. ومن ثم فعلي القوي المقهورة في المجتمع أن تشن الصراع أو النضال ضد أوضاع وحالة عدم المساواة، لخلـــق مجـــتمع إنساني نظيف تسوده كل مظاهر المساواة في الحقوق والواجبات.

علي خلاف ذلك نجد المحافظون يقللون من شأن عدم المساواة باعتبارها المولـــدة للصـــراع في المجتمع ويرون أن في ذلك اختزال لمقولة الصراع ذاتهـــا وإذا ســـلمنا بأن عدم المساواة يمكن أن يقود في بعض الظروف إلي الصـــراع، فإن أسباب كثيرة أخري موجودة في المجتمع قد تسبب الصراع، فهـــناك الصراع بين الجماعات دفاعاً عن مصالح مكتسبة،أو للحصول علي بعـــض مـــن هذه المصالح، وهناك الصراع بين الأجيال، وهناك الصراع الثقافي الذي يسود المجتمع في بعض من مراحله[٣٨].

٥) وضع الراديكاليون تأكيداً كبيراً علي القوة والاغتيال والثورة باعتبارها القنوات الرئيسية التي بواسطتها يتم اكتساب الحقوق والامتيازات. بينما

ركــز المحــافظون . علـــي الطرق الأكثر شرعية كالعمل، ويرون أن الأســاليب التـــي يقول بها الراديكاليون قد تنطبق علي بعض العصور القديمـــة، بينما في العصر أو المجتمع الحديث، فأن العمل والقدرة علي الإنجاز تعتبر الآليات الرئيسية للحصول علي الثروة، هذا بالإضافة إلي القــناعة بتداول الثروة ، فمن خلال الحراك الاجتماعي المفتوح القنوات يــتم تداول الثروة فمن يمتلكها اليوم يفقدها غداً. ومن يمتلك الكثير منها اليوم قد يمتلك الأقل غداً. هذا بالإضافة إلي تغيير مفهوم الثروة عموماً وعدم قصرها علي المفهوم الاقتصادي للثروة (٣٩).

٦) يــنظر المحــافظون عــادة إلي حالة عدم المساواة باعتبارها حالة ذات طبــيعة حتمــية وتتأسس حتميتها من حاجة المجتمع إلي هذه التباينات والاخــتلافات، فالتبايــن علـــي ما يذهب المحافظون يولد التكامل. هذا بالإضــافة إلي انهم يؤكدون علي أن حالة عدم المساواة هذه لها أساسها فـــي الطبــيعة الأساسية والفطرية للبشر، فنحن نولد ونحن متباينين في اســتعدادتنا الأساسية. علي خلاف ذلك يري الراديكاليون أن حالة عدم المســاواة هذه حالة طارئة، وتعبر عن مجتمع متناقض، ويسوده الظلم والاستغلال الاجتماعي والاقتصادي والسياسي(٤٠).

٧) يوجد خلاف بين الراديكاليين والمحافظين فيما يتعلق بالموقف من الدولة أو القانون. فعلي حين ينظر الراديكاليون إلي كليهما باعتبارهما أدوات للقهــر، تســتخدمها الطــبقات الحاكمة مصالحها من ناحية، ولاستغلال الطــبقات الأخــري من ناحية ثانية وللحفاظ علي الأوضاع القائمة كما هـــي. مـــن ناحية ثالثة ومن ثم فعملية التغير لابد أن تحتوي علي جهد لإلغـــاء الدولـــة والقانون القائم. علي خلاف ذلك ينظر إليها المحافظون باعتبارها – أي الدولة والقانون – عناصر مكونة في بناء المجتمع، وأنها أدوارهـــا ووظائفهـــا التـــي تؤديها كما تؤدي عناصر المجتمع الأخري أدوارهـــا ووظائفهـــا. وأن وظــيفة الدولة والقانون هي تحقيق الضبط الاجتماعي بمعناه الواسع، وذلك بهدف المحافظة علي درجات عالية من التماســك والاســتقرار الاجتماعـــي، حتـــي يــتفرغ البشر والمكونات الاجتماعية الأخري لأداء المهام المعينة لهم اجتماعياً(٤١).

المراجع

١- Laing, R. D: The Politics of Experience. New York. Ballamtive Books, ١٩٦٨. PP. ١٢ – ١٧.

٢- Ibid. P. ١٩.

٣- R. K. Meron: Op. Cit. P. ٣٨.

٤- R. D. Liamg: Op, Cit. P. ٢٠.

٥- Osgood, C. E & George Susi, and Percy Tannenbaum: The Measurement of Meuning. Urbama. University of Illinois Press. ١٩٧٥. P. ١١٢.

٦- علـــي ليلة، البنائية الوظيفية في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، المفاهيم والقضايا، دار المعارف، ١٩٨١ ، ص ٤٢.

٧- المرجع السابق ص ٥٨٠.

٨- T. Parsons: The present position and prspects of systematic theory in sociology. Op. Cit. p. ٢٠٣ .

٩- Ibid. P. ٢١٣.

١٠- Pepper stephan. C: world Hypotheses: A study in Evidence. Brekeley. Universty Press al Clifornia Press. ١٩٦٢. P. ٨٤.

١١- R. K. Merton: Op. Cit. P. ١٣.

١٢- Ibid. ١٥.

١٣- Ibid. ١٦.

١٤- Stephan C. Pepper: Op. Cit. P. ١٦٠.

١٥- Ibid. P. ١٧٢.

١٦- Ibid. P. ١٧٥

١٧- Ibid. P, ١٧٧.

١٨- علـــي لـــيلة: الـــنظرية الاجتماعية المعاصرة، دراسة لعلاقة الإنسان بالمجتمع، دار المعارف، ١٩٩١، ص ٥٢.

١٩- Stephan C. Pepper: Op, Cit. P. ١٦٥.

٢٠- Ibid. P. ١٦٥

٢١- Gouldner. A The coming crises of western sociology. Op. Cit P ٣٠.

٢٢- Ibid. P ٣٣

٢٣- Ibid. P. ٣٥.

٢٤- R. D. Liamy: Op. Cit. P. ٢٢.

٢٥- Stephan C. Pepper: Op. Cit. P. ١٧٠.

٢٦- Alvin Gpuldner: Op. Cit. P. ٤١.

٢٧- Ibid. P. ٤٢

٢٨- Ibid. P. ٤٥

٢٩- Ibid. P. ٥٥

٣٠- Ibid. P. ٥٧

٣١- Ibid. P. ٥٧

٣٢- Ibid. P.٦٣

٣٣- Ibid. P.٦٥

٣٤- Ibid. P.٦٧

٣٥- R. D. Liang: Op. Cit. P. ٤١.

٣٦- Alvin Gouldner: Op, Cit. P ٧٠.

٣٧- Ibid. P. ٧١

٣٨- Ibid. P.٧٢

٣٩- Ibid. P. ٧٣

٤٠- Ibid. P. ٧٥

٤١- Ibid. P.٧٦

رقم الإيداع - الترقيم الدولى

رقم الإيـــداع

٨١٩٠

الترقيم الدولـــى

I . S . B . N.

977 - 023473 - 7